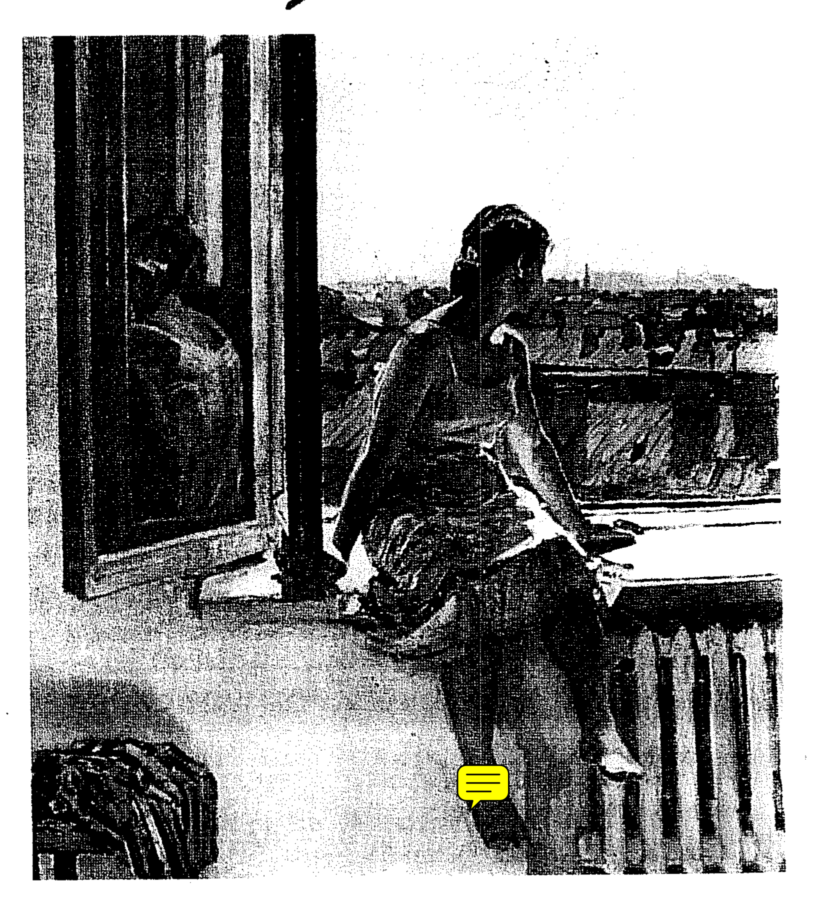
رواية

مليكة مقدّم

المتمرّدة



المركز الثقافي العربي



مليكة مقدّم

المُتَمرّدة

إهداء

إلى أبي أهدي هذا الكتاب الذي لن يقرأه.

وإلى آن براغونس.



السرير الواقفُ

هُنَا

لقد غَادَرَ هذا الصباح. أنا وحيدةٌ في السرير. وحيدةٌ هذا المساء في رائحتنا. بالرغم من أن الشَّراشِف تمّ تبديلُهَا. ولكنّ الرائحة ما زالت، هنا، في نسيج القماش. في ذاكرة السرير. في سبع عشرة سنة من جَسَدَيْنَا، من أنفاسِنَا المُتَشَابِكة. من عُهُودِ الوفاء، من أحلام مُتَشَابِكة. أَرَقِي الذي كَبَحَتْهُ استراحَتُهُ العميقةُ. شُكُوكي التي تقابلها قناعاته الراسخة. في التحامِ جَسَدَيْنَا أستطيعُ أنْ أقرَأَ طويلاً. إلى أن يُقْبِلَ النَّوْمُ ويَسْقُطَ الكِتَاب. التحام جسدَيْنَا مع الكلمات.

لن ينَامَ معي في هذا السرير. أنا مازلتُ تحت وَقْعِ تخدير عُنْف هذا اليقين. كما لو أنّي في حالة مَنْ تَعَرَّضَ لِبَتْرٍ مَا، ساعة استيقاظه من العملية. حين يكون الأَلَمُ ما يزال غائباً. سيأتي الأَلَمُ حين سَيَتَجَسَّدُ الغيابُ. بِكَامِلِ الوعي بالبتر.

أَدورُ وأستديرُ في السرير. ومن العبث أن أقول لنفسي إنّ كلّ هذا لا يوجَدُ إلاّ في رأسي، فالأنفاسُ تنبعُ منَ الشراشف، وتكتَسِحُ تنفُّسي، في أدنى حركاتي. لا أنطفِئُ. لا أقرأُ الكتابَ المفتوحَ. أركِّز

نَظَري، بِبَلاهة، على المكانِ المهجورِ. أُنصِتُ إلى صمت المنزل في جَلَبَة الطَرَمُنطان[1].

لَقَد صَنَعَ هذا السرير بِيَدَيْهِ وكذلك صفائح الأرض الخشبية. في أعلى السَّرير دعامة واسعة تُحِيط بِعَوارِض رأسِ السرير، وهو المكان المخصّص للكتب والمجلات.

مُنكمشة على جانبي، يجيؤني الانطباع، فجأة، بأنني أُنشِب مَخَالِبِي في طوْفٍ أسقطه إعصارٍ. ريح «الطرمنطان» قويّةٌ هذا المساء، والكحول، والمُهَدِّئَات، ومأساة البلد... هَذا الصمتُ الهائلُ في أعماقي. العَنَاصِرُ والبَشَرُ الهائجون من حولي. كلّ هذا. نعم.

أتخلّصُ من الرّائحة في السرير، أصفق الباب، أجتاز المنزل نحو الجناح المُقابِل، القسم القديم. دَرجٌ لولبيّ يقود إلى غرفة الضيوف. توقفتُ عند هذا السرير، الآخَر. لا. لا أستطيع أن أنام هنا البتّة. أعرضتُ عن المكان، وأنا أَنْزِل الخطواتِ بِسرعة، دون أن أتوَقَّف عند أسباب هذا الرفض. لم أكن أمتلك لا القوة ولا الرَّغبة.

نصفيّة[2] كبيرة فوق الصّالون أستخدمها كمكتب. فَهُنَا أَكْتُبُ. هنا بدأتُ الكتابة. الجزائر. بطبيعة الحال. الجزائر، بالنسبة لي، هي صحراء قبل كلّ شيء. كتبتُ عن البلد بعد سنوات من القطيعة. في مكان الكِتَابَة المُعَلّق.

سريرٌ إمبراطوريّ لِشَخصٍ واحد يحتلّ مكاناً بالقُرْب من أنبوب

---

(1) الطرمنطان: ريح شمالية تهب من وراء جبال الألب والبيرينيه.
(2) نصفية: طابق وسيط قليل الارتفاع بين طابقين.

المِدْفأة. أَتَكَوَّرُ فيه. الرأس فارغٌ، وأحسّ بالضَّجَر، وأُصْغِي إلى الطرمنطان. والرياح المزمجرة تُسَوِّطُ أشجَارَ السنديان الخضراء، وتَخْمِش أَشجارَ اللوز المُزهرة والنَّشَم العاري.

أفكر، دائماً، في ريح الرمل في الطرمنطان. وبشكل أخصّ في هذا الفصل، فَصْلِي أنا. هذا المساء من بداية شهر مارس من سنة 1994، الريح والتيه بين الأَسِرَّة، والعُزلة ربّما تقودني إلى الصحراء. فهناك، تمنح ريح الخماسين لفصل الربيع رائحة التراب. الحبّ بين الرجال والنساء لا يوجد إلاّ في الأغاني والحكايات والكتب. هناك، لم يكن لي سريرٌ إلاّ في وقت متأخِّر. هناك، حصلتُ على حقّ النوم، بل على حقّ السَّهَر وحيدةً بِالقُوَّة. الحقّ في الأرق المُثَبَّت بالكُتُب والمحمول عبر أماكنهم البعيدة. لقد كان الأَرَق والعزلة والقراءة حرّياتي الأولى في مختلف أشكال الرُّقَاد المُرتَجَل والمُهَدَّد والمترحِّل.



هُنَاكَ

إلى متى تعود ذكرياتي الأولى عن أَسِرَّةِ الطفولة؟ من ثلاث سنوات ونصف إلى أربع سنوات. نعم، ليس أكثر. فلَدَيَّ بعضُ المَعَالِم. لقد كان ذلك قبل سنّ المدرسة. قُبَيل اندلاع حَرب الاستقلال. في الوقت الذي كان فيه الظهور النادر للجنود الذين يُخاطِرون بالقدوم إلى مَعْقِلِنَا المنعزل في سَفْح الكثيب، يُعتَبَر نوعاً من الظُّهور الدَّخِيل. ولم يكن يتمّ إيقاظُنَا بعدُ، في الصباح، بواسطة طلقات التحذير من «البازوكا» أو من مدافع أخرى في حقول الرماية. لم نكن نَهُبُّ من نومنا بغْدُ للذهاب لمشاهدة المظلّيين وهُم يتحركون على الكثيب كَرِجْلِ جَرَادٍ. لم تكن لدينا كهرباء بعدُ. وكنا نكتفي بِمسرجات(*) غاز الأسيتيلين. مقلاة وكَانُونان نستخدمهما في آنٍ واحدٍ كَمَوْقِدٍ وكوسيلة للتدفئة. ولم يكن يصلنا ماء الشرب. أبي كان يشتغل حارِساً لِخزّان ماء يقع على مسافة مائة متر من منزلنا. بينما كانت أُمّي تشتغل عاملة بالمقطوعيّة في الأشغال المنزلية. حشدٌ مِنَ الدلاء والأوعية، ومن المُشاجَرات ومن الحبكات ومغازي

(*) نوع من القناديل.

الأسطورة، ومن الدَّوْس ومن الظهور المُكَسَّرَة. كُلّ هذا ينسِجُ النَّهَار بين الآبار وبين يَدَيْها المُنشَغِلَتَيْن دائماً.

كانت جدّتي وعمّي يناماي في المطبخ. بينما ينام أبَوَاي مع باقي الأبناء في الغرفة الوحيدة في البيت. حصيرةٌ من الحَلْفَاء، بطانيّة لكلّ واحد، ووَسَائد ملقاة فوقها ونحن نتمدَّدُ الواحد بجانب الآخَر. وفي فصل الشتاء، ننزلِق تحت البطّانيّة المشتَرَكة من الصّوف الذي يَزِنُ بؤسَ العالَم. خَشِنٌ جداً وسميكٌ جداً، كان هذا الغِطَاءُ يَعصرني، وكان يتَسبَّب لي بكوابيس من الاختناق. أستيقظُ مرات كثيرة في الليلة من شدة الاختناق. رائحة الصوف، روائِحُ عُفونَة الأحشاء الكامنة ليست بعيدة عن هذه الرائحة التي أحسّ بها. أجلسُ وأبحث عن الكانون بِعَيْنَيَّ دون أن أَعْثُرَ عليه. لم يعد يَحْمَرُّ قطّ. دمدمة، بالقرب منّي، تُنَبِّهُنِي. وضعية استلقائي أبعَدت الغطاء، هذا الشيء الخانِق، وكشفتْ عن أعناق وعن أكتافٍ.

فَهَلْ هنا يتجذّر الأرَقُ الذي سَيُعلِنُ سطوتَه بمجرد بُلُوغِ سنّ البلوغ؟ في هذا المكان الخانق، بِصَرامة التقاليد؟ في هذا النوم حيث تَتَرَصَّعُ مختلف الأجساد؟ وحشٌ مفترسٌ تُمَدِّدُ دَمدَمَاتُهُ وتجشّؤاتُهُ الليلية محظورات النهار وتَخْتَصِرُ كُلَّ واحدٍ إلى مُجرد عُضْوٍ وإلى مجرّد وظيفة؟

في هذه السنّ لا أطرَحُ كلّ هذه الأسئلة. أعرف فقط أنني أَختَنِق في الليل. أُحِسّ، فقط، بِوطأة الفراش، وشَرَك الأجساد. يَمُرُّ وقتٌ طويل قبل أن أُخرِجَهَا من أحشائي. وحين أنجح، أخيراً، في الجلوس، أُبْصِرُ رُقادَ الآخَرِين برعبٍ. أجسادٌ مُتلاحِمَةٌ بنفس

الغياب، الأجفان ملتصقة، تُصَوِّرُ تحالُفاً متكتماً، أَجِدُني مضروبة منه. هجران الأجساد، أحياناً، يُروّعني. فيستولي عليّ إغواء خلخلتها لإنذارها ولتقديم المساعدة لها. الخوف من الدمدمات ومن سوء استقبالها، يوقف من اندفاعي. أَمقُتُ النوم. أتمنى لو أنني لا أنام أبداً.

غير أنه، وبالرغم من مظاهر الظّلم الأولى، ومن بدايات الشقاء ومن أشكال التمرد والعصيان، فإنّ الطفولة تتكيف، لفترة طويلة، مع الاندهاش. وفي هذه الذكرى، أَزَاحَ عبيرُ الاستيقاظات الوضاءة والنادرة، أيضاً، مختلفَ أشكالِ الرُّعب ورائحة البَوْل الكريهة وانتفاخات غازية أخرى. رقّة مناغاة الإخوة والأَخَوات الصّغار. الضّبابة التي تتحرَّكُ مِن حَدَقَة إلى أُخرى. وعلى شاطئ الرقاد، جبهة مضغوطة مع أخرى، والسيقان المتداخلة، وسَبّابة هذا على وَجْنة ذاك، على أنفه أو تُزخْرِف لوحة محفوفة بالمَخاطِر هَذَيَان الكلمات، مُسارّات الأطفال تمتلك سِرّ وغبطة النقاشات المحبّبة.

أنهضُ من سريري، وأَهْجُرُ المضجع الجماعي، أهرب من همهماته، وبخطى حَذِرَة، أَلْتَحِقُ بِسَريرِ جدّتي في المطبخ. دخولي المختَلِس وَسَطَ استغراقها في النوم لم يَعُد يُرعِبُهَا قطّ. تفتح لي ذراعَيْها المعتادتين وتَتَنَاغى ببعض كلمات التشجيع. أحتمي بها، وأَضَعُ وجهي في عنقها. وبضحكاتٍ محركة للعواطف، فتهمس لي ببعض حكايات الرَّحَّالَة(*). فجدّتي يَحْضُرُها الكلامُ كثيراً في الليل.

(*) الرحّالة هم قبائل الصحراء الرحّل.

فربما تَنتابُهَا، هي الأخرى، انقباضات نفسيّة. وأنا، الآن، أعتقد هذا. منفية من حياتها المترَحِّلَة، في سنّ متأخرة، لم تعد تملك إلاّ الكلمات كي تَهرُبَ من ثبات الاستقرار وكي تَجِدَ رَحَلاتِهَا ووصولها. تبدأ كلماتُها بالرقص في سواد الليل، على إيقاع خُطاهَا اللامحدودة على مَسالِكِ سُهْب الحلفاء، التي كانت، في ماضيها. هي تحكي. أنا أرى. أرى امتدادَ الحلفاءِ الرّمادي الأزرق. أرى هيجَان شَعَرِهَا في النَّسيم. أسمعُ تَكَدُّرَهُ النباتي حين تتمزَّقُ الرّيحُ وتَضْأَى دون أن تعثُر على مكانٍ تتَوَقَّفُ فيه. أُحِسُّ نَفَسَهَا حيثُ تنتشر أسماء عطور كقصائد. أتخيَّلُ أياماً من المشي المنهك. شَبَح «جبل الحبّ» المنبطِح مثل ديناصور في سَعَة الفيافي. سُرعة الخيول الخاطِفَة. هَالَةٌ من الغبار الذي تَجُرُّهُ خلفَهَا. الجدة تمتلك سِجِلاً رائعاً عن الخيول، رمز الهِضَاب العليا. ولا أَرَاني إلاّ وقد أَخَذَتْنِي كوكبة فرسان مُجنَّحين، أخيراً، نحو النوم.

هُنَا

الغياب لا يكون رهيباً إلاّ في الليل. وَلاَ ينحَفِر صفاءُ الذِّهن إلاّ في الأرَق. في النهار يبتلعني الطبّ والكِتَابة بشكل كامل. في النهار أُعَالِجُ أجساداً أخرى أو أَعالج نفسي من خلال الكِتَابة عن الجزائر، وعن الغنغرينة الوُجدانيّة. لَا أَرَى الوقت يمرّ. ولكن الليل يعودُ بيأسِ بَلَدِي. اندفاعات حبّ شبحيّ. الصمت المُضني.

وأنا منكمشة في سريري الصغير الموجود في مكتبي، يأتيني الانطباعُ بأنّ أصابع قَدَمَيّ متجمِّدَة. أُحِسّ بخواء جَسَدي، وأن مُخّي مصنوع من زجاج مسحوق. الغير المُسَمَّى والدنِس يُهاجِمَانِنِي في هِجران الليل.

كي يتأتّى لِرَجل واحد أن يكون الحبَّ والعاشِقَ والصديقَ والأخَ والأبَ والأُمَّ والابنَ؟ قبيلة كاملة لوحده؟ لقد كان «جان-لويس» كلَّ هذا، خلال سبع عشرة سنة. أُحِسُّني يَتِيمَتَهُ، وهو الرجل المتعدِّد. أَعِدُ نفسي بألاّ أَذْهَب أبداً إلى مثل هذه التبعيّة. وألاّ أُخفي، أَبَداً، كلّ هذه النقائص عبر حُضورٍ أوحد.

أُفكّر، في الظلام، في قبيلتي التي وُلدت فيها. لم أهجُرْها عَنْ رفضٍ أو عن تذوّقٍ للمغامَرَة. لقد قطعتُ نفسي عنها كي لا أموت

اختناقاً. والآن، ها أنا أفترِقُ عن الرجل الذي أُحِبُّ لأنّه هو الذي يختنق مِنْ رؤية الجسد والعقل المُتَوَاطِئَيْن مع الكِتَابَة. هو يقول بأنَّ الكِتَابَةَ تحملني معها في حين تتركه، هو، في عين المكان. وقد أصبح بِسَبَبِهَا كئيباً وحادّاً، هو الذي كان؟ فَرَحِي. في زمن غابر، كافحتْ عائلتي ضدّ شَرَهي نحو الكُتُب، مُعتَبِرَةً إيّاها بواكير عيوب، وآفات أمراض كبرى. ومن هذه الجوانب الأكثر تنوعاً، وَجَدتُنِي، بشكل دائم، عُرْضَةً للوساوس والغيرة التي يُثيرُها الكِتَاب. هذا الكتاب الذي أهرب منه طول الوقت.

لم يَحْظَ وَالِدَايَ بحظ ارتياد أية مدرسة، ولئن كانت مدرسةً قرآنية. فَهُما مُسْلِمَان بهذا الإيمان الذي لم يحتكَّ بأي خيار آخر. صلابةٌ صَنَعَتْهَا قرونٌ من التقاليد الشفهية في خدمة إله واحد. ولكنَّ تواضُعَهُمَا تَحَوَّلَ إلى تشدُّد أمام كلّ خوف من الانشقاق. وخصوصاً إزاء الفتيات. وأمّا من ناحيتي، فقد كنتُ دائماً ضدّ التقاليد. أَلْتَحِمُ بِهَا حين ترتعش من المَشَاعِرِ وتغذّي العقل وتُثْرِي الذاكرة. وأُواجِهُهَا وأُطَلِّقُهَا حين تَتَجَمَّدُ في محظورات وتنتَصِبُ كَسِجْن.

الرفيق الذي اخترتُهُ لنفسي رجلٌ فرنسيٌّ، وإذا كان بعيداً كلَّ البعد عن نُزوع للهيمنة الذكورية، فلأنه كان دائماً ما يتّقي، هذا النزوع، كما لو أنه شكلٌ من أشكال العاهة. كان، فقط، يُحِسّ بالذعر حين يراني وأنا أُوغِلُ بعيداً في الكتابة. كان يخشى أن يفقدني، ولكنه كان بِصَدد فقداني. وطَالَمَا تمنّيتُ ألاّ يتخلى عني. ومع مرور الزمن، انتهت قبلاته لي، وأنا بين اليقظة والمنام، بإقناعي بِحُبِّنَا الأبديّ. لدى مُلامَسَاتِ شفتَيْهِ الخفيفة لجسمي، في الليل، كانت ذِرَاعَاهُ وجسده قارّتي. ولكن مأساة الجزائر فتحت، من

جديد، جراحات في داخلي. ندوب قديمة أحسَّ أمامها بأنه عاجِز وبأنه مستثنى منها. وأنا الملتوية من جراء كلّ هذا، أقول لنفسي: «العزلة تلاحقني!» ما الذي يتوجَّب فعله حين يذوب كلُّ شيء وينوس سوى الذهاب حتى النهاية؟ ومع الكبرياء المُعانِدة التي جعلتني أعتقد أنني قادرة، على الأقلّ، على التحكّم في كلّ ما يتعلّق بِقَراري. أعرفُ دائماً ثمنَ الحرية. وأعرِفُ ما أَدِينُ به للكُتُب. وأعرف أيضاً جسَامَةَ ما يستعصي عليَّ.

لم تنتظر الأشياء إلى اليوم لِتَتَحرَّكَ. ففي سنة 1994، وهذا يعود إلى تسع سنوات خلت، فرضتِ الكتابةُ نفسَهَا عليَّ. وقد كان لمهنة الطبّ المتخصص أن تدفعَ الثمن الأوليّ. تسع سنوات من المهنة، التي أقدّسها، وَجَدَتْ نفسَهَا تنزل إلى المقام الثاني. وعدم فهم «جون-لويس» بدأ من هذه اللحظة. في بداية الكتابة وتساؤلاتِهَا. بالرغم من أنّه كان فخوراً بعنادي وإصراري.

«الرجال لا يتحملون امرأةً تُمارِسُ الكتابة. إنّ الأمرَ قاسٍ بالنسبة للرَّجُل. والأمر صعبٌ للجميع.» هذا ما قالته «مارغريت ديراس» في «الكِتَابة». «ديراس» الجازمة.

كلُّ هذه القطائع، كلّ عمليات البَتْر هذه، كانت، في البداية، من أجل اقتلاع حقّ اتخاذ قراري الشخصيّ، ومن ثَمَّ المحافظة عليه. في كلّ لحظة. انتهى الأمرُ بهذا التكرار إلى انتزاع جزءٍ من الثمالة من عبور مختلف أشكال الضيق والشقاء. وهذا التكرار غمر الرَّفْضَ باللذّة. غير أني لم أَعُد، قطّ، أطِيقُ المزاوجة بين الرفض والهجران والتنفس، وبين التخلّي. لم أعد أريد هذه المُزَاوَجَة. لقد هجرتُ عائلتي والصحراءَ وغراميّاتي الجزائريّةَ والبَلَدَ. . . وهذه أول

مرة، أظلُّ فيها في مكانٍ قطيعةٍ مَا. ولكنّها منزلي أنا. وقد أضعتُ كثيراً من الوقت كي أَجِد هذا الموقعَ. لقد كان حبّي لَهُ صاعِقاً، من أول نظرة، حبّي لأشجاره ولحيطانِهِ الحجريّة، ولموقعه كَعُشِّ نَسْر على حافة مُنْحَدَر صخريّ. لقد رسَمَهُ المهندسُ المعماريُّ على ضوء توجيهاتي وإرشاداتي. وقد اضطُرَّ عدة مرات أن يُراجِع نسختَهُ إلى أن تلاءَمَت، بشكل كامل، مع ما أَنتَظِرُهُ. بل وصل الأمر بِيَ حدّ أنني خطَّطْتُ السّطيحات ونقشتُ الحديقَة... كثيراً ما يُقالُ لي بأنني صنَعتُه على صورتي، أي عربياً ومتوسّطيّاً. وبمجرّد أن قطنتُ فيه بدأتُ الكتابَةَ. كما لو أنّ الكِتَابَةَ انتظَرَتْ أن يتحقَّقَ هذا المكانُ كي تأتي، أخيراً. ولكنَّ بلبلةً أخرى، والحقّ يُقَالُ تَسَلَّطَتْ عليَّ... ولكني، ومنذ هذه اللحظة، لم أَعُدْ في حاجة إلى الفرار. منذ هذه اللحظة، انبثَقَت الكِتابةُ، الانطلاقُ الأكبرُ، وفيها أُحاوِل أن أذهَب إلى أقصى حدّ. والآن علَيَّ أن أُسَائِلَ صمتَ الماضي كي أسكن بشكل جيّد، مَعْقِلَ عزلتي.

لا يَتَضَمَّن عنواني أيَّ شارع. طريق قصير يُحاذي حافة صخرية. طريقُ المجالات الممتدّة. أقول: «صحرائي الممتدّة»، وأَمْشِي تيهاً، في داخلي: «لا مكانَ للصدفة، وليس عليك أن تخترعيها! المَصَائِبُ التي تتسلّط على المسالك، هذه الأشياء أنتِ تعرفِينَهَا»

هل هذه عادةٌ منّي كمُغْتَرِبَةٍ وكَمريضَةٍ بالأَرَق، أنْ أحكي قصصاً وحكايات؟ وهل هذا خوفٌ من أنْ أَضِيعَ؟ هل من أجل تَنْويم تهديداتِ المجهول؟ وهل هي طريقةٌ في التواجد على الرغم من كلّ شيء؟ هل أنا، وكما هو حال جدّتي، في حاجةٍ إلى كلماتِ مُغَادَرَةٍ

وَوُصولٍ من أجل العثور على الراحة. صوتُ الصحراء الذي يأتي، أحياناً رتيباً، وأحياناً أخرى، مُهَلْوَساً. وكما هو حالُ الصّحراء، فأنا لا أملِكُ سوى كلمات، وسوى ذاكِرَتها المُرصَّعة من أجل تخطّي الهاوية.

قُمنَا، بأنفسنا، بأشياءَ كثيرةٍ في هذا المنزل. وكل الأمكنة التي تَطَلَّبَتْ مِنا ساعات من الشُّغْل المُشْتَرَك تُزعِجُني، الآنَ. النصفية، مكان الكِتَابة، يَظَلّ ملاذاً. كما لو أنّ السنوات التي قضيتُهَا في الكِتَابَة في هذا المنزل ثبّتت العزلةَ، بقوةٍ، مُبْعِدَةً، شيئاً فشيئاً، كلَّ عائق أمامَ هذا المخطّط. الوقتُ المحصورُ للكِتابة يمنح بُرجَ القلعة الرئيسيّ، الذي تُمثّله النصفيةُ، سببَ جَدواهُ الأوحدَ.

تَكسير السّرير! يتوجَّبُ تكسيرِ هذا السرير الذي صَنَعَهُ بِيَدَيهِ. تكسيرُ هذا السّرير بِيَدَيَّ. تفكيكُ صفائِحِ هذا الطَّوْف المهجور، واحدة تلو الأخرى، في غرفةٍ فارغةٍ. لقد عرَفْتُ بشكلٍ دائم التكسيرَ وإحداثَ القطائع. الثِقَلُ المُسْتَأْصَلُ من الصَّدْر الذي يَحْفِرُ فراغاً عميقاً جِدّاً. وَلكِنَّ القطيعةَ تَتَبَاهَى بِسِحْرِهَا الذي لا يَخْطُر بالبال. إنهـا تُلبِسُ الألَـمَ واليأسَ لُبوسَ الخلاص وتُلهِبُهُمَا بالرغبة. إنها تتجَاوَزُ الخوفَ، كُلَّ أنواع الخوف، وتذهبُ بي، دائماً، بعيداً. في هذا المكان حيثُ لا شيءَ يَضمُد بعد المواجهات والتمَزُّقَات ماعدا بعض الذكريات المُقْتَلَعَة.

لقد عرفتُ دائماً كيف أَتَبَاهَى من أجل صدِّ التَّفجع.

سأَتَجَمَّدُ بعد قليل، في النوم. جلدي بدأ يَحتَرِقُ تحت فراش الرِّيش. أُخرِجُ سَاقَيَّ، ذِرَاعَيَّ، وأحاول التخلُّصَ من الأرق. وفي

الخارج، تدمدم ريحُ الطرمنطان دون أن تَفْقِدَ مِنْ نَفَسِهَا. كَمْ من الوقت سَتُزَمْجِرُ؟ الناسُ يعطونها فترة ما، وتمديدات ثلاثيّة: ثلاثة أيام، ستة، تسعة... متتابعة. ولكنّ ريح الطرمنطان تسخر من هذه الأقاويل، وتسخَرُ، أحياناً، حتى من التنبؤات. إنها تستسلم لانقباضها إلى أن تُبْصِقَ رُوحَهُ بِصُراخات مجنونة. إنها تَبْرِي زرقة السماء، وتقشر الأرض المحصبة، وتَحْقِنُ العيون، وتزيد من توتّر الأعصاب إلى درجة وضع المخ في حالة يُرثَى لها.

أعشق الريح، كلَّ الرياح، وخصوصاً في الليل. ريح الرمل في الصحراء، والطرمنطان هنا. كلّ حُبَيْبَات البحر. أُحِبُّهَا عنيفة وشَرِسَة. حين تتهاوى كَخَبْطٍ على خرخرات العالَم. هذا المساء، وخلف الطرمنطان، يبدو لي أنني أسمع نَزِيبَ[3] ريح الرمل وهي تحثّني:

«كَسِّرِي، هذا السرير الرديء، كلّ الروابط، كلّ الحدود التي تضع فِخاخاً. كلّ عبادات الحبّ. كلّ هذا البريق والبهرج. وحتّى خُزْدَوَات التذكار!»

الساعة تشير إلى الثالثة والنصف صباحاً. أُلْقِي بغطائي المصنوع من الرّيش، بحركة سريعة، وأقفزُ من السرير، وأذهبُ للبحث عن كوب ماء. أُحِسُّ ببعض حبات الرمل تحت جفنَيَّ ويِبَاس حنجرتي.

(3) صوت الأيّل.

هناك

ليس العطش سوى لحظة الصحو من القلق الطويل الذي ينتهي به الأمرُ إلى إخراجي من تحت غطائي في أيّة ساعة من الليل. في البداية اختناق رهيب. ثِقل ساحِق. زمن متوقف. أتخبّط كي أستيقظ بإحساس يقول لي إنني لن أنجح أبداً. وشيئاً فشيئاً ينبثق إحساس آخَر: أَجِدُنِي في العمق، تحت كلّ الأجساد. كما لو أنّ السريرَ العائليّ انحفر كَمَقبرة جماعية. حَرارَة الصّوف الخانقة المبلَّلَة بالبول. حالة غيبوبة. ما أزالُ أُصَارِعُ. النارُ في حنجرتي، لفّات الدمّ في الرأس، أَصِلُ، أخيراً، إلى مسطح الوعي. أُحَمْلِقُ. كيف سأستطيع أن أخلع أعضائي وصدري من أعضاء وصدور الآخَرين؟ وأَنتَهي، عبر زَحْف مدروس، وقَلِق، إلى أن أقتلع نفسي من الجُلّ المُزَرْكَش الذي تمّ نسجه في المنزل. بسرعة، أقف على رِجليّ، وبرودة الغرفة تعطيني إحساساً بالارتياح. أحتاج إلى أن أشرب.

أُلقِي نَظرة نحو أُمّي الممدَّدة على مبعدة بعض أجساد. تخترقني فكرة عبور هذه الأجساد للالتجاء إلى سكينة صدرها، وإلى تقوية النفس بالاحتكاك بنَهديْها. أعرف أنّ هذه الفكرة السخيفة جَعَلَهَا الأرَقُ، ربما، سهلةَ المَنَال. ولكنّ اليقين سرعان ما يتوقف حينما

أعرف أنّ أُمّي ستضَع لي حدّاً. فأخي الأصغرُ هو الذي يَنام إلى جنْبِهَا. خلال النهار، أخي الأصغر هو الذي يمتلك امتيازَ احتلال حِجْرهَا. خلال اللحظات النادرة حين لا تكون مشغولةً بتأدية الأعباء المنزلية.

بعد أن تجاوزتُ توجّسي من سواد الليل، اتجهتُ بِخُطًى حَذِرَة نحو جرّة الماء واغترفتُ منها قليلاً. «هل هي أنتِ؟» سؤال جدّتي منحني جناحَيْن. أطير نَحوَهَا. إنّه من النادر أن تكون مستغرقةً في النوم، أو أن تستيقظ عند تيَهَاني الصامت في الليل. في هذه المساءات أُحِسُّ بافتقادِهَا بشكلٍ رهيب. وَوَحْدَهُ المَنْفَذُ المريب إلى نومها، الذي أعرِف هشاشتَه، يمنعني من الالتجاء إلى فِرَاشِهَا. فأُقِرّ إذاً، وروحي معذبّةٌ، أن أتسمَّعَ إلى صمت المنزل، وأن أُدَجِّنَ الظلامَ. في إحدى طوافاتي الليلية، قلبتُ الجرّة الكبيرة. فكسَّرتْ هذه الحركة المنحوسة احتيَاطَنَا الرئيسي من الماء. الخطى المتسرّعة. صرخات. صلوات وعِظات لاتقاء المخاطر التي ترصد الهفوات الطائشة في الظلام. وبحركة من أُمّي وضعتني، من جديد، بين الآخَرين، تحت سُمك الفراش: ومن الآن فصاعداً تقرر حَظْر استيقاظي في الليل. وإلاّ تعرّضت لعقوبات قاسية.

أمي تنظر بقلق إلى الفتنة التي تمارسها عليَّ جدّتي. إنها لا تحبّ أن ترى حماية جدتي وهي تخلّصني من الأوامر، وتحميني من غضبها. إنها تخشى أن يُفسِدَ حنوُّها من طبعي الذي بدت عليه آثارُ التعنّت والجموح. كانت تتمنى لو أنّها وجدتْ في حَمَاتِهَا حليفةً لتهذيبي ولتنقيح خشونتي وفظاظة طبعي. بَدَا لأمّي كما لو أنّ المرأة العجوز تَدُسّ عليها كي تحرِمَهَا من سلطتها الوحيدة: وهي أن

تصنعني وفق ما تنتظرُهُ مني. بدا لي أنها لا ترى في ضَحِكِنَا إلاّ قُوَّتَيْن متحالفتين لدفعها للمعاناة كما يُضنيها عِبءُ الكدّ والتنكيدات.

إنّ حبّ الأمهات يُقاسُ بقدرتهِنَّ على تصفيح بنَاتِهِنَّ ضدّ مشاكل الحياة. وبدون أن أُغَيِّرَ شيئاً. وبدون أن أتبرّم. سأعرفُ هذا، ولكن في وقت متأخر جداً. في هذه اللحظة، وَحدَهُ كان يُحاصِرُني حِرمانٌ رهيبٌ، وارتباك من شعورٍ ناشئ من الظُّلْمِ. ولكنّ هذه الانطباعات لا تكفي لتفسير أشكال الرعب الليليّ وحاجتي إلى العزلة وإلى الأَرَق. هذه الأشياء تَتَرَسَّخُ في شيء مطمور ومخفيّ بشكل كبير. أُحِسّ بنفس القلق أثناء كتابتها.

لم يكن عمري قد بلغَ سنّ الرابعة بعدُ. صوتٌ غيرُ مألوف أيقظني من نومي. جلستُ، مذعورة، من حشرجات مخنوقة. وعلى الرغم من الظلام، فإني لم أتأخّر في تمييز وضعية أَبِي المثيرة وهو فَوْق أُمّي. اعتقدتُ أنه منهمكٌ في ضَرْبِهَا، فانفجرتُ، باكيةً وأنا أصيحُ: «ما الذي تفعله مع أمي؟ لماذا تضربها؟!» رأيتُ وسمعتُ جِسم أبي وهو يتدحرج ويدور على الجانب. فتوقفتْ الأنَّاتُ فوراً: «اخرسي ونامي أَيَّتُهَا الأفعى!»

ومن مساء اليوم التالي، تمّ وضع فراش لي في المطبخ بمحاذاة فراش جدتي: «من الآن فصاعداً، ستنامين هنا، ولن تستيقظي أبداً في الليل. فالجنودُ المظلّيون موجودون في كلّ مكان في سواد الليل. يقومون بالسرقة وباغتصاب الفتيات اللواتي لا نعثُرُ عليهنّ أبداً. فَهَل رأيتِ كيف تقوم مَدَافِعُهم (الهاون) بِخَرق الكثبان الرملية؟ وهل رأيتِ كيف يقومون بممارسة العنف حتى على الرجال؟»

رأيتُ. رأيتُ الخوفَ، الإهانات المُوَجَّهَة للرجال. الدموع وغضب النساء. لا أحد يُنكِر هذا. ولكِنَّ فرَحِي، في هذا المساء، لَمْ يَدَع أيّ تأثير ولا سيطرة للخوف. كنتُ مُتكزِّزَةً، فركّزت نظري على جدّتي، وتَفاجأتُ ببريق عينيها. مَنْ يستطيع أن يعرف من كانت الأكثر سعادة من بين المُتَآمِرَتَيْن.



هنا

وحدَها قُوَّةُ العادة هي التي تقودنِي إلى البيت حين أنزع قميص الطبيب. جسدي والعالم لم يَعُدْ لهما معنى. هزّاتٌ عديدة حوَّلَتْهُمَا إلى فَضَلات. أحياناً من شدّة السخرية أقول في نفسي إنّ سيارتي تُشبه الحميرَ، هناكَ. يكفي أن تركَبَ وتصيحَ آمِراً: إرّا ررر! كي تتحرّك، وفي غياب أوامر أخرى، تنقَلِبُ، بشكل مستقيم، باتجاه مَذَاوِدِهَا.

أنا، لم أعد آكُل شيئاً.

حِينما أَصِلُ إلى بيتي، أول حركة أقوم بها تتمثل في انتشال الهاتف. فقطع الاتصال، ونشرُ الصمت، هي طريقتي في الرحيل، هذه المرة. في ترك الطبيعة حيَّةً. لأني أعرف أنها قطيعةٌ نهائيةٌ. «جان-لويس» لا يُريد أن يرى الأمرَ هكذا. ما زالَ يرفُضُ تصديق الأمر. أثناء نقاشنا الأخير قُبَيل افتراقنا، هنا في البيت، اعتَرَف: «لقد سِرتُ في السيارة وأنا أبكي على الهِضَاب بينما كنتِ أنتِ تُوَقِّعِين كُتُبَكِ. لم تكن عندي سوى رغبة واحدة: الانطلاق بسرعة والاصطدام بشجرة دُلْب. ولكني لم أمتَلِكْ هذه الشجاعة.» مرة أخرى قال بِهَمس: «بمجرد أن بدأتِ الكتابة، انتابني إحساس بأنّك

صعدتِ إلى قاطرةٍ تاركةً إيايَ على الرصيف. . .» كان كتابي الثالث «الممنوعة» قد حصل للتوّ على استقبال مشجّع في فرنسا. في الوقت نفسه، كان «جان-لويس» يجتاز مرحلة حَرِجَة على الصعيد المهني. وكي يُؤتي عَمَلي أُكُلَهُ، ولأني قررت أن أَحْفِرَ في الأجزاء المخفية من ماضيَّ، فقد أَجَّلْتُ، دونما انقطاع، رحلة حول العالَم في القارب التي كان يصبو إليها بشكل كبير. . . ولكني كنتُ على يقين من أنه سيتجاوَزُ هذه المرحلة الصعبة. كنتُ أعتمد على ذكائه وعلى حبّه. كنتُ في حاجة إلى الكتابة. وكنتُ في حاجة إليه. وعلى الرغم من كلّ مجهوداتي، لم أستَطِعْ أنْ أفعلَ شيئاً إزاءَ خشونته حيث يمتَزِجُ شُعورٌ بالهجران وبالغيرة. انتهى بِيَ الأمر باتخاذ القرار الذي يتوجب عليَّ اتخاذه: «سوف أُجري اتصالات بوكالات الإيجار، غداً. سأُحَاوِلُ العثور على مكان أسكُنُ فيه.» فقال معترضاً إنّ هذا البيتَ هو بيتي أيضاً. وإذا كان مفروضا على واحد منا أن يهجر البيت، فهو الذي عليه أن يغادر. قال هذا، دون أن يكون مُقْتَنِعاً بما يقول، حقيقةً. «إذاً من فضلكِ، نَفِّذْ قرارَكَ فوراً! الآن! أريد أن تُغادِرَ! حالاً!»

أُؤَجِّجُ النارَ في المدفأة، وأُهَيِّئُ لنفسي كأساً مُتْرَعَةً من الويسكي، وأنا أقرأ، وبَطْني متوتِّر، تكدُّسَ المقالات الصحفيّة عن الخراب والدمارات الشديدة في الجزائر، مُنتظِرَةً نشرة الأخبار المُتَلْفَزَة. المَجَازِر التي تحدث في البلد تزيد من معاناتي الأخرى. فكلّ يومٍ ينكأ عدد من القتلى، جِراحاً أخرى.

قبلَ أن أذهبَ إلى سريري، أجتهد لكي أشربَ كأس كبيرة من

الحليب، وأبتلع بعض الفواكه. ثم أَلْتَجِئ إلى سرير النصفية، أَكْتبُ. أُسَوِّدُ صفحات، كتابة غاضبة. كنتُ سأموتُ لو لم أَلْتَجِئ إلى الكِتابة. بدون هذه الرَّشقات من الكلمات، فإنّ عنفَ البلد، واليأس الذي سبّبهُ الافتراقُ، كان سيُفجّرني ويسْحَقُنِي. إنّ الأُصوليين يُهدِّدون بأن يقتُلوا بحدّ السيّف من يَرْتَكِبُ الإثم بالقَلَم. وأنا واحدةٌ مِن الذين حين يكونون مُسَمَّرين على صفحة أو على شاشة كمبيوتر، يَرُدّون عبر طعنٍ لاذِعٍ على خراب الحياة، على جنون السكاكين وعلى رَقَصَات الكلاشينكوفات.

أكتب حتى ساعة متأخرة، حتى الإنهاك. أكتبُ رِوايةً-روايتي الرابعة- هجائيّةً حول الجزائر. أكتب طول الوقت. وحتى بين استشارتين طبّيتَيْن. بطبيعة الحال، أتوفر، دائماً، على دفاتر بالقرب من السّرير كي أُسَجِّل الكلمات التي تنبثق، بشكل مُفاجِئ، في الأَرَق، بعد ساعات أقضيها في التملّص وفي المقاومة. في السابق، كانت هذه الدفاتر مُهيَّأة لِتَثبيت لقاءات واكتشافات، وللأفكار العابرة. وأحياناً لتأملات ما زالتْ متلعثمة. الأحاسيس التي تمدّ وتسكن لحظات اليقظة. في الماضي كان النهارُ يكفيني لأن أكتب. والآن، استولت حُمَّى الكتابة على سريري، وعلى لياليَّ أيضاً. كلمات التمرّد، والارتباك تطاردني حتى شراشفي. استولتْ على مواقِعِ أَرَقِي الأخيرة. والحُبُّ ليس موجوداً، هنا، لإيقافها.

هناك

مليئة بالفحم الحجري، الرأسُ متوهِّج، المِقْلاَةَ تُخَرْخِر وتتباهى مثل ديك روميّ في زاوية المطبخ. لعبة النيران المنبعثة من السراجين تُنَظِّمُ الاستعراضَ الغريبَ للظِّلال على الحيطان. وأنا مُمَدَّدَةٌ في حرارة البيت، أنا سجينةُ حَرَكات أُمّي وجدّتي. قَضَتا ما بعدَ الظهيرة في تنظيم مِهْنة النَّسج في المطبخ، وفي تثبيت لُحْمَة السجّاد. الجَدَّة، وبِبَاعِثٍ من الشَّرَف والنخوة علَّمتْ ابنة أخيها وزوجة ابنها، فَنَّ الصوف، المُضْجِر، بالتأكيد، ولكن الشريف. تُنَفِّذُ أُمّي أوامر جدّتي عن طِيبِ خاطرٍ. بل وأحياناً بمتعة حقيقيّة. أسابيعُ عديدةٌ تمضي في الغسيل وفي كَشْط ونَدْف ونسج وتخضيب وصبغ جُزازات الخِرفان. والآن شِلاّت صوف تَتَراكَمُ وتتكدَّسُ، خضراءَ وحمراءَ وبيضاءَ ونيليّة وصهباء، جاهِزةً لما هو شاقّ، وهو تحويل الشُّغْل إلى عمل مُكْتمِل.

أواني مائدة العشاء مُنَظَّفَةٌ ومصفوفة، وفِراش كُلّ وَاحِدٍ مبسوطٌ ومنصوبٌ، وأمي منهمكةٌ في مهنة النسج. جالسةٌ في بدلتها النسائيّة، وظَهرُها مُتَقَوِّسٌ بِشكلٍ خفيف. وهي تُحَاوِل جاهدةً إدخال حبال قصيرة ملونة في لُحْمَة النَّسيج. تقوم بتثبيتها بِعُقَدٍ قبل أن تقوم بِقَطع

الخيوط، وتوازن طولها. وتحت عَيْن المرأة العجوز اليَقِظَة، تقوم بِتَكْتيل المجموع بحركات متقطعة وغير منتظمة من الضَّربات باستخدام مُشْطَة كبيرة من الحديد المصبوب وتبدأُ، من جديد، سردةَ نسيجٍ في الأعلى. مِغْزَل، تُحَرِّكُه سرعةٌ مُدَوِّخَةٌ، يصعد ويَهْبِطُ على طولِ سَاقِ جدّتي وهو يثير دَوَّارَة.

لا تتحدث السيدتان فيما بينهما إلاّ نادراً. والقليل من الكلمات التي يتبَادَلانها يبدو أنها تَظَلُّ حبيسة في خرخرات المقلاة. لَقد هدَّأَ الشغلُ من عدم تفاهُمِهِمَا الاعتياديّ. بينما ينام الإخوةُ والأخواتُ في الغرفة المجاورة، أمّا أبي وعمّي فيكملان السَّهرة. وربما هما منهمكان في لعب الوَرَق.

أتذوّقُ سعادةَ سريري الجديد. الغطاء الذي أتقاسمه مع جدّتي يبدو خفيفاً وَوَثِيراً. لي البطانيّة البالية نفسها الموضوعة على حصيرة من الحلفاء. وبانزلاق من رأسي، أقوم بحكٍّ وجنتي بوجنة جَدّتي. هي من السُّندُس. تنبعثُ منها رائحةُ المسك. فهل توجد هذه الرائحة فقط في مِنْخَارَيَّ؟ أعرف أنّ جدتي تحمل قارورةً صغيرة من مادّة ثمينة معلقة بِبِدلتها بِمِشْبك. أتلذّذُ كثيراً بتخلّصي من استنشاق نتانة القطن الممزوج بِبَوْل إخواني وأَخَواتي الصغار. أتمتّعُ كثيراً بقدرتي على تحريك أعضاء جسمي دون أن أتسبب في همهمات، أتمتّع بامتلاكي لِجَسَدي. أَشْرَعُ في التمطّط في مُنْحَرَف سريرَيْن ممنوحين وأعود إلى مَشْهَد الغرفة .

يستأثر بمشاهدتي من جديد «باليه» حركات المرأتين، والهرمونيا الخافتة للأصوات والتمثيل الإيمائيّ للظلال على الجدران والجوّ المُخْمَرّ. تسكت جدتي. تمنحُ نفسَها، بشكل كامل، لحركات

الرقص التمثيلي الذي يُشَكِّلُها النَّوْل. تمنحنا مشهداً من حياتها الماضيةِ. يمتلكني هذا الإحساس. أنا مدعوَّةٌ إلى مُشَاهَدَة تمثيلية. أمتلئُ برؤية هذه القيثارة المُدْهِشَة التي يشكلها النَّوْل . موسيقاها الخافضة. الديكور السَّبيدَجِيّ، المائل إلى السواد، الذي تُساهم في تشكيله مِدفأةٌ ساخرةٌ وعفريتان منبثقان من بَطْنَيِ السّراجين. أُمَتِّعُ عينَيَّ بالمشهد قبل أن يختفي كلّ شيء، إلى الأبد، حين سيتمّ النَّفخُ على النيران.

الغرفةُ، من الآن فصاعداً، في نصف ظلام: المدفأةُ خفَّفَتْ من غَطْغَطَتِها. أُمِيِّزُ بصعوبة بين الإطار والنَّوْل. جدّتي المتمددّة إلى جانبي، لا تقوى على النوم هي الأخرى. أُصِيخُ بسمعي دون أن أستطيع أن أتبيَّنَ أصواتَ أحذية الجند. يتسلّى العَسْكَرُ في إزعاجنا من خِلال طُرُق عديدة. أحياناً في جماعات صغيرة من المشاة تحت إمرة عريفٍ تُقَطِّع الليلَ وتَدُكُّ الأرض. وأحياناً أخرى ينبثقون كشياطين دون أن نَرى شيئاً. خزّان الماء الذي يوجد بالقرب من منزلنا هو مكانٌ استراتيجيٌّ في الصّحراء. وكان المُقاوِمون يستخدمونه لتموين حاجياتهم. فكان الجيش الفرنسيُّ يصبو لمفاجأتهم في هذا الموقع. وبما أنه لم يكن يستطيع الإيقاع بهم، فقد كان يتَّهم أبي ويُسيءُ معامَلَتَهُ.

ولكنّ جدتي في هذا المساء لم تكن قَلِقَةً. فقد كانت مغامرةُ النَّهَارِ لَمَّا تسكنها. وقد اكتشفتُ هذا، لَمّا بدأت، وبصوت خافت، تحكي لي حكايات جنّيّات عن السجّاد. فكَانت إحدى هذه الحكايات تسحرني:

– حَاجِيتَك مَاجِيتَك، كان في قديم الزّمان رَجُلٌ يتمتع بقدرة كبيرة على تقييم وتقدير السجّاد إلى درجة أنه كان يقطع السهوب والصحارى، متنقلاً من سوق إلى آخَر لتمتيع نظره. وذات يوم، سَيَكْتَشِفُ واحدة منها ذات بهاء لا يُضَاهَى. فَبَاعَ نصفَ قطيعِهِ كي يشتري هذا السجاد. ومن ذلك اليوم، لم يستَطِعْ أحدٌ من النّاس أن يجعله يشيح بعينَيْهِ من تأمُّلِ سجّادِهِ. وبعد استنفاد جميع الوسائل تمّت استشارةُ وليّ وسَاحِر كي يحاول فَكَّ سِحْرِهِ. ولكن شيئاً لم ينجح. وبعد أيّام من السكوت ومنِ الصوم قرّر الرَّجُل، أخيراً، أن يتحَدَّثَ لِيُعلنَ أنه سيموت على هذا الفِراش إذا لم يُعْثَرْ لهُ على المرأة التي صَنَعَتْ هذا السجّاد الرائِعَ. فرأى الناس أنّ المسألة سهلةٌ جداً. فكل التُجّار يعرفون هذه المرأة البارعة وكانوا يتصارعون للحصول على صناعتها. هناك من يقول إنها متزوّجَةٌ مع شخصٍ شَرِسٍ. فكان الرجل يَهْمِسُ إن المرأة الشقيّة وضعتْ كراهيتها ونَوْلَهَا وعَبقريتها بينها وبين هذا الرجل الفظّ. وكان ثمّةَ من يدّعي أنّ زوجها الفظّ، وتحت إغراء طعْم الأرباح، التي كانت تتضاعَفُ شيئاً فشيئاً، انتهى به الأمر لأنْ يَدَعَهَا تتفرّغ لِفَنِّهَا واتَّخَذ لنفسه زوجة ثانية... ويُحكى أنّ مجنونَ هذه المرأة الجميلة، وبعد أن أضاءت قلبه كلّ هذه الاعترافات والرؤى، أصبح شخصاً لا يُقْهَر في فنّ مغافلة الحراس وفي إحباط المراقبة كي يكون بِجنب المرأة. ويقال إنّهما معا، ومنذ هذه اللحظة، يعكفان، طول الليل، على عَرْبساتٍ وزخرفات غريبة، وُقوفاً، خلف لُحْمة نَوْل الحياكة. ويقال إنه لهذا السبب تمّ إطلاق تسمية «السرير الواقف» على نَوْل حِياكة المرأةِ الجميلةِ. ويقال أيضا بأنه من أجل الحفاظ على سرّ العاشقين، حَرَصَ التجار، ولفترة

طويلة، على القول إن هذه التسمية مستوحاة من قدرة هذه السجاجيد على تجميد عيون الناس الواقفين في الأسواق بالقرب منها.

ولم يتمّ الكشف عن هذه الحيلة إلاّ بعد وفاة العشيقين السرّيَّيْن.

كانت هذه أوّلَ قصّة حبّ تحكى على مسامعي. لا أعرف ما الذي تعنيه هذه الكلمة، الحبّ. ولكنّ حمولَتَها من الألغاز والمحرّمات تفعل فِعْلَها. في نور المطبخ الخفيف، أستطيع أن ألمح إطَار نَوْل الحياكة. إنه سريرٌ عموديٌّ، من دون شَكّ. في الفترة التي يَظَلُّ فيها منتصباً، فسأستَيْقِظُ مرات عديدة للذهاب مُنْدَسَّةً خلف اللُّحمة على أَمَلِ أن أُفَاجِئَ فيها الرقصة الغامضة للعاشِقَيْن الراحِلَيْن.

كثيراً ما أسمعُ إجماعاً على مديح طبخ والِدَتي. ولكن لا أحد يجرُؤُ على الادعاء بأنّ السجّاد المكتملَ جميلٌ. ويتمّ الاكتفاءُ بعبارة: «محاولة أولى». هزّة من الرأس تتركُ الكَلمةَ مُعلّقةً. جدتي تُجهِد نفسها في التشجيعات، متبنّيةً تسامُحَ الأسلاف. بينما أُمّي، وهي محمولة على نوبات جسارة، تُواصِل شغلها وهي تنسج مخدّتين. كانت هاتان المخدّتان الموجّهتان لتزيين هذا السجاد المعلوم، رديئتين بحيث إنه لا أحد تجرّأ على إصدار تعليقٍ مَا. حينها تذرّعتْ أُمّي بِصعوبة هذا الشغل بالإضافة إلى عبء العمل اليوميّ كي تعلن عن انسحابها من المباراة وتُطالِبَ بآلةِ خياطة.

غادرتْ جدّتي المطبخ كي لا تَشْهَد، بنفسها، تفكيك المهنة. روافِدُها انتهى بها المَطَافُ إلى أن تصبح إطارات الألواح الزجاجية في النوافذ، وفتائل لِتَنَاسُلاتٍ من اللهيب.

وبهذه الطريقة أقامَت جدّتي حِدَادَهَا على عدم قدرتها على النقل والإيصال، وعلى إنقاذ فنّ الماضي، الاشتغال بالصُّوف. فاضطَرَّتْ إلى قبول هذ المسألة البدهية: وَحْدَهَا الكَلِمَاتُ، الكلمات المأثورة، تبقى قادرة على الحديث عن ميراثها الوحيد، وذاكرتها المترَحِّلَة. أمّا أُمّي فقد عادت إلى أشغالها البيتيّة. هي عبوديّة بحيث لا يستطيع أيُّ عَشيقٍ آخَر أن يَعْلَق بها. ولهذا السبب، فإن والدي اضطُرَّ إلى الاكتفاءِ بِزَوجةٍ واحدة.



هنا

أأطفو بِبُطْء خارجة من حُلْمِي، وأتَسَاءَلُ مع نفسي عَبر أيّة مُعجِزَة استطاع هذا الجزءُ من الطفولة أن ينبثق من جديد. ولماذا هذا الجُزْءُ؟ عدتُ إلى المنزل بعد يوم من الشغل. في هذه السنة، 1994، يتقدم فصلُ الربيع إلى الوراء. بردٌ حادٌّ يتلوّى في «مونبولييه» حيث تفتحت كلّ البَرَاعِم. زهرات أشجار اللوز تَفْرِش الحدائقَ بنِثَارِهَا. والضياءُ يُبَلِّرُ السماءَ.

عندما فتحت الباب، لم يَسْتَقْبِلْنِي الدِّفْءُ المُعْتَاد المُرتَنَج على نار الحطب. تَوَجَّهْتُ إلى العمل بتسرّع، ناسيةً وضع حَطَبة كبيرة في المِدْفَأة. درجة حَرارة المنزل ستتأثّر. قبل أن أخلع معطفي، قمتُ بإعداد النار. ثم، نزعتُ الهاتفَ كما أفعل كلّ يوم ومنذ أكثر من خمسة عشر يوماً. أكثر من خمسة عشر يوماً وأنا أعيشُ وحيدةً. أكثر من خمسة عشر يوماً لم أَنَمْ فيها تقريباً. أكثر من خمسة عشر يوماً غارقاً في خوض العديد من المواجهات ضد فظاعات الجزائر. وفي محاولة الهروب من كلّ شيء من خلال العمل. وفي الرغبة في تحويل الكلمات إلى شظايا. وفي ذهولي من إفلاس الكلمات. فهي لا تستطيعُ أن تَرُدَّ، بشكل كلّيّ، الهَلَعَ ولا الألَم. خَدَّايَ مُقَعَّرَان.

بدأ يَتساقَطُ شَعَرُ رأسي. وَأدّى بِيَ الأمرُ إلى فقدان ما بين سبعة وثمانية كيلوغرامات.

أَلْقَيتُ نظرةً مذعورةً نحو رُزْمة الجرائد التي اشتريتُهَا في طريقي. في هذا المساء، لا أُحِسُّ بالشجاعة- الغضب الشديد؟- لمواجهة كلّ هذه الخرابات. ومثل مُسَرْنِمَة، أتيه، لِلَحظات، في منزلي. ثم أتوجّه لإحضار بَطّانيّة لأتمدَّدَ، جَفِلَةً، على أرِيكَة في مواجهة المدفأة.

أعشق هذه البطّانيات المصنوعة من «الموهير» للمفارقة بين الحرارة التي تُوَفِّرُها وبين خِفَّتِهَا، وكذلك الصور اللونية التي توحي بها. انعدام ثِقَل مناسبٌ للراحة.

أغفيتُ متكوِّرةً في هذا الشيء الرقيق، يُهدهدني دويّ النار. لا بدّ أنني نمت ساعتين دفعة واحدة. وهو شيءٌ نادرٌ. فأنا لا أستطيع أن أستغرق في النوم بهذا الشكل إلاّ بعد مُنَاوَبَة ليلية متعبة. حين يقومُ مريضٌ خضعَ لعملية زراعة عضو من الأعضاء، أو مريضٌ ما في حالة خَطَر، بإبقائي يقِظةً طوال الليل. حينها لا أُحصي الساعات التي أقضيها في الصراع، من أجل الحياة، بجانبهم. ثمّ حين أعود إلى بيتي أُحِسّ كما لو أنّ جسمي ظلّ في تلك الأَسِرَّة المُعرَّضَة للخطر. في حمّى المرضى وفي عَرَقِهِم وفي التواءاتهم وفي نقاهتهم. في صِراعات الأَمَل والإرادة والمعرفة، مع آلاتٍ ومع حَقْنٍ مُتواصل ومع روائح المعاناة والأنين.

قدّمت للزميل الذي أتى لِيَحُلَّ مَحلّي، تقريراً عما قمتُ بِهِ. وحين يأخذ زميلي مكاني، بعد نقاشات، لا يتَوَصَّل ذهني إلى الانفصال عنها بصفة نِهائيّة. في حالة البلاهة الناتجة عن التَّعَب وعن

الحاجة إلى النوم، يطفو القَلَقُ إزاء موضوعِ مريضٍ مَا. الشعورُ بالفَشَل، الذي يكون أحياناً لاذِعاً، بخصوص مريضٍ آخر. الارتياح، الذي يحدث في كثير من الأحيان لحسن الحظّ، لإخراج البعض من المرضى من منطقة الخطر.

لا تُداعِبُنِي أبداً، رغم ما يعانونه ورغم الطريقة القاسية التي أُعامِلُهم بها، فكرة أن جسدي ورأسي يمكنهما أن يُغْلِنَا، هما أيضاً، عن رغبتهما في عناية تماثل عناية الطبيب لِمَرْضَاهُ.

في هذه الظروف، وحتى في حالة الخَبَل التامّ، فأنا لا أستسلم للنوم. السريرُ سيكون أحسنَ طريقة لتأجيل النوم. أَتَسَاقَطُ على أريكة. في فصل الشّتاء، تحت لِحَاف زغبٍ، مُقَابِلَ المدفأة. كأس ماء على مقربة منّي. كتابٌ في يدي. القراءة تُبعِدُ الانشغالات. أنا لا أستطيع أن أنامَ إلاّ مع حياة الآخَرين. في حياة أخرى.

أتَكوّر على ظهري، وأكتشف أنّ الصالونَ كان مُضاءً بِوَمضات المدفأة. صوت اللهيب المعتدل يحيطُ خمولي بِعنايَتِهِ. أُفكِّرُ من جديد في فرقعات المدفأة، هناكَ، وفي أضواء ليالي الطفولة الشبحيّة.

أَدُورُ على جنبي، وأثبت النظر في النار. كم تمنيّتُ لو أنَّ لُعبَةَ اللهيب تسبب لي النعاس، وتَحْمِلُني من جديد نحو النوم. قضيّة خاسرة. أُعَدِّدُ مَحَاسِن المدفأة. إنها منحوتةٌ من حديد صبّ أسود. ولها هيأةُ قَارَبٍ. ومع تداعي أفكاري يذهب تفكيري إلى القارَب الذي أبحَرْتُ فيه كلَّ صيف. ويدعى «ريح الرّمل». والآن، هو في مِلْكية صاحبي. وأنا مدينةٌ له في اكتشاف البحر عبر قارب شراعيّ.

وهو قائد القارَب. وأنا لم أكن سوى المُسَاعِد. ولكنّ اسم القارب، ريح الرّمل، يعود إليّ، بطبيعة الحال. لقد ساعدني هذا القارب على كتابة الصحراء في أعالي البحار خلال سنوات. كيف سأعيشُ الصيّف بِدُونِه؟ بدون سرير البحر؟ كيف سوف أستطيعُ مواصلة تملّك الصحراء الآن؟

«لا تكوني منافقةً، فالقارَبُ ليس هو أقسى ما يُفْتَقَدُ. كيف تعيشين دون «جون–لويس»؟ – بألمٍ، ألم شديد. – كم من مدة سيستغرقُهَا هذا الاحتضار؟ – لستُ أدرِي.»



هناك

جالسة على فراش جدتي، مائدة واطئة أمامي، أرسم ثانية، على وميض المسرجة الحروف التي تعلّمتها في المدرسة. مجال نَوْم جدتي يحفظني من صخب ومن توثُّبات إخواني الصغار الذين قَلَبُوا المِخْبَرة العديدَ من المرّات على دفتري، حين أبدأ، دونما انتباه، في إعداد تماريني في مكان آخَر. هُمْ يستطيعون النَّطنَطَة على كلّ الأَسِرَّة الحقيرة، ويتشقلَبُون عليها بِتَنَافُس إلى أن يَقْلِبَهُم التعب. ولكن يُمنَع عليهم بتاتاً أن يلطّخوا هذا السرير بخطواتهم. إنه الاحترام والتبجيل الذي يَدِينُون بِهِ لِصَلَوَات جدّتهم، تجنُّب توسيخ ثيابها ومكان نومها.

أَنْكَبّ على رسم الخطوط الممتلئة والدقيقة، وأتلفّظ الحُروفَ، من حين لآخَر، بصوت عالٍ، وأُواصِلُ ترديدَ رنّاتها، بلا انقطاع، في رأسي كي لا أجذب لنفسي السّخرية، وأَجْلُمُ على بصمات نشّافتي فترة طويلة. أحياناً تُلقِي عليّ أُمّي نظرةً فيها نفادُ صبرٍ. فَكَمْ هي بحاجة ماسّة إلى من يُساعِدُها. وتملّصي طويلٌ جداً. أما أنا، فأُحسّ بالانتشاء وأنا أتامل بإعجاب الكِتَاب المفتوح، والدفتر الذي أنسخ عليه. تجتاحني نشوةٌ عند هذا الاكتشاف غير المنتظَر، وهو أنّ

كِتابي ودفتري عصيّان على فهم وإدراك أُمّي. فضاءان لا يمكن عبورهما، يَدَعان أمي على مسافة. وأما جدّتي فتقوم بدور الرّصد.

إنّه، تحديداً، إخلاصُ هذه المرأة الحاكية، ذاكرة ثقافة شفهية، من يحمي ويرعى مجهوداتي الأولى في امتلاك كِتَابة الفرنسيّ **الكافر**. غير أن هذا التعطّشَ للتعلُّم يخلّصني منها أيضاً. جدتي التي تحتاج كثيراً إلى نقل ذاكرة الرُّحَّل المُهَدَّدَة. ذاكرة شعب في طريق الانقراض: «إنّ استقرارَ الذين كانوا رُحَّلاً، هو الموتُ الذي بدأ يستبِدُّ بِقَدَمَيَّ. وأما، الآن، فأنا لا أملكُ سوى سفر الكلمات...» فهل المشهد الذي يمنحه منظري وأنا أتعلم يجعلها تَغْرَقُ، أيضاً، في أحلام أخرى وتغرق في آفاق أخرى كانت إلى حدّ الساعة بعيدة عن أية شبهة؟ ليس لي وعْيٌ بهذا، لحدّ الساعة. إنّ الإحساس بالكبرياء لارتقائي إلى مركز راقٍ كتلميذة، يملأ جسدي ويُبعد عنّي كُلَّ شُعورِ بالذنب. في هذا الطَرَف من الصّحراء، لا نتجاوز اثنتَي عشرة جزائريّة في المدرسة الفرنسية. ولكنّ المَنْفَذَ إلى لغة «المُتَحَضِّرين» هي آخِرُ ما يشغل بالي. إنّ المُعجِزَةَ، التي جعلَتْنِي أتَوَاجَد هنا منحنيةً على صفحة دفتر والريشة في قلمي، أنا الفتاةُ، هي التي رَفَعَتْنِي إلى الأوج. تتوقف عيناي عند أطراف الصفحة البيضاء، عند عتبة عالَم ما زال مجهولاً والذي أخترع فيه لنفسي تخييلي الشخصي. إنّ هذه الدفاتِرَ الأولى وهذه الكتب الأولى هي التي رفعتني في مقامات الكرامة. النّداءات إلى المقاومة الجزائريّة التي يَتِمُّ الهمسُ بها في الراديو، والتي تجد لها صدّى لدى أبي وعمّي المُتَحَمِّسَيْن، تُهيِّجُ نفسي. في الليل أتخيَّلُنِي، أحياناً، تاركة كلمةً ما على سريري كي ألتحِقَ بالمقاومة. بينما تُرَدِّدُ مُدَرِّسَتِي، في النهار،

وبشكل كبير، إنَّ معركَةَ التعليم تُمثِّل أكبرَ معركة بالنسبة لي. . . القلب يخفق في كل لحظة من اللحظات، هذه المغامرة ما زالت غامضة لأنها متفرّدة. أُفكّر في الحرب، في الإذلال الذي أُشاهِدُه وأنا متوجهةٌ إلى المدرسة. أحلمُ باستقلال بلادي، وبالحرية الجماعية. مثل كل الناس. ولكنّ نضالي في المدرسة، وتعطّشي إلى التعليم هما اللذان يبنياني من دون عِلْمي.

أحياناً حين أرفع رأسي، أتَفَاجَأُ بالنظرة المُتَأَمِّلَة لجدّتي وهي تُتابِعُ حركاتي. تبتسم لي، وبحجّة إبعاد لَعِب الأولاد المُشَاغِب عنّي، زيادةً، تبذلُ قصارى جهدها في إغوائهم وفي شدّ انتباههم بِمَحْكِيَاتِهَا. الضحكات والشجارات والمشاحنات الأخرى لا تتأخر، أبداً، في صرفهم عنها، وفي نقل زمرتهم إلى الغرفة. أنا جمهورُ جدتي المفضَّلُ. أعرف هذا.

حِين يُغلِقُ اللَّيْلُ، أخيراً، صمتَهُ على المنزل، يَصِلُنِي صوتُ أُمّي من الغرفة الوحيدة ممتزجاً، أحياناً، بِنَبراتٍ غاضبة، ومحرِّكة للعواطف، أحياناً أخرى. أَتَخَيَّلُهَا تَتَصَدَّى لِحَوْمة الأطفال النَّائِمِين بِشَكلٍ مُختَلِطٍ، تحرّك الأجساد لِتَمديدِهَا الواحدة بجانب الأخرى مثل سردينات في علبة. أُحِسُّ بالفرح لكوني أَفْلَتُّ من هذا النظام، ومن هذه التسوية للجسم العائليّ. شيءٌ مُشَابِهٌ مع ما أَبْصَرْتُهُ منذ أيّام يعود إلى ذهني، وهو انهماكُ أُمّي في كيّ الملابس. مِكْوَاتَان كبيرتان موضوعتان على الكانون، وغسيلٌ مُبلَّلٌ، والصفيرُ والأبْخِرَة على اللِّباس المضغوط. . . خمَّنْتُ: إنّ هذا هو النوم. الكُلُّ مُبَلَّلٌ بالبول، والكُلُّ متصلِّبٌ تحت أغطية يُخَال أنّها من حديد! رائحة

الرّشح[4] زِيَادَةً. أَرَقِي يأتي، في جانِبٍ منه، من هنا. إنّهُ (أي الأَرَقُ)، في المقام الأول، مُقاومةٌ غريزيّةٌ للغفوة التي تُحَوِّلُ الأفرادَ إلى مجموع عديم الشَّكل. رغم تحذيرات جَدَّتِي - لا تَخْرُجِي، فالجنود المِظَلّيون. . . . أنهض في كثير من الأحيان، أثناءَ اللَّيل، وأتمشّى على أصابع رِجْلَيَّ، أَضَعُ نفسي على عَتَبة الغرفة التي يَنَامُ فيها باقي العائلة أنظر إليهم. الأَرَقُ وعُزلة الليل يُعطيان، إذاً، سعادةً لا مثيلَ لَهَا. أَطِيرُ بعيداً عن كلّ إكراه. الخوف من الظلام يزيد من مُتْعَتي.

أحلام يَقَظَتِي تجذب جدّتي، فتنهض، وتقتربُ وتلقي نظرةً فضوليّة على صفحاتي المُسْوَدَّة. أتخلّص من كيس نومها، وأُنَظِّمُ محفظتي، وأعود لأستلقي بجانبها. في البداية تبدأُ في الهمس بكلمات مُتَرَدِّدَة، كما لو كانت مرعوبةً، قبل أن تَسْتَرِدَّ اللِّسَانَ الطّليق لِفَضاءَاتِهَا. الليلُ بالنسبة لها وبالنسبة لي لا حدودَ لَهُ.

(4) الرشح: إفراز دهني في جلود الغنم يلين الصوف.

هُنَا

بعد ظهيرة يوم السبت، أُفَكِّكُ السريرَ، أُخرِجُهُ من غرفتي، أفككه وأَفصِل الألواح الخشبيّة، أهجم عليها بالفأس. تَتَكَسَّرُ الألواحُ الخشبيّة بصوت يشبه تكسر العظام. لا تنتابني فرحةٌ انتقاميةٌ ولا حزن. كان الشقاء ماثِلاً في اتخاذ هذا القرار، منذ عدة أيام: «تَحَرَّكي. تَخَلَّصِي من هذا السرير. حَوِّلِيهِ إلى أخشابٍ صغيرة لِتُوقِدي بها النَّارَ. أعيدي تركيب منزلكِ بطريقة أخرى.» الرَّأْسُ فارِغَةٌ، فأنصاعُ للأَمر. وفي الوقت الذي كنتُ فيه منهمكةً في جمع كومة الحَطب، انزرعتْ شظيّة ما بين ظُفْر وأُنْمُلَة سَبَّابَتِي. صرفْتُ كثيراً من الوقت من أجل استخراجِهَا. ثم توجهتُ لِشِراء سريرٍ آخَر. أحتاجُ إلى سرير كبير كي أُحِسَّ فيه بأنّني وحيدةٌ. من أجل محو الغياب. زيادة المساحة من أجل التقاط وخِداع قليلٍ من النّوم. الاحتفاظ بمكان، حتى ولو أستلقي فيه عَرْضاً، هو ابتهالُ المُعْتَزِل. بعد دورةٍ من التنقُّل بين المَتَاجِر، قمتُ باختيار سريرٍ جميلٍ. الرأسُ والرِّجْلان ترتفع. الفِراشُ سميكٌ ومن النوع الجيّد. ثمّ كرّستُ وقتاً ثميناً للتزود بِشَراشِف جديدة وفراش من ريش وأغطية سرير مناسبة للسرير، وَوَسَائِد... تغيير، تغيير كلّ شيء. واشتريتُ لنفسي

قميص ليل مُثير، أنا التي لا تستطيع أن تنام إلاّ عارية.

عند عودتي إلى بيتي، أخذتُ في الاعتبار، أخيراً، السبّابة المجروحة بِشَظيّةِ التي لا تتوقف عن إزعاجي بِوَخَزات قلبٍ مُصَابٍ.

كرّستُ الأمسية لِطلي غرفتي. وسيكون لديّ الوقت لتمرير طبقة طِلاَء جديدة قبل أن أتسلّم السريرَ. إنّ تهييء هذا العشّ الجديد سيتيح لي أن أعود شيئاً مَا إلى نفسي، وفي مواجهة العزلة انطلاقاً من مَهْدٍ على مَقَاسِي، وتَذَكُّر عُزلاَت الماضي. الفتح الأوّل الذي أَتَتْ به الكُتُبُ. فبِمُجرّد أن ألتقط كتاباً حتى أصير في مكان آخر. لقد كان الكِتَابُ أَوّلَ فضاء لي يستحيل اقتحامُه. فلا أبي ولا أمي يعرفان القراءة. إذاً فلم يكونا يستطيعان أن يُرَاقِبَا ما كنتُ أستخلصه من شرنقة الورقة. حين لم أكن أتشاجَر معهما حول حرية أخرى، كنتُ أَضَعُ بيني وبينهم صمتَ القراءةِ الهدَّامَ. كنتُ وحيدةً مع كُتُب الآخَرين. وسأكون أكثرَ عزلةً مع كتبي. كان الحبُّ قد أتى لِيَتَكَوَّرَ في هذا العناق ليُجمِّلَهَا ويسندها. الحبُّ هِبَةٌ عرفتُ، دائماً، كيف أهرُبُ منها. حين تُلَطِّخُهُ كثيرٌ من الهُمُوم. حين يُهَدِّد بالانحراف نحو سجن الإصلاح. إنها طريقتي في المحافَظَة على حُلْمِه. إنّ الانتظارَ الدائم للأفضل هو مُعانَدة نفسي على البقاء حيّةً في وجه الإفلاسات كما في وجه الكَوارِث.

الحُبُّ هو اللانهائيُّ الموضوع في مُتَنَاوَل الكلاب. دون شكّ، سيدي «سيلين»[5]، لأننا نحسّ بالحبّ، بشكل أكثر، حين نفقده.

---

(5) سيلين: سفر في آخِر الليل.

التحقتُ، من جديد، بغرفتي. وقبل أن أذهب للنوم، تفحّصتُ وجهي في المرآة. قَسَمَاتِي لها هذا التعبير المُنَفِّر، وشَفَتَايَ لهما هذه الابتسامة الكيماويّة التي أعرفها جيداً من فرط ما أبصرتهما لدى مَرْضَاي الذين يستخدمون مُضَادّات الانهيارات العصبيّة. قِنَاعُ البلاهَة... أنا مُتَمَدِّدَةٌ في الفِراش الرّيشيّ، ولا أكتبُ. أَرْكنُ إلى سريري الجديد. أَفْكَارِي تَتَجَوَّلُ بِهُدوءٍ مُصْطَنَع. أُفكِّرُ، من جديد، في حديثي مع صديقي الدكتور «شونغ» قبل أسبوعٍ. كانت السَّاعةُ تُقارِبُ الواحدة بعد الظهيرة حين هَاتَفَنِي في عيادتي كي يتحدث معي عن مريضٍ كنتُ قد بعثتُ به إليه من أجل إجراء الفحوص. أشعرُ بكثير من التعاطف والتقدير تجاه هذا الرَّجُل، ابن مُهاجِرَيْن صينيين، والذي وُلِد في «تاهيتي»، وأصبح اختصاصياً بأمراض الكُلى. وهو رجلٌ ذكيٌّ ورزينٌ. لقد تَعلَّمْتُ منه الشيءَ الكثيرَ. وهو الذي علّمني تقنياتٍ متعددةً عن الميز[6] ومعايير زرع الكلْيَة، وكذلك متابعة المرضى الذين خضعوا لعمليات زرع. حين عبَّر عن قلقه من أخبار «جون–لويس»، انفجَرْتُ باكيةً دون أن أستطيع إيقاف سيل الدموع التي كَبَتُّهَا لفترة طويلة. «لم تتحَدَّثِي بهذا حتى لـ«ماتيلد»!» نعم، حتى صديقتي الحميمة لا تعرف الخبر لحد الآن. صحيح أنّ «ماتيلد» تغيّبتْ عدة أيام، وهو على عِلْمٍ بهذا، وقبل أن يضع سماعة الهاتف، قال: «انتظِرِيني، أنا آتٍ.»

وقد ازداد هَلَعُ «شونغ» وهو يكتشفُ ضُمورَ جسدي، ووجهي المُقَعَّر، وعيْنَيَّ المتوجِّعَتَين. وخَلْفَ عَدَسَتَيْ نظَارَتَيْه السميكتين،

---

(6) الميز: فصل المواد شبه الغروية عن المواد الأخرى القابلة للذوبان وذلك باستخدام غشاء فارز.

أَصْدَرَتْ نظرتُهُ حكماً على حجم الخسائر، وقامت بِقياسها. كُنّا جالِسَيْن حول طاولة في مطعم مجاور حيث ذهب بي، فكشفتُ عن عدم قدرتي على الأكل بالرغم من كل العزم الذي بذلتُهُ من أجل إرضائه. لم أفعلْ شيئاً سوى الكلام مازِجةً بين كلمات قطيعتي مع «جون-لويس» وكلمات عن الخراب في الجزائر.

العلامة الوحيدة عن ارتباك وغضب صديقي، هي هذه الحركةُ التي جَعَلَتْهُ يرفعُ نظّارَتَيْه فوق أنفه. قضيتُ زمناً طويلاً في تفكيك الدلالة لدى هذا الكائن الوديع. والآن، أَرْصُدُهُ كي أتتبّعَ تَقَدُّمَ تفكيرِهِ. وبعد أن استمع إليّ طويلاً، انتهى الأمرُ بـ«شونغ» إلى أن يُعنّفني قائلاً: «أنتِ طبيبةٌ! وتعرِفِين ماذا يُدعى الذي أنتِ بصدد فِعْلِهِ! يجبُ أن تكوني على عِلم!»

بعد توديعِهِ التحقتُ بعيادتي، وفيها كتبتُ لنفسي وصفة لدواء مضادّ للانهيارات العصبية. اشتريتُهُ، والتهمته حالاً. ثمّ، هاتفتُ «ماتيلد»، والتَحَقَتْ بي. قضينا الأمسية معاً. ومن حينها نزعتُ سمّاعة الهاتف.

أتمدَّدُ تحت الفراش الرّيشيّ، أتنشّق الشراشف الخالية من كلّ تذكار، وأُحِسّ تحت وِرْكِي السُنْدُس الذي كان ما يزال مُنَشًّى للقماش، وأَستَمْتِعُ بالمساحة الشاغرة بالقرب منّي. حَرصتُ على تسخين رِجْلَيّ تحت ماء الرشّاش قبل أن أَهْرَعَ إلى السرير. ومرّتْ ساعات قبل أن تستعيد رِجْلاَيَ الدِّفْءَ الضروريَّ لارتخاءِ الجسد، مُؤَخِّرَةً، لفترة طويلة، حلول لحظة النَّوم. في الماضي، كُنتُ أَضَعُ رِجْلَيّ بين فَخِذَيْ صاحِبِي. كان هذا أفضلَ عِلاجِ لهذا الإحساس

الممقوت لأَصَابعِ القَدَم الباردة. الآن، لا أخْرُجُ، قطّ، من الرشّاش قبل أن يبدأ انفراجُ أصابع قدميّ. أُسْرِعُ لتجفيف جسدي، وأرتدي قميص البيجامة الذي سخّنَهُ جهازُ التدفئة قبل أن أقفز إلى السرير. وحيت تَصِلُ دَرَجةُ حرارة الشَّراشِف، أخيراً، إلى مستوى درجةِ حرارةِ جسدي أقوم بنزع ثوبي، وأقْذِفُ به على السرير، وأستسلمُ لاختبار جلدي ومَفَاصلِي الحُرَّة في هذا السّرير الناعم. السرير الكبير يُخْفي الذُّعْرَ نفسَه الذي يوجد في الجوّ الخانق لفِرَاش الطفولة المصنوع من القَشّ. أكتشفُ، من جديد، ألفَ ترتيب بسيط مع السرير بالنسبة للمحرومين من الحبّ.

هكذا، لم يحدث لي، وهذا من زمن بعيد، أن أبسُط نهاراتي انطلاقاً من سريري. وهذه فاتحة جيّدة لِتَنَاوُل الكتاب الموضوع هنا، مفتوحاً، على الوسادة. إنّ تعرية التوتُّرَات يجعلُ كلمات الآخَرين واللغَة التائهة للقراءة على طرقات الأَرَق متاحة. إنّ الكُتُب هي أَسِرَّتي الواقِفَة بيني وبين العالَم، عَوَالِم تنامُ فيها الكلماتُ على ضفاف اللانهائيّ.



هناك

ليالي الصيف تلقي بكلّ الناس إلى فناء المنزل. لا نستطيع أن نام في الخارج وأمام المنزل بسبب تواجد المظليين... مُتْعة هذا الفصل الوحيدةُ هي هذا الحقلُ المُذْهِش للنُّجوم التي توجد فَوْق رُؤوسِنَا. السماوات المُرَصَّعَة بِالنُّجوم في الصحراء فريدةٌ من نوعها. منظَرُهَا يأخُذُ بمجامع القلب ويُهدِّئُهَا ويُعيدُ للصّحراء سُلطَتَهَا الحُلْمِيَّة. الفضاء الوحيد الذي يستطيع العقل ارتيادَهُ والذي تَقُوم شروطُ الحياة القصوى بترقيقه وتصفيحه، والذي يُغلقه عُرْيُ اللانهائيات في البؤس.

خلال النهار يصعقُ الضوءُ في حرارة تتجاوز خمسين درجة في الظِلِّ. سعيرُ النار يُحرِقُ كلَّ شيء، ويُحَوِّل الصحارى الحوضية والأراضي اللينية الواسعة الحصويّة والتخييل إلى أماكن لحرق النباتات من أجل استصلاحها وتخصيبها. وتحوّل الامتدادات الشاسعة وسماواتها إلى عَالَم سُجُونٍ. وفي بداية المساء، يتوجب رَشُّ الأرض المحروقة في الفِناء، مرّات عديدة، من أجل محاولة ترطيب الهواء الجامد بين الحيطان قليلاً.

ما إن انتهت السنة الدراسية حتى غادرت رفيقاتي الفرنسيات.

بعضهنّ إلى فرنسا، والبعض الآخَر إلى شمال البلاد. أما نحن، فليس بمستطاعنا ولا في عاداتنا التخلّص من هذا الجحيم. جحيمٌ يمتدّ من شهر مايو إلى شهر أكتوبر. سِتّة أشهر من فترة عذاب مُطَهِّر. انعِزالُ بَيْتِنَا، البعيد عن القرية بما يُنَاهِزُ الكيلومتر الواحد، وكذلك الممنوعات التي تُلاحِق الفتيات هي الإطارُ الدائِمُ. ولكنني كنت أَمْتَلِكُ ملاذي الوَرَقِيّ، القِرَاءة.

ممدَّدَةٌ على فِراشي، وكِتَابٌ في يدي، أقرأ على ضوء شَمْعة في الفِنَاء. فِراشي يوجد في أقصى أفْرِشَة الآخَرين. إخواني وإخواتي يَغِطُّون في النوم. جدّتي جالسةٌ، بالقرب منّي، منهمكة في تحريك حبّات سُبحتها في صمتٍ. تنتابني الشكوك في كونها تحلم أو أنها تَجْتَرُّ كلماتها المترحِّلَة بدل أن تَسْتَغْرِقَ في الدعاء. أَلَيْس الحُلْمُ صلاة هو كذلك؟ صلاة كي تبقى الكلمات، على الأقلّ، مُتَرَحِّلَةً؟ عَيْنَا جدّتي شاردتان في مُعظم الأحيان. حين تكونُ جدّتي على هاته الحالة، أقولُ في نفسي إنها ذهبت أَسْرَعَ من مدى سرعة كلماتها. إلى ما هو أَبْعَدَ من حُدودِهَا؟ لا أعرف كثيراً. الإغواء الذي يُمَارِسُه عليها النَّظَرُ يُعلّمني أن أُحاوِل سبر أغوار نَظَرِهَا. هي، امرأةُ المَشْي- مَنْ يَرَ خطواتها يعتقد أنّها أرنبُ سِبَاق مُنْطَلِقٍ- قَالَتْ لي ذات يوم: «الأقدامُ تستطيع الجري، وتستطيع كلّ تُربينات العالَم أن تَهْدِرَ، والعُيونُ تَذهب، دائماً، إلى ما هو أقصى وأبْعَدَ.» من حينها وأنا أعتقد أنّ جوهرَ حياةِ الرُّحَّلِ لا يمكن اختصارُه في قصة مسيرٍ خلفَ قَطيع، أو قصة ذهابٍ وعودة بحثاً عن الماء. إنّ حياة الرُّحَّل هي امبراطورية النَّظَرَات التي تفترِسُ الأفق. هي عَقْدُ العيونِ مع الأقاصي التي تَجُرّ الأرْجُل والحيوات في أثَرِهَا. قالتْ جدتي

صارخةً، مرّة أخرى: «الصَّحَارى بحارٌ واسِعة، والثبات والجمود على شطآنها مُجَرَّدُ هرطقة!» الكوعان على الرُّكْبَتَيْن، الذَّقَنُ في إحدى اليدين، أُمْعِنُ النَّظَر في الأُفُق. أُمَيِّزُ، إذًا، في ارتداداته تَنْمِيلاتِ عيون كلّ أجيال الرُّحّل الذين ثقبوه وعرفوا سرّه. أحِسُّ بِنِداءاتهم لدى العبور. إنّ هذا التركيز، هذه الحِدَّةُ في النظرات التي تُوَلِّدُ كثافةَ هذا الازرقاق، شظاياهُ ساطعة. الكَشْفُ يسحرني. كان الأُفُقُ فارغاً من قبلُ، بِشكلٍ يدعو إلى اليأس. سريرٌ من أجل إلهٍ غائبٍ.

أبي وعمّي يُمْضِيَان السَّهْرَة في الخارج، أمام البيت. تحت نور المصباح الكهربائيّ الوحيد-في البداية وَصَلَتْنَا الكهرباءُ بتقتير(مع ذلك)- الذي يَتَهَدَّلُ في عَتَبَة المطْبَخ، أُمّي تَلْتَصِقُ بآلة الخِيَاطة «سنجر». رِجْلاَهَا تَجُرَّانِ الدَوَّاسَة، تَتَحَكَّمُ في إيقاع دورة العَجَلة، التي تضرب الإبرة بطريقة هستيرية على القُمَاش. طريقَتُها التي تَتَحَرَّكُ باستمرار، تُشْبِهُ دجاجةً في أوج اهتياجها. أَرْفَعُ رأسي، أحياناً، وأتفحّصُ وجهَ أُمّي المُنْحني على عملها. وَجهُهَا الزَّاهِي، قليلاً، الذي تُبْرِزُهُ، حين تُحِسُّ أنها موضع مراقبةٍ، متأهِّبَةً للابتسام. أُمّي العَامِلة شديدة الاعتزاز بالنشاط والإعانة الماليّة التي تُدِرُّ عليها هذه الأُعجُوبَةُ التي تُزيِّنُ «سنجر». انتقامٌ كبيرٌ من خُطَبِ حَمَاتِهَا بِشكلٍ خاصّ.

تَنُورَةٌ مَثْنِيَّةٌ وكذلك صِدارُها[7]، ثوبان تمّ شِراؤُهُمَا في المَتاجِر الفرنسيّة في المدينة المُجاوِرَة، وهما هديةٌ من عمّة كَرِيمَةٍ ومُلْهَمة،

---

(7) الجزء الأعلى من فستان المرأة.

تُنقِذَاني، لحسن الحظ، من فولكلورية التَّنُّورات التي تصنعها أُمّي بكلّ فيضانات التَعَرُّجاتِ المتعدّدةِ الألوان. كانت هذه التنورات التي تصنعها أُمّي ستجعلني، بشكل أكبر، محطّ السخرية في المدرسة. البِذْلات التي تصنعها أُمّي، لا ألبسها إلاّ في البيت. كي لا أُوَسِّخَ البدلات الأخرى. بذلات النّوم تَرَفٌ لن يأتي إلاّ في وقتٍ متأخِّر، فَبِذْلَة النّوم لم تكن تُشَكِّل، بعدُ، جزءاً من طقوس النوم. وفي المقابل، هذه الأشياء التمهيدية للمشّق تُشكِّلُ جزءًا منه، وهو عذابٌ يَتَوَجَّب على الفتيات ذوات الشَّعَر المُتَجَعّد أن يَخْضَعْنَ له. ويتعلّق الأمرُ بإدخال وكَبْس الشَّعَر الكثيف في ضفيرة عشيّةَ مُنَاسَبَةٍ مُهمّة، كي يكون الشَّعَرُ صقيلاً في اليوم التالي. الشدّ إلى الخلف، وتصلّب الضمادة يجذِبُ فروة الرأس إلى درجة أنّ الألَم يُعطيني الانطباعَ بأنني أتعرّضُ لعمليّة سَلْخ جلدة الرأس. ثمّ إننا إذا لم نأخذ حذرَنا فإنّ هذا الشيءَ يعطي إحساساً بأنه قد يخلع فقرة من فقرات الظهر حين نتقلّب على فِراش القشّ. هذا الشيء يُرغمني على حركات متكلِّفة من أجل العثور على الوضعيّة الأقلّ إزعاجاً. وحين لا أستطيع، ينتهي بيّ الأمرُ إلى التخلّص من كلّ شيء. الاستشهاد من أجل الاستشهاد، أُفَضّل مواجهةَ غضب أُمّي في الصباح. فتقوم بالانتقام مني في المساء التالي بشدّ شَعَري الأشعث بقوة أكثر. يجب أن أكون جميلةً ونظيفة من أجل الذهاب إلى مدرسة الفرنسيين. وأن أكون جميلة معناه أن أكون بيضاءَ وسمينة ويكون شَعر رأسي مُنتَصِباً، بينما أنا نحيلةٌ وسمراء البشرة ومُجعَّدَة. الفضلُ الوحيد للعُطَل المدرسية هو اقتصارُ هذه البلوى على مناسبات نادرة، إجمالاً.

لا أتوَفَّرُ على كثير من الكتب. ومع ذلك فأنا أُعيدُ قراءة الكتب التي عندي وأكتشف دائماً كلمات جديدة. كلّ عملية وصف، وكل بورتريه يُصبح مادّةً لِساعات من الاختراع. لأنّ هذه الكتب تحكي لي عن عَوَالِمَ غريبة بشكل كامل. عوالم لا تَستطيع، حتّى عينا جدتي، أن تَصِلَهَا ولا أن تكْتَشِفَهَا. ولهذا السبب، دونما شكّ، فإنّ نَظَرَها أصبح غائماً. وبين جدتي وبين كتبي، أنا أهذي على كلمات. أحلمُ بِبِحَار، وبجداول في مَرَاعِي قراءاتي. الكلمات تمتلك ألواناً مجهولةً. أتمشّى كل ليلة في أقطارها الغريبة.

قبل العطلة المدرسية حضنتُ حِقدي في سريري ليال عدة متتالية. كنتُ الأولى في القسم الدراسي، وكنتُ فخورةً جداً بأن أُرِي نقَاطي لأبي. هذه الأرقام يَعْرِف أبي قراءتَها. كانت له هيأةُ جَمَلٍ متساهل، أَبْعَدَ دفتري من مجال رؤيته وقال بشفقة: «لا داعِ لهذا التعب، فأنتِ لستِ ولداً يا ابنتي!» أحسستُ كلَّ جسدي يَتَصَلَّبُ ويتهيّجُ. كان نظري أسودَ، اجتررتُ في رأسي هذه الفكرة: «سوف ترى، سوف ترى!» ولكنني ظللتُ صامتةً من الشقاء. وأنا أستلقي على فراشي، كنتُ أخترع لنفسي، كلَّ مساء، حياةً قادرة على سحق هذا الازدراء، وأصر على حصولي على حقّ الوجود بشكل كاملٍ، إن لم أحصل على الإعجاب.

حين يتوقفُ صوتُ آلة الخياطة، أخيراً، وحين يتَمَكّنُ النوم، أيضاً، من إنهاكِ الأفراد البالغين المستلقين على أَسِرَّتِهِم الحقيرة، أتّكِئُ على منكب وأقذِفُهم بنظرات دائرية. الحرارةُ تُدمّر الجسم

العائليّ وتُبَعْثِر الأفرشة وتحرّرُ كلّ واحد من شَرَك الأعضاء الآخَرين مثلما يُحرِّرُ النومَ من توتّرات النهار. والحرارة تُحَرِّرُ، بشكل خاصّ، من غطَاء الصندوق أكثر مِمَّا تُحَرِّرُ من الغطاء أو البطانية. إننا لا نستطيع أن نتحمّلَ حتّى الشَّراشِف في مثل هذه الحرارة.

أقوم بتحليل المواقف. البعض يُتَمْتِمُ. البعض الآخَر يَشْخَر. هنا، يَتَسَارَعُ تَنَفُّسٌ مَا قبل أن يَجِد الهدوء، دون أن أن يكشِفَ عن لُغزِهِ. في جانبٍ ما، ضحكة صغيرة، تنهيدةٌ أو صرخة تمزّقُ سِرَّ الليل الكبيرَ. ومن هناك، ينطَلِق وَابِلٌ من الضُّرَاط... هذه الحرية، وهذا التنوع المكشوفُ للوضعيات وللإيماءات ينفي الفِكرةَ المتماثِلَة التي أكوّنها عن النوم، وتُعيدُ للكائنات تَفرُّدَهُا. هذا يُسلّيني ويُقَوّيني. أَشْرَعُ في وضع أحلام عن أحلام كُلّ واحِدٍ، وفي إخراجِهَا من مَكامِنِهَا. النّائمون يُرسلون لي صورةَ نسيانٍ وهشاشةٍ ولُغزٍ متشابِكَة تتركني حائرة ومترددة. مستسلمين لِلَيْلَة الصيف، حتى الأفراد البالغون يكشفون عن وُجُوهِ أطفالٍ مُذهِلين. أعشقهم في هذا النوم الحُرّ في القيظ. هذا الاكتشاف يُثِيرُ مَشَاعِرِي. كنتُ أعتقِدُنِي غيرَ قادِرَةٍ على هذا، على الحُبّ. نعم، أنا فتاة شرّيرةٌ، ولكنّي عاطفيّةٌ.

أَشْرَبُ من الغَرَّافَة الموضوعة بجانبي وأُوَاصِلُ قِرَاءَتِي إلى أن تشرَعَ الكَلِمَاتُ في الغمز وفي الامتزاج بالنُّجوم.

هنا

كان يمكننا أن نَعْرِفَ، ومنذ حَوّاء، ما إذا كان لسرير جديد، وكبير حتى، أن يُنْقِذَ من غياب الآخَر. يُلقي ضوءًا عليه ويُرَكِّزُ حكماً مُخَرَّباً. سريرٌ واسعٌ لامرأة صغيرة مستلقية في جزءٍ منه، هو التماس وقُربان يحثّ الحُبُّ نفسَهُ على تجاهلهما. في هذا السرير، الذي ما زال بدون ذاكرةٍ، أستيقظُ، ليلاً، وأنا أبحث عن الجسد الآخَر. . .

فَضَّلْتُ دائماً الرجالَ طويلي القامة، الذين يُخَفِّفُون بِسَواعِدِهِمْ وسيقانهم مِنْ أَثَرِ طردي من الجسد العائلي، بشكل مُفيدٍ. أَتَرَسَّخُ، وأنا الصغيرة، في عناقهم. يلُفُّونني. بعد دوخة الرغبة، وحين يعثُرُ النَّفَسُ على تفرُّدِهِ، الأنفُ في جيد الآخَر، أتنفَّسُ بشكل عميق جِلْدَ الآخَر. الاحتفال الجسديّ، كلّ حساسية السرير، أقوم بالتقاطها، وأتمتّعُ بِنَهَمٍ. الطفلةُ الجريحةُ التي أُمَثِّلُها تَحْرِص على تخزين حقّها من الأهواء والحنان والمداعبات والسذاجات والأشياء التي تخدش الحياء العامّ، التي كانت مرفوضة في السّابق، تحت أشكال وبشرة امرأة ناضجة.

أنا كائِنُ لَذَّةٍ خارِجَ السَّرير، أيضاً. الحِرْمَانات والممنوعات، وبُؤْسُ الطُّفُولَة والمُرَاهَقَة، كل ذلك أعطاني مِزاج امرأة باحثة عن

اللذّة. استعجالٌ وقابليّةٌ للاستمتاع بِكُلّ لحظة. إنّ هذه العبادة للنَّعِيم، حَتّى وإنْ كان صغيراً، هو الذي يَمْنَحُ الاحتياجات الضروريّة حِدَّتَها الفائقة الوصف.

في الليالي التي أعودُ فيها من هذه الساحات والمُنْتَدَيَات والقُدّاسَات الكبيرة المتكرِّرة عن الجزائر، وقلبي ملطَّخ، فإني أُحِسُّ، بطريقة شديدة، غيابَ جَسَدٍ ملجأ. جسد؟ أي جسد؟ لا. جسد يَتَجَوَّفُ لحاجاتي، والذي ينجحُ في مَلئِهَا وفي مَسْحِ الإهانات. قَبل «جون-لويس» كان تعلّقي بِرَجُلٍ مَا خَطَراً عليّ. كنتُ أتَّخِذُ عَشيقاً لمساعدتي على الهروب بسرعة. في الماضي لم أقتسم، أبداً، حياتي مع أحدٍ. من قبل كان بإمكاني أن أعيشَ مغامرات عديدة لِمَحْو جِلْدٍ ومُخِّ حِدادات الحُبّ. كان هذا من قبل. قبل أن أَمُرَّ عبر تطويع طويل. والعُشّاقُ، الآن، وكذلك النزوات العابرة ذاتَ مساءٍ التي تجعلني أَلُوذُ بالفرار في وسط الليل، هذا الشيء، لم أَعُدْ أستطيعُهُ، فضلاً عن أنّ جسدي المُخَرَّبَ غيرُ قادر على الرغبة في هذه اللحظة. إنّ ما ينقصني، هو الراحة فقط، واللجوء إلى الأذرعة من أجل نسيان جنون البلد، ونسياني أنا والقدرة على النوم. آه، كَمْ أريدُ أن أنام! أنام لفترة طويلة.

أَشْرَعُ في السخرية: «أنا بلا عائلة بسبب المعركة، وبلا أطفال عن طريق الاختيار، مُحِبَّة من دون عشيق...» من المحافَظَة على البقاء، والمقاومة عن طريق القراءة مروراً بكلمات الرَّفض والقطائع، اندفاع أهوج يَصِلُ إلى الأوج مع الكِتَابة. كَسَّرت الكِتَابةُ كلَّ ما تَكُنُهُ، وما لم يكن منها، كي تسود بلا مشاركة لِسُلْطَتِهَا تقريباً.

وحدهُ الطبُّ هو الذي ما يزالُ يَنتَشِلُني من استبداديّته ويَدفعُ بي، واقفةً، على أطراف أَسِرَّة المرضى.

أَجْنَحُ (كمَا المَركب)، مُرْهَقَةً، على سريري بينما الابتهالات التي سمعتها في المنتدى تُواصِلُ دَوَرَانَهَا في رأسي. كَمْ يبدو لي بعيداً ذلك المساء الذي توقفت فيه الانتخابات في الجزائر، إشارة الانطلاقة لِكابوس جهنّميّ. في جوّ الرّعب، قمتُ بتجميع جماعة صغيرة للاحتجاج على التصويت المسروق للمُهاجِرين، وأسّسنا خليّة أزمة سمّيناها «كورار» CURARE لَجْنَة الاستعجال والمقاومة من أجل جزائر جمهوريّة، وقُمنا في الليل، حاملين لافِتات مُهَيَّأة على وجه السرعة، باحتلال قنصلية الجزائر في مدينة «مونبولييي». وعقدتُ فيها ندوة صحفية، وبعثتُ ببلاغات عن طريق الفاكس إلى الصحافة الجزائرية. والآن يبدو لي أنّ كلّ هذا كان تافِهاً.

أَتَشَبَّثُ بالكتابة، وبنشاط عيادتي. هذه العيادة التي توجد في حيّ المُهاجِرين، الحيّ التجاري في المدينة. وبطبيعة الحال، كان هذا خياراً منّي أن أفتح عيادتي في هذا المكان. كان قراراً مهمّاً اتَّخَذْتُهُ منذ خمس سنوات. بالإضافة إلى الكتابة، فقد كرّستُ نفسي إلى سكّان هذه المنطقة. وخلال سنوات عديدة في المستشفى كان زملائي يلجأون إلى خدماتي حَالَ تَواجدهم أمام واحد من مُوَاطِنِيَّ يستحيلُ التفاهُمُ معه بسبب عدم معرفته للغة الفرنسية. وقد اتَّضَحَ أن أغلب المواطنين من أصل مغربيّ - فَهُم يُمثّلون أغلبية الجالية المغاربيّة في المنطقة - وأحياناً من أصلٍ تونسيّ أو غيره. لا تهمّ بعض التغييرات في النبر أو في اللهجة. كانوا كلهم مُتَشَابِهين، هؤلاء الرجال والنساء المضطجعين في المستشفيات والعاجزين عن التعبير

عن آلامهم. كانت أعينهم تُضَاءُ وتَتَرَجَّى الرَّحمةَ من أُولى الكَلِمات باللغة العربية التي أُوَجِّهُهَا لهم. كنتُ أقضي كَامِلَ وقتي في الاستماع إليهم وفي فحصهم، وفي توضيح الفُحوصات والعِلاجات التي يتوَجَّبُ عليهم تحملها كي أُطَمْئِنَهُم. وكانت وُعُودِي، فقط، بزيارتهم ثانية، هي التي تُحَرِّرني من مطالبهم المُلِحّة ومن أياديهم التي تُحَاوِل أن تُبْقِيِني، مزيداً من الوقت، بالقرب من أَسِرَّة تمّ تحويلها إلى كثير من المنافي في المنفى الذي يشكله الابتعاد عن الوطن.

لقد جاءتني، من هنا، ذات يوم، الحاجة الماسّة إلى هذه العيادة. وهو استثمار شخصيّ مُكْلِفٌ في المقام الأول. فإكراهاتُ النشاط في حَدّ ذاته لم تكن تُخِيفني.

بدأتُ العمل في سنّ الخامسة عشرة. وقد اشتغلتُ، بشكل دائم، بموازاة مع دراستي. وقبل أن أُكَرّس نفسي للكتابة، كانت آفاقُ الامتحاناتِ وحدَهَا مَنْ ساعَدَنِي على الصمود. فقد كان كلّ ديبلوم يُمَثِّلُ بالنسبة لي مرحلةً تَضَعُ محصلَتُها النهائية بطريقةٍ ساطعةٍ، وضعيةً طبيبةٍ متخصّصةٍ، ستضع حدّاً لِسَنوات الضيق والشِدّة والإهانات والكدّ، حسب ما كنتُ أعتقد. وفي انتظار هذا التحول كنت أُغرِقُ آلاَمِي وأنْسى كلّ الآلام في اشتغالي من أجل سدّ لقمة العيش والتحصيل الدراسيّ. قذفتُ إلى الجحيم بِكُلّ محظورات الوَالِدَين. محظورات القبيلة كُلِّهَا. الأزَقُ السماويّ، الذي كانت تُمثّله الصحراءُ بالنسبة لي. كلّ أشكال الاستهجان، التجريمات الاجتماعية. العُشّاق الذين تُعَرْقِلُهُم الأعراف والتقاليد. البلد، وانحرافاته المافيوزية وشيزوفرينياته... أَلُوذ بالفرار دون أن أَلْتَفِتَ لِجِرَاحِ أَحَدٍ. ولم أَرِثْ، زيادةً على جراحات عائلتي. لقد منَحَنِي

تَعَطُّشٌ إلى الحياة مُلازِمٌ لليأس، هذا المِزاج غير المَرِن، والذي بواسطتِهِ أتَحَدّى، كي أستهزئ بهم، المأساة كما الواجب. إنّ هذين الجَشَعَيْن، والقادِرَيْن في أمكنة أخرى على التسلُّقِ في أقنعة جديرة بالاحترام، ينتَصِبانِ فظاعاتٍ في الجزائر. الجشعُ الأول دمويّ بينما الثاني كثيرُ الوَحل، إنَّهما ثابتان لا يمكن الاستغناء عنهما لِكُلّ الحماقات.

حينَ يَجعلني خوفٌ مُفاجِئ أَسْتَشِفُّ أهَمِيَّةَ الهاوية في مسيري، فإنني أتَعَلَّقُ بِأَكثر مَشَارِيعِي طُمُوحاً: «سوف أكتُبُ كلَّ هذا، ذاتَ يَوْم!» هذه الصرخة الجوانيّةُ بَعَثَتْ فِيَّ عودةَ تَصْمِيمِي. ذاتَ يوم، سيكُونُ مُلْقىً على عاتِقِ الكِتَابَة توضيحُ حرية الخَسَارَات والأحزان، التي ما زالت تُقلِقُ أحياناً طريقي. الكتابة كآخِر ملجأ، كانت موجودةً فيّ قبل أن أبدأ فعل الكِتَابة منذ فترة طويلة. ولكنَّ المشروع، الرهيب في حدّ ذاته والجَبّار، يَظَلّ سَراباً خلال كلّ سنوات الكدّ هذه.

صحيحٌ أنّ نهاية الدراسة حملت معها المشاكل المالية، وأَنْهَتْ لَيَالِي حراسة المرضى التي تُدفَع مقابلها أجرة مُخَفَّضَة وغير قانونية. وهي حالة كلّ طالب مغاربيّ يحلّ بفرنسا. ولكِنَّ الحصولَ على مكان حقيقيّ في وَسَط الأطباء في المستشفى مسألةٌ أخرى. وسواء كنا حاصلين على ديبلوم أم لا، فإننا، بِسبب وُجوهِنَا المتوحِّشَة، نَظَلّ في غَير مَوَاضِعِنَا في هذا الجسم الطبيّ. ولكنّ صعوباتِ بعض أفضل أصدقائي ذوي الأصول الفرنسية، والذين لا يستفيدون من أيّ سَنَد داخليّ، يمنعني من إصدار أيّ حُكم مُنْحازٍ جدّاً. لقد كانوا هم أيضاً في صراع مع أسوأ الحَوَاجِز. غير أني كنتُ، لوحدي، أُرَاكِم

كلَّ العيوب. فأنا برونزيَّة اللون، وامرأة، ولستُ حتّى بنت أحد أقطاب الجنوب، إضافةً إلى كل هذا فقد كنتُ ثرثارةً. الجنس الثاني لآخِرِ الأعراق، وتحديداً، من رفَضَ أن يخضعَ للتمدين. «الدليلُ هو أنه ما عليكم سوى النظر إلى الطريقة التي يتراجعون بها منذ أن غادَرْنَا البلدَا!» طبعاً! وإذا كانَ عندي هذا الحظّ غير المنتظَر في الحصول على وظيفةِ اختصاصيةٍ في أمراض الكُلى قبل نهاية دراساتي، فلأنه في هذه اللحظة، فقط، لم يكن أحدٌ من العشيرة يَضَعُ عينيه على هذا المنصب. وبطبيعة الحال تمّ تحذيري بأنه يتوجب عليّ أن أَرْشَح بأيّ ثمن بِمُجَرَّد ما أن يتَقَدَّمَ أحد أبناء السراي من الباب الصغير.

كنت أعمل دون أن أحصي عدد الساعات. كنت أَعشقُ الصورة الجانبيّة لهذه الوظيفة، وهو تعليمُ المرضى كيف يُدَجّنون عوائقهم الرهيبة. وكذلك في بَرْمَجَة واستخدام آلاتهم من أجل الحصول على شيء من الاستقلال الذاتي. وكذلك في إمكانية تطهير دَمِهِم من الذِّيفَان القاتِل في بيوتهم. معظمُ المُصابين بأمراض غير قابلة للشفاء-الأمراض المُزْمِنَة-، الخاضِعِين، بِسَبَبِ من العجز والقصور، لمساعدة وإسعاف شامل من مَراكِز المِيْز، لهم نُزُوعٌ نحو تطوير مزاج شَكِس أو نَوّاح وهو مزاج ينتهي بأن يُسَمِّمَ لهم حياتَهُم. إنّ تَحَمُّل أعباء المرضى ومُعالَجَتَهُم في منازلهم، تُؤَنْسِنُ شيئاً ما من بَقائهم الرّهيب على قيد الحياة وهُمْ مُوثَقِين إلى كمبيوتر مُصَفَّح بإشارات وأجهزة إنذار بالخطر حاسمة. هذا يُتيحُ لأكثر المرضى المتشبّثين بالحياة أن يستعيدوا حياة ناشِطَة، ويتيح لهم كذلك حَصْر العاهَة في الساعات التي يَظَلُّون فيها موصولين إلى إحدى الآلات.

رئيسُ هذا القسم المُشارُ إليه وُلِد في منطقة «وهران» في عائلة من المستَعْمِرِين، «ملاّكين عقاريين كبار»، كان كثيراً ما يَهْمِس بهذه الرنّة الدائرية للأصوات التي كانت تتلذّذُ لِكَونِهَا فتحت عيونها، دُفعة واحدة، على أفضل ما في الوجود. كما لو أنّ هذا يُمثِّلُ ضَمانَةَ قيمة في حدّ ذاتها! وكانت إحدى المُناسَبَات القليلة التي كانت الرزانة، المفترض أنها وَقْفٌ على الأرواح كريمة الأصل، يَكْبَحُ الهستيريا والعجرفة التي كانتا تُميّزَانِهِ. ومن بين مُبالَغاتِهِ الأخرى، عَداوَتُه التي لا مَثيلَ لها للمرأة، والتي تعودُ، دونما شكّ، إلى رفضه لِنَصيبِهِ الخاصّ من الأنوثة. كان مثلِيّاً جنسياً معروفاً، وكان يُجهد نفسه على إخفاء ذلك خلف سلوكٍ مُستبِدٍّ. هذا الرياءُ، والازدراء الذي ينتُجُ عنه كان يُذْهِلُنِي. كيف يمكن انتظارُ الاحترام من شخصٍ لا يَحْتَرِمُ حتّى نفسهُ؟

كان هذا الشخص المختلّ العقل يُؤاخِذُنِي، في كثير من الأحيان، على التواطؤ الذي أُبديه حيال الممرّضات، وتعريضاته واحتقاراته في كلّ لحظة: «يجب أن نَعرِفَ من أيّ ضفّة أنتِ! يتوجّبُ علينا أنْ نُجدِّفَ في الاتّجاه نفسه!» وبما أنّي كنتُ أطرده شرّ طَرْدة، كان يقول لي برنّة فيها كثيرٌ من الاحتقار: «لا تَنْسَيْ أننا مَنَحْنَاكِ مِنّة، بتشغيلكِ معنا!»

حينما تكون فتاةٌ ما من الوَسَط الطبيّ طامعة في هذا المَنْصِب، فإنّ رئيس القِسْم، المُتَحَالِف مع أكبر آيات الله يُديرُ الوَسَط، بَذَل كلَّ الوسائل من أجل التخلّص مني. ويستطيعون حتى الذّهاب إلى اتهامي بارتكاب خطأ مهنيّ خطير، لو أنّي لم أدافع عن نفسي. انفَجَرْتُ:

«إنَّكِ لم تُناضِلِي إلى هذه الدرجة، إنّكِ لم تقطعي هذا الطريق كي تُقَاسِي هذا، الآن! إنَّك لم تهربي من آيات الله هناكَ، كي تتحمَّلي آيات الله هنا. إنَّكِ لن تكوني أبَداً إلاّ عَرَبِيّة نفسكِ لا عربية أَحَدٍ. وهؤلاء الناس، في نهاية المطاف، يُقَدّمون لكِ خدمة. من خلال الإفصاح عن أنّكِ لستِ من عالَمِهِم، يساعدونكِ لتَعِي بأنّهم لن يشكّلوا، وبأيّ ثمن، جزءًا من أهلكِ. إنّ مُعاناتِهم وكُرهَهُم للنساء وصراعاتهم الصغيرة، ليست أنتِ. البعضُ منهم، ربّما، لاَمِعُون جداً في تخصّصاتهم. وهم، أحياناً، معروفون على الصعيد العالمي. ولكنها معرفة محدودة جدا. وما عدا هذا، فَهُم جَهَلَة.

خلال كل هذه السنوات المليئة بالمشاكل، كنتُ أُحَمِّسُ نفسي: «حين سأنتهي من دروس الطبّ، ثم من التخصّص، سوف أشتري لنفسي منزلاً جميلاً. وستكون لي حديقةٌ مليئةٌ بالورود. ولن تكون لي أيّة مَشَاكِل»... كنتُ بعيدة عن أن أفكّر في أن نهاية الدراسة، والرفاهية المادية ستُماثِلُ اضطراباً كهذا. ولم أكن أتوقع أنهما، نهاية الدراسة والرفاهية، حشَراني في إثبات الحالات وفي تساؤلات وفي شكوك. وبما أنه لم يَعُد لديَّ أيّ امتحان قادر على وضعي في حالة تَنَبُّهٍ، وكي يُصفِّحني بالتحدي، فإنه لم يَعُدْ لديّ أيُّ رِهان قادر على إخفاء تمزّقاتي. أما المال فلم يستطع أن يفعلَ شيئاً.

في هذه اللحظات انفرضت عليّ الرغبةُ في الكتابة، هذه الرغبة التي كانت، إلى حدود اللحظة، مؤجَّلَةً بسبب من الضرورات المادية والدراسة، فرضت نفسها باستعجالٍ وهي تصفق الباب. الحاجة إلى الاختصاصيين في أمراض الكلى في القطاع الخاصّ لا تتوقف. أستطيعُ أن أختار بعض التنقلات وتكريس معظم وقتي للكتابة. سنة

1985، سنة الطُّرُق الرَّئيسيّة. طُرُق جنوب فرنسا، من أجل أن أمارِس مهنتي. الطريق الداخلية أيضاً، طريق الكتابة، هذا الطريق الطويل والوَعِرَ.

أربع سنوات من عمل مُجْهِد من أجل كتابي الأول، «الرجال الذين يمشون»(*). أربع سنوات في تَسَمُّع الطفولة والمراهقة. كتبتُ في إحدى النصوص التي تعود إلى هذه المرحلة: «[...] تَدافعتْ، كلماتُ الصمت، كلماتُ كل أنواع الصمت. لطَمَتْني بقسوة ناجعة. وجعلتني في آنٍ واحد ثَمِلةً وحائرة.

الكتابةُ، الكتابةُ ودَوَرَانُ الكلمات تُحبِط التَّبَارِيح الشديدة. الكتابةُ وتَسويدُ البياضِ جسد الورق هو رِبْحُ صفحةِ حياةٍ. هو استرجاع شِبْر مِنْ نَفَسٍ من بَراثِن القلق. أنا في الكتابة مثلما لو أني على عتبة الإنسانيّة. أستطيع أن أعانِق كُلَّ تنوعاته، وأحياناً أستطيع أن أهتزّ لارتعاشاته الأكثر رِقّة.

الكِتَابةُ هي تَرَحُّلُ عقلي في صحراء النقائص، في طُرُق حنينٍ مَسدودةٍ.»

في نهاية هذه العودة إلى الجزائر عبر الكلمات - لم تَطَأْها رِجْلايَ منذ رحيلي عنها- قررت أن أفتح عيادةَ طبّ عامّ كي أهتمّ بهؤلاء الذين لا يسأل عنهم أحدٌ، المهاجرين.

كان «جون-لويس»، في البداية، ذَاهِلاً: «ولكنكِ لن تستطيعي أن تفعلي شيئاً بهذا التخصص الثقيل جداً! فَآلات الميز والحاجات

(*) تمت ترجمة هذا الكتاب إلى العربية وصدر عن «المركز الثقافي العربي» بعنوان المهاجرون الأبديون.

الضرورية لأمراض الكلى، لا توجد إلا في المستوصفات الخاصة أو في المستشفيات. - بالضبط، سَأدَعُ اضطرابات الخَطَر الكبيرة وألتَحِق بالطبّ العامّ. - إننا لا نَدَعُ تخصُّصاً يمكن أن يَدِرّ علينا خصْيَتَين من ذهب. سواء كانت من ذهب أَمْ لَمْ تكن، فأنا لا رغبة لي في امتلاك خِصيَ. زميلان أو ثلاثة زملاء من هؤلاء يَكفُون لإثارة اشمئزازي. كنتُ أجيبُ في كثير من الأحيان: «إنّ «مونبولييي» لم تَنتَظِرْني، كي تُنجِبَ نِسَاء بورجوازيات. لقد كُنَّ كثيراتٍ حَتَّى قَبْل بناء كلية الطبّ الذائعة الصيت في القرن الثالث عشر! إنّ فرنسا تُحصي، دائماً، مُتَخَصِّصين لاَمِعِين في كلّ الأنواع. وإذا أردتُ امتلاكَ بعض الفائدة، في هذا المكان، كطبيبة، فإنه يتوجّب عليّ أن أذهبَ حيثُ توجد حاجةٌ حقيقية إليّ، وحيث أَضَعُ خَدَمَاتِي في تصَرُّفِ من تعرّضوا للإقصاء. هؤلاء الذين لا يعرفون، في معظم الأحيان، حتى التحدث باللغة الفرنسية ولا تسمية آلامِهِم.»

حولي صرخَ عددٌ من أصدقائي الأطباء قائلين: «إنّ «مونبولييي» تَعُجُّ بالأطِبّاء العَامّين! سوفَ تَقْضِين وقتكِ في انتظار المرضى! - لا، سوف أستطيع أن أكتبَ قَدْرَ ما أُرِيدُ!» حدث هذا في سنة 1989.

«بِدُون تَوَتُّرَات أبحاث الكلى وأمراضها، وبمساعدة الكِتَابَة، ربما سأستطيعُ أن أنام بِشَكلٍ أفضلَ.» النومُ بشكلٍ أَفضَلَ، هذه الرغبة بِكُلِّ التَغَيُّرَات تَمُسّ عقلي بِرِفْقٍ وتَمُرُّ دون أن تتحوّلَ إلى انتظار حقيقيّ.

هناك

الزمنُ المُبارَك الذي كان فيه فراشي المصنوعُ من القَشّ هو الفراش الوحيدُ المُلاصِقُ لفراش جدتي، لَمْ يَدُمْ، مع الأسف، لفترة طويلة. بالسرعة التي ينتفخ فيها بطنُ أُمّي ثمّ تضع حملها كُلَّ ثلاثة أو أربعة عشر شهراً، فإن المنزل امتلأ بِحَشدٍ من البَشَر. التحقتْ بنا، جدتي وأنا، أختي الصغرى. وعلى الرغم من نومها الراسخ فإنها اضطرت لأن تستيقظ، هي الأخرى، عند مَرَحِ الوالِدَين. فأنا لا أرى من تفسير آخَر لإبعادها عدة أمتار عن النوم العائلي. ومنذ تلك الفترة، وفي كل مساء، كانت تقوم بإغراق وسادتي بدموعها من جراء إبعادها. كانت دموعُها تُثير مَشاعِري. كانت الدموع تسيل غزيرة مثل الماء. وبما أنّ أختي كانت بدينةً، فقد كان ينتابني الشعورُ بأنه تمّ ثقب قِرْبَة الماء، وهي كيسٌ من جلد الماعز، لِتُوضَعَ بالقرب منها. ولكنّ إحساسَها باليأس كان يفتنني ويُسلّيني. وبعد أن راقبتها بِفُضول شَرِهٍ شيئاً مَا، قررتُ في نهاية الأمر أن آخُذَ بِيَدِهَا.

كانت تُغمض حالاً جفْنَيْها وتنامُ وهي تشهق عاليا. وكان يمتلكني الإعجاب، لفترة طويلة، لمنظر رُمُوشِهَا وهي تقطرُ بالدموع.

اضطَرَّنا العددُ المتزايِدُ من الولادات إلى بناء غرفَتَيْن إضافيتين لإيواء الجميع. لا شيء أكثرُ بساطةً من صناعة قِرميد من الطين. بضع ساعات من العمل هي التكلِفَة الوحيدة. أتسَاءلُ لماذا لَمْ يَتِمّ التفكير في بناء هذه الغرف من قبلُ. لا يتطلب الأمرُ من الرجال إلاّ حفرُ الأرض بالقرب من المنزل، ثم تبليلها وعجنها قبل ترصيصها في قراميد وتعييرها بفضلِ قَالَب من الخشب. وتركها حتى تَيْبَس بشكل جيد.

ومنذ هذه الفترة، لم يَعُدْ أحدٌ ينام في المطبخ. ولم يتَسَبَّب هذا القرار في أيّ نَدم ما دامت المدفأة لم تَعُد موجودة هناك. فقد جاءت آلةٌ كهربائية لتَحُلَّ محلّها من دون أيّ جاذبية. لقد كنتُ، والحق يُقالُ، سعيدةً جدّاً بأن أبتعد عن المطبخ. فَمَا زال يحوم بالمكان سرّ عائليّ دنيءٌ في الوقت الحاضر. أُحاولُ أن أُقنِعَ نفسي بأن الأمر كان يتعلّق أيضاً بكابوس فظيع. أنجح في هذا. A l'insoutenable nul n'est tenu.

أَوّلُ سريرٍ حقيقيّ كان من نصيبي ومن نصيب أختي. شراء جريءٌ، بعض النَّوابِض المُتَأَوِّهَة، يُسلِّمُ بالحداثَة. ولكنْ مَا إنْ وصل السرير إلى عين المكان لم يُقْبِلْ عليه أَحَدٌ. لأنه تحت ثِقَل الأجساد، تتقعَّرُ هذه النُفاية الحديدية أكثر من أُرْجُوحَة نوم، فَتُكَسِّرُ الظُّهورَ المعتادَة على النوم على الأشياء الصلبة والخَشِنَة. لهذا السَّبب فإنَّ هذا السَّرير ليسَ سهلاً. ولكنّي مستعدةٌ لكلّ الغَرَائب. عند استخدام السرير ارْتَبْتُ في أنّ صريرَهُ الذي يحدُثُ عند كلّ حركة هو الذي كان وراء رفض والِدَيَّ الحادّ لهذا السرير الذي كانا اشْتَرَيَاهُ من أجلهما.

أختي، التي تشبه حيوان المرموط، لا تُشَوِّش على أَرَقِي. ثم إني من قاعدة السرير أستطيع أن أرى سريرَ جدَّتي البعيد عني شيئاً ما. فقراءاتي المتأخّرة انتهى بها الأمر، ذات يوم، أن تَفْتَرِسَ اهتماماتي والوقت المُكَرَّس لِحِكاياتِهَا ومحكياتها. كما أنه تنتابني بعضُ مَظَاهِر النَّدَم لكوني جَعَلْتُها تتحمل، ولفترة طويلة، وَمْضَة شمعتي. ولكن الحاجة إلى عَوَالِمَ أخرى لا تُرْوَى. الاغتراب الوحيد الذي أَمْتَلِكُهُ، فالكِتَابَ يَقتلِعُني من كلّ ما يسجنني، ويمنَحُنِي إمكانية أن أحْلُمَ بالمجهول، ويُهيِّئُنِي للنَّوْم. أُراقِبُ من حيث أستلقي جدَّتي خِلْسَةً. شَبَحُها المَهْجُور يُحدِثُ انقباضاً في صدري. أُعزّي نفسي من خلال الاستنتاج بأنّني لا أخضعُ لهذا البُعاد إلاّ من أجل الحفاظ على نومها الهشّ. عُذْرٌ وَاهٍ لم ينجح في الصفح عنّي حَتَّى أمام عينَيّ. أحياناً أكتَشِفُ نظَرَهَا المحتَرِزَ وهو يمرّ عليّ وعلى كُتُبِي. وكي أُفْلِتَ منه أستغرقُ في الأَمَاكِن البعيدة عني عبر الكِتَابة.



ليلة الأجساد الراحلة

هنا

المَطَر يَنقُرُ أحجار السُّطوح. رَذَاذٌ، مطر مِدرارٌ. أعشق الاستماع إليه وأنا مستلقيةٌ في سريري. بشرط ألاّ يدوم طويلاً، وأعشقه حتّى في النّهار. إنه يُهدهد لذة الكِتابة أمامَ المَوْقِد. ولكّني أُفضّلُ العَوَاصِفَ التي يُذكّرُني صخَبُهَا بِعَوَاصِفِ الصّحراء. منزلي الجاثِمُ على مرتفع صخري، والمُشرِف على جُرْف تحيط به سلسلة من الروابي، يوجد في الصفوف الأولى لمشهد هذه العواصف. فيَتَعرّض منزلي، أحياناً، للصواعق.

الرّذاذُ الذي يَتَواصَلُ دونما انقطاع ينتهي به الأمرُ بأن يمنحني الإحساسَ المُقْلِق بأنه يُشرّبُ جلدي. أُحِسُّ بأنني مُبَلّلَة داخِلَهُ. تهديد بِغرق العُروق الشّعَرِيّة. أُحِسّ بالغَثَيان. أبحثُ عن الهواء وفي ذهني هاجس بأنه يكفي أي ضغط على رئَتيَّ ليجعلني أتقيّأُ أَعَاصِيرَ اليوم المائية. أَشِعّة الضوء الأولى تُحَرّر تَنَفُّسِي وتُعيدُ إليَّ تقاطيع جسمي، الإحساس بالكمال وبِتماسك جِسمي. أَثِبُ خَارِجَ المنزل، وأَقْفِزُ بِخُطَى كبيرة واسعة لأنّ الحَاجَةَ إلى الإحساس بالشمس في العينين وفي مَسَام الجِلْد حيويّةٌ.

اكتشفتُ هذا في باريس. هذا العَرَضُ الذهني والجسدي

بالنقص في الشمس، وبنقيصةِ احتراقها على الجِلْد. لم أفقد هذه الأشياءَ من قبلُ، أبداً. بل على العكس كنتُ أتعرّضُ لإفْرَاطِهَا.

في سريري، أثناء الليل، وتحت فراشي الريشي أَعْشَقُ الإنصات إلى تَسَاقُط المطر في الحديقة وأتَفَاءَلُ بفوائده، وأُفكِّرُ، مِنْ جديد، في رغباتي في السَّحَاب وفي العواصف، هناك في الصحراء. المَطرُ، هنا، يَتَسَاقَط على صحرائي أيضاً.

في هَمَسات الرذاذ يعود إليّ الوَجْهُ الصَّارم لامرأةٍ جاءتْ تُحذِّرُني ذات ما بعد ظهيرة: «سيّدتي، لقد جئتُ، اليوم لأتَحَدَّثَ مع الكاتبة وليس مع الطبيبة. لا أعرف ما إذا كُنتِ تَتَذكّرين... فأنا سوريّةٌ، شاعرةٌ... ولكنني أكتبُ باللغة العربية. أقْطُنُ خلفَ عيادتكِ، مُباشَرَةً. ومِنْ وَاجبي أنْ أقول لكِ إنّ مَواقِفَكِ وكِتاباتِكِ تَضعُكِ في مَوقِعِ الخَطر. إنّ ما أسمعُهُ، أحياناً، بخصوصكِ... أنّكِ تُمثلين الشيطانَ بالنسبة للمُتَطَرِّفين. أنكِ امرأة يجب تصفيتُهَا. أنا خائفةٌ عليكِ. والأُصوليون موجودون، هنا أيضاً».

معطفُهَا الذي لا يخترقه الماءُ يَتَقَطَّرُ حول جَزْمَتَيْها الصغيرتين. أَلْقَتْ نَظَرَهَا حول طاولة الفحص في القاعة المُجاوِرَة قبل أن تُضيفَ: «سريري يلتصق بهذا الحائط، من الجهة الأخرى. أُفكِّرُ كثيراً فِيكِ، وفي الناس الذين يأتون لِيَتَعَرّوا ويستلقوا هنا، على بعد سنتمترات مني، -أنا أكتبُ في السرير- وأُفَكِّرُ في ما يمكن أن يُحَدِّثوكِ بِهِ.» ثم أضافتْ وقد اتَّخَذَ مَظهرُهَا شكلاً ماكراً «حين أتيتُ لآخُذَ استشارة طبية، لأول مرة، كان الأمرُ خصيصاً لرؤية ترتيب عيادتكِ. ومن حينها كتبتُ قصيدة بين الأسرّة... الأسرّة بين المَنَافِي، ليل الأجساد الراحلة.»

أَهُزُّ كَتِفَيَّ تحت السرير الريشيّ. شتائم وتهديدات من كلّ نوع ترافقني منذ طفولتي. وقد دَفَعَتْنِي، دائماً إلى أن أُقَاوِمَهَا وأن أتَحَدَّاها. أنا واعية بكلّ هذا. غير أنّ الوَحشيةَ، لمّا عَجزَتْ عن القضاء عليَّ، قتلت في دواخلي الجزائرَ، لِفَترةٍ طويلةٍ. هناكَ، في الصحراء. كنتُ أبلغ الخامسة عشرة من العمر. ذات مساء، في الفاتح من نوفمبر، وهو ذكرى انطلاقة حرب الاستقلال، كدتُ أن أُعْدَمَ من دون مُحَاكَمَة، فقط لأنّني لم أَكُنْ محجَّبَةً. فانغلقتُ، أكثرَ فأكثر على الكُتُب كي أحافظ على حياتي من الصَّدَمات. فانْشَطَرْتُ إلى اثنتين: إحداهما تُواصِلُ القراءة والخِدَاع والأخرى سَمَّرَها أَلَمٌ صامتٌ. الوُجودُ والمُقاوَمَةُ والأَمْكِنَة البعيدة عن الكتب مثل بابٍ مصفوق، بِسُرعةٍ، على ما لا يُمكِنُ تسميَتُهُ sur l'innommable. دفنتُ المعاناة إلى أعماق نفسي. خلال عدّة سنوات، لَمْ أَتَلَفَّظْ بكلمة عن هذه المأساة. ومن بين كلّ الكلمات التي ظلت حبيسة حُنجرتي بِكُلّ ما تحمله من الفظاعة، ظلت الخلاصة الوحيدة لهذا الخراب، وهي أنّه لا وطن لي. أحسستُنِي عديمةَ الجنسية.

إنّ هذا العنف، بشكل أخصّ، هو الذي يُمسِكُ بي من بين مختلف أشكال العنف بالجزائر، اليومَ.

لا أَشعُرُ بالخوف، هنا. مَرْضاي يوجدون معي. لا أُومِنُ بدول قانون. غير أنه في هذه السنة نفسها، 1994، جاءني زوجان جزائريان عجوزان وقالا لي: «يا بُنَيّة، لقد طُلِبَ منّا أن لا نأتي لاستشارتكِ، وطُلِبَ منّا أن نُقاطِعَكِ لأنكِ في نظرهم، مقترفةٌ لخطايا. بل لقد قِيلَ لنا أكثرُ مِن هذا. فأَجبناهُمْ بأننا نُحبّكِ كثيراً لأنكِ تهتمّين بِنَا أكثرَ مِنْ

أيِّ كان، وبأننا نجدكِ امرأة طيبة. -هُمْ؟ منْ هُمْ؟ -أنت تعرفين من هـم. وهُـمْ كثيرون. يَجِبُ أنْ تَحتَرِسِي.» ابتسمتُ وأنا أُراقِب القَسَمات الذكية، والتعبير الأريحي لهذه المرأة المُسِنّة وهذا الرجل العجوز، هذين الأمِيَّيْن. هُمَا يرفُضَان السخافة كما يرفضان الذُّعر، دونما خِطابٍ ولا إحساس بالبطولة. أُحِسّ بأنني قويّةٌ بفضلهما، وبفضل تَقديرِهِمَا. سمعتُ رنّة الجرس نفسها مِنْ مرضى آخَرين.

ها قد مرّتْ أكثر من سنَتَيْن تَتَابَعَ فيها أشخاصٌ من مختلف الديانات ليحذّروني، وليعبروا عن قلقهم على حالتي. ومنذ فترة قصيرة، جاء صديق جزائريّ، لاَجِئٌ منذ فترة قصيرة في «مونبوليي»، يُوبّخني: «أنت وحيدةٌ في هذه العيادة، مع كل ما تـمثلينَهُ في عيونهم، أنتِ هدفٌ مثاليٌّ! – إسمعْ إنّ جزئي من الذُّهَان الجزائريّ قد أُشْبِعَ هناكَ. ومن المستحيل نقلهُ إلى هُنَا.» مرة أخرى، جاء دورُ صحافيٍّ شاب من الجيلِ الثاني لِيُحَذِّرَنِي: «لقد أجرينا تحقيقاً لفائدة جريدة. إنهم منغرسون بشكلٍ كبيرٍ في هذه المنطقة. فإذا انتقلوا إلى الحركة، فإنكِ ستكونين أَوَّلَ مُسْتَهْدَف. – إذاً فأنا أعتمدُ عليكَ في أن تُخبِرَني إذا كانَ الهجومُ وشيكاً.» ثم أضفتُ وأنا أرى وجهَهُ يفقد البوصلة: «ما الذي تريد أنْ أفعَلَهُ؟ أن أتوقف عن الحياة، وعن العمل؟!»

لَسْتُ فاقدة للوعي. لا أُقَلِّلُ من المخاطر عن طريق التَبَجُّح أو عبر الاستفزاز. في إحدى ليالي سنة 1990، أُحْرِقَتْ سيارتي أمام منزلي، بعد شهرٍ فقط من صُدُور كتابي الأوّل. فقد تحدّثتْ مقالاتٌ نُشِرَت في صُحُف محليّة، مُوَشَّاة بكتاباتي، تتحدث عن طفولتي أثناء حرب الاستقلال. خلال هذه الفترة، لم نكن، رفيقي وأنا، نُكَلِّفُ

نفسينا عناء إدخال سيارتيْنَا إلى المِزآب. فكُنَّا نُوقِفُهُما أمام البيت، على مشارف منحدر صخري. كان المكان حياً سكنياً هادِئاً. كان يوجد في السيارة صولجان هِرمِس مما يدل على أنها سيارتي، وهي السيارة التي تمّ صبّ الوقود عليها وإحراقُهَا. وعلى هيكل السيارة الأخرى، التي كانت على مبعُدة مِتْرَيَن اثنين، ذابَتْ كلُّ المواد البلاستيكيّة تحت تأثير الحرارة. ولكن السيارة نجتْ من الحريق. في الصباح، وعند استيقاظي، وجدتُ هيكلَ السيارة المُحْتَرِق.

لاَحِقاً، وبعد سنتين، أخرجَتْ حربُ الخليج من حنجرتي هذه الكلمةَ التي لم أكن قد تَلَفَّظْتُ بِهَا مِنْ قَبْلُ. والتي لم أجْرُؤْ على كتابَتها مِنْ قبلُ: عديمة الجنسيّة. عديمة الجنسيّة في بلدي بِالتَبَنّي، فرنسا، هذه المَرّة. أحسستُ برغبة في التقيُّؤِ من جَرّاء حُصُولِي على الجنسية الفرنسية. فرنسا هذه، فرنسا المنضوية في تحالف إرهاب الدولة، تمنحني رغبةً هائجة في أنْ أَمّحِي من كل ما يحمل كلمة فرنسا. باستثناء اللغة. لم أفكر في التخلّي عن اللّغة في أيّة لحظة. غير أني لم أعتَبِرْ، أبداً، الشعبَ الفرنسي كوحدة مُتجانِسَة. حتى أثناء حرب الجزائر. وخُصوصاً أثْنَاءَ الفَظَاعاتِ، هُناكَ. مَشَاعِر تعاطُف من قِبَل اليهود أَوْ من قِبَل الأقدام السوداء ساعدتْنِي على إقصاء هذه الحدود من رأسي. لاحقاً، ودون أن أَتَنَصّلَ من أُصُولِي، حصلَ عندي اليقينُ بأنّ طائفتي الحقيقيةَ هي طائفةُ الأفكار. ولأنّ الجزائر موجودة، فقد كنتُ أعتَقِدُ بأنّ فرنسا قد تخلَّت، نهائياً، عن جَشَعِهَا وعن طَمَعِهَا، الذي بدّلت سحنَتَه، بِصِفة مُنَافِقَة، إلى مهمة تمدّنية وحضارية. ولكن وحدها الخرافةُ هي التي تتغيرُ. وسواء كانت مهمة تمدّنية أو حبّاً للعدل والإنصاف من طرف أنصار حقوق

الإنسان، فإن النتيجة هي كرنفال مَصّاصِي الدّماء نفسُه. دون أن نحصي الانعكاسات السلبية التي تسبّبتْ فيها، في الجزائر على بعض الديمقراطيين المُتّهمين، منذ أمد طويل، بأنّهم عملاءُ الاستعمار. أمّا أن تكونَ قبضةٌ من فرنسيين، ومن بينهم وُجُوهٌ هامة، مُعارِضةً شَرِسة لهذه الحرب، فلا يُخَفِّفُ، في شيءٍ مِنْ مَرَارَتِي. لقد ظلوا أقليةً. ثمّ إنّ تَوَاجُدَ كثيرٍ من أعيان الجزائر الفرنسية على رأس الدولة الفرنسية يفتَحُ، من جديد، أحد الكوابيس: وهو أن حرب الخليج مُعاودةٌ للحروب الصليبية التمدّنية للقِوى الاستعمارية كلها مجتمعةً.

ذات مساء، وفي أحد النقاشات الصّاخِبَة، لُمتُ إحدى أعزّ صديقاتي، «ماتيلد» لأنها لمْ تَعِ، بما فيه الكفاية، خسائِرَ وجور هذه الحرب. إنَّ هذا الشُّعُورَ المُفاجِئَ بالعزلة، حتى بين أحضان من اخترتُهُمْ، من بين عائلة تفكيري، أصبح، بالنسبة لي، أمراً لا يُطَاقُ. النبرةُ تَصَاعَدَتْ، ولم أَعُدْ أتحَكَّمُ في نفسي، اخْتَطَفْتُ كأساً كبيرة بالقرب مني وقَذَفْتُ بِها في وجه «ماتيلد»... بعد يَوْمَيْن أو ثلاثة أيام، جاء بعضُ المغاربيين في مُنْتَهَى الهياج والتوتّر إلى عيادتي، ومَدُّوا لي نسخة من صحيفة «لوميدي ليبر» وقالوا: «إقرئي، إنّه يُهينُنَا جميعاً!» والمقصودُ هو عُمْدَة المدينة. فقد كان مقالُهُ بعنوان: إفلاسُ المُثَقَّفِين المُسلِمين. وهو خليطٌ من عبارات أقل ما يمكن أن يُقالَ عنها إنها اختزالية من جانب عمدة وأستاذ في تاريخ القانون! في مُناسَبات أُخرى ما كانت هذه الهذيانات لتُثيرَ أعصابي. ولكن في هذه اللحظات التي تُعانِي فيها الخَوَاطِرُ من فَرْط الإشتعال، فقد وجدتُ أنّ هذا الموقفَ غيرَ مسؤول. تَلْفَنْتُ حالاً إلى مدير تحرير الصحيفة، وكنت مصمِّمةً على أن أَقْذِفَ بعضَ السِّهَام في اتجاه

الخلاصات التبسيطية لِخطاب هذا الرجل.

في صباح اليوم الذي نُشِرَتْ فيه رسالتي المفتوحة إلى العُمْدة، هَاتَفَ أحدُ الأشخاص قِسْمَ أبحاث الكلى وأمراضها في المستشفى- في الصحيفة تمّت الإشارة إلى كوني اختصاصية بأمراض الكلى- ليَعرف مكانَ تَوَاجُدِي. السيدة التي تشتغل حارِسةً لم تَحْتَرِسْ. هاتَفَتْنِي على وجه السرعة، مذعورةً. «قال لي: «أشكُرُكِ، سيّدَتِي. أنا ذاهبٌ لِقَتل هذه المومس» كانت عنده لكنةُ الفرنسيين الذين كانوا في بلدِكِ. إنّه خطئي. يجب ألاّ نظَلَّ في مكاننا. هيا بنا نُقَدّم شكوى مشتركة»

صوتُ رَجُلٍ مُسِنٍّ بدون أيّة حجة سوى ضغينته وحِقده. بعد أن انتهيتُ من الحديث مع الحارسة، ذهبتُ عند بقّال مغربيّ مُجاور وحكيت لهُ الحادثَ المُزْعِج. فقال لي: «لقد هاتفوني أنا أيضاً، وهدّدُوا بتفجير الحانوت. لا تقلقي يا بُنَيّتِي، سَنُدافِعُ عنكِ.» فتعبّأَ حشدٌ من شباب من الجيل الثاني لحراسة عِيَادَتِي، وكانوا يدخلون، جماعةً، إلى قاعة الانتظار خلفَ كلِّ مريض. «هل كل شيء على ما يُرام، يا دكتورة مليكة؟» فأغرق في الضحك. لا، إنّ هذا المريض لا يأتي من أجل قتلي، بالرغم من أنه يتوفر على رأس فرنسية خالصة. فيخرُجُ الأولاد العفاريت وهم يدورون دورات نصفيّة، وهم مبتهجون بسحنة المريض المُنْذَهِل. ولكنْ إذا كانت يقظَتُهُمْ تَشُدُّ من عزمي، فإن فكرةَ جاليات تَتَرَاشَقُ بِنَظَرات غاضِبَة تجْرَحُ مَشَاعِري. . .

في مساء اليوم نفسه، شاركتُ في منتدى من أجل السّلام. وكان من بين الحُضور «حمّادي الصيد» الممثل السابق للجامعة العربية في باريس، والذي كان قد أصبح مُمَثِّلاً لتونس في

اليونيسكو. التقيتُهُ لأول مرة. قال: «لقد قرأتُ مقالكِ، برافو! برافو، يا سيدتي! أنا سعيد بِمُصافَحَتِكِ.» كانتْ تنتابُنِي نشوةٌ كبيرةٌ لمجرد تَخَيُّل رؤية هذا الرجل الذي أُكِنُّ له الكثيرَ من الإعجاب. «تلقَّيتُ عدة تهديدات بالموت من أجل هذا. - يجب رفع دعوى. إرفعي دعوى وَوَاصِلِي. يجب ألاّ تستسلِمِي!»

إنّ تقديمَ دعاوى في مثل هذه الحالات، شبيهٌ بالمشاركة في منتديات من أجل السلام. لا يؤدي إلى أيّ نتيجة. وهذه الحرب ستَنْتَصِرُ على قلب «حمادي الصيد» الرجل الشجاع واللامع. فقد ماتَ بعدها بقليل. وبوفاته خَسِر المغرب العربي صوتاً كبيراً.

السيارة المحترقة وهذا التهديد يأخذان توقيع قُدَامَى منظمة الجيش السري[8] OAS. وقد كانوا كثيرين من «نيس» إلى «أليكانتي». من «نيس» إلى «أليكانتي» هِلاَلُ الخَطر. حربُ الخليج سَاهَمَت في إيقاظ اندفاعات أَلَم متكيِّسة. تُجّار السلام تمّ سلبهم وتشليحهم. فرنسا المرتكزة على حقّ الدم لها، هي أيضاً، خلاياها النّائمة.

بطبيعة الحال، أنا أَخْشى، ضمن ما أخشاه، انعكاسات الإرهاب الجزائريّ على التراب الفرنسي. ولكنني أَظَلُّ مُقتَنِعَةً بأنّ هذه التفجيرات في هذه الحالة، سَتَتَوَجَّهُ إلى مَصَالِحِ الدولة وليس إلى أفراد معزولين.

يَدَايَ تحت رأسي، وأَنَا مَا أَزَالُ أُفَكِّرُ في هذه الكلمات: الخلايا النائمة. إِنَّهَا تَرِنُّ في أعماقي بشكل غريب.

---

(8) حركة إرهابية فرنسية كانت تعارض استقلال الجزائر.

على الرغم من هذا الاستعراض العامّ، فأنا لا أنجحُ في استحضار النوم، أَقْفِزُ من السرير، أقوم بابتلاع مُهَدِّئ وكأس ماء كبيرة. في هذا المساء كنتُ سأَصْدِم رأسي كي أَقْتُلَ نفسي، وأَسقُطَ في ثُقْبٍ أسودَ. لاَحِقاً، بعد ساعةٍ أو ساعَتَيْن، وفي حالة السُّبَات التي قادَتْنِي إلى السرير، عَاد إليَّ أحدُ الكوابيس، بصفة مفاجئة. كنتُ قد طردْتُهُ من عقلي، بِشَكلٍ كليّ.

ذات ليلة، وقبلَ شهرَيْن من افتراقنا، تقريباً، استيقظتُ وأنا مُغرِقَةٌ في البكاء. هَمَسَ لي «جون-لويس» وهو يجذبني إليه ويحتويني بذراعيه وساقَيْه: «إنه ليس إلاّ كابوساً! ما الذي يشغل بالكِ؟» هززتُ كَتِفَيَّ ودفعتُ، بقوة، وجهي في عنقه. لا، لن أقولَ لهُ إننا كنا بصدد الافتراق في هذا الحلم. خلال النهار، كانت كمّاشاتُ الوعي تُلَوْلِبُ كلَّ الكوابيس النائمة وجَذَامير أخرى للقلق.

هناك

في الشفق، تسلّقتُ الكَّثيبَ. كان عالياً، عالياً إلى حدّ أنني لم أعرِفْ كيف قمت بهذا. يبدأ العِرْق[9]. إنها ذروة الصحراء. أزرعُ رِجْلَيَّ العاريتين في الرمل الذي كان ما يزال مُحرِقاً، وأرفع عَيْنَيَّ نحو القِمَم. إنها تتمدد وتلامس السماء، وتطويها وتُكَوِّرُها مِثْل سَجّاد. لو أنها تستطيعُ تنظيمها وقضْمَها! وجعلها تتبَلّل في قليل من البول. تُخربِش فيها ثلاثَ سحابات. فقط ما يُكدِّرُ قليلاً من شراهتها!

أَتَسَلَّقُ وأنا أُجْهِدُ نفسي. يَتَمَلَّكُنِي الانطباعُ بأنّني حشرةٌ هزيلةٌ منطَلِقةٌ لاقتحام الحنايا وحلْمات الكُوسموس. تنفُخ في وجهي وتشوِّه نظري وتُجفِّفُ منخارَيَّ ورِئَتَيَّ وتصفق طبلاً أصمَّ في رأسي. أزفر. العَرَقُ يتَقَطَّرُ ويتَسَبَّب في التصاق الرُّمُوش ويُلصِقُ ثوبي. كان جِلْدي يَغرق في الماء والجفاف داخِلَهُ. كان هذا يدوم طويلاً إلى درجة أنني نسيتُ مَنْ مِنّا ارتقى الآخَرَ، أنَا أَمْ الرمل. أُحِسُّ بالدوّار. إنها اللحظة الوحيدة من حيوية جَسَدي، وأمّا باقي الوقت فَأَظلُّ

(9) عِرْق: الصحارى الحوضية التي تنتشر فيها الكثبان الرملية.

منكمشةً على كِتاب. اندفاعُ الحبّ يُجَنِّنُنِي ويقلقني، يدفعني ويجذبُنِي بطريقة لا تُقَاوَمُ.

وأخيراً أرتقي إلى القمة، أنسَحِق منبطحةً، أُحَاوِلُ أنْ أستعيدَ نَفَسِي، أَنْزِعُ كَشَوْك البعير في الرمال، وأنتهي بأنْ أَكْتَشِفَ هذا الحُلم الذي يسحرني: فكَثيبي هو الجفاف المنحوت بوفرة. بِلَذّة. هذا هو الأمر. والتهتّك السامي لِجَسد الصحارى الحوضية في الخلف، هذا هو. قُدرَةُ اللّه. سخريةٌ من دوغما الأراضي المُحِيطَة، ولِمَظْهَر الصحارى الحوضية المقروضة بالغثّ بِصُخورِهَا التي أنهكَتْهَا الشمسُ والرياحُ. واللامتناهي المنغلق على سجن الأشغال الشاقة.

أَلْتَصِقُ بهذا الكثيب، الذي يدعى البرغة. إنه السريرُ حيث تقفز أحلامي. من هذا المَجْثَم تنطلق أسفاري السرنمية اللامُتَحَرِّكَة التي تخلط ما بين كَلِمَات جدّتي وكَلِمَات قراءاتي. هُوَّةُ الصحارى الحوضية، في الأسفل، تحبسني في سجنٍ ضيّق. في الأسفل، تَسودُ الكوابيسُ. في الأسفل أَلْتَصِقُ بالكُتُب كي لا أموتَ من الغُصّة خلال الأربعة أشهر التي تَتَخَلَّى فيها عنّي حتّى المدرسةُ.

من هذا المكان الشاهق، حينَ تَخَلُّصِي من دَوْختي، لَدَيَّ متَّسَعٌ من الوقت للإشراف على منزلي، على البئر وعلى الحديقة الموجودَة بالقرب منها. لديَّ علاقةٌ مُعَقَّدَةٌ مع هذه البئر. البناءُ الصغير الذي يَضُمُّ المِضَخّات مُحاطٌ بِصِهريج كاكيّ مرفوع على قَوَاعِدَ صَدِئَة، وهو نوعٌ من زائدة هائلة، مُنْغَرِزَة في رَسْم المَشْهَد. أَمقُتُ هذا البُعْد عن القَريَة التي تمنحنا هذه الحياة المنعزلة. أَجْهَلُ لِحِساب مَنْ تُلْعَب الدُّعابة التي حَوَّلَت أبي إلى حارسِ بئرٍ في الصحراء، وهو مُتَرَحّل الهضاب العليا، والرّاعي وطفل العَطَش الذي قضى قِسْماً من حياته

في البحث عن مساحات الرعي لحيواناته، وفي اللهاث خلف بِرْكَةٍ عابرة، وسرابات. أتميَّزُ غضباً من عَدَم استطاعتي، أبداً، مُغادَرَة هذا المكان من أجل استشفاف بعض القصائد أو بهاء هذا المَسَار. مِنْ حدّ إلى آخر، عالَمُ الفوارق الكبرى، كنتُ أَعْرِفُ عنهُ البلايا وانقطاع التنفّس. هذه البئرُ هي مكانُ كلّ عطشي.

المحكيات المُتَرَحِّلَةُ، رحيلُها، وُصولُها، بحثُهَا عن الماء، الاشتغال على الصوف، وقَوَافِلُ المِلْح والأقمشة القُطنِيَّة والشاي... لم تَكُن جدّتي تنتهي من غربلة ذاكرتها المترحّلة لي. ولكنها عرفتْ كلَّ هذا قبل أن تَجِدَ نَفسَهَا مُسَمَّرَةً إلى حياة الاستقرار. أمّا أنا فقد فتحتُ عينيَّ وأنا مربوطةٌ، مثل عنزة، إلى دعائم صهريج صدئة. ومن حُسن الحظّ فإنّ بهاء الكثيب ملأ عينَيَّ. ومن حسن الحظّ أن بعض الرُّحَل كانوا يأتون، أحياناً، من جانب كثيبي ليوضّحوا، بصفةٍ محسوسة، هذا الماضي. ولكن بالرغم من أنني كنتُ أُشاهِدُ، بصفة حقيقيّة، رحيلهُمْ ووُصُولَهُم، فقد كان ينقُصُنِي ما هو أساسيٌّ: السَّفَرُ والعبورُ. إنه نداءٌ يَكْبُرُ في حياتي. وهذا النداءُ كان أحياناً من الحِدَّة بِحَيثُ إنَّنِي لَمْ أَكُن أرى شيئاً بالرغم من أنَّ عينَيَّ كانتا مفتوحَتَيْن تماماً. أَنْهَمِكُ بشراهة في قصص ومحكيات جدّتي، وفي الكُتُب. أَتَصَارَعُ من اختراع فضاءاتِهَا ومَسَاراتِهَا. يَظَلُّ التّخييلُ واقعي الوحيدَ. فخلف الأُفُق لا يُوجَدُ أيُّ شيء. فراغٌ لا يمكن تصوُّره. وحدَهَا حِدَّةُ النَّظَرات وثبات الكلمات ما يجعلُ الهواءَ قابلاً للاستنشاق بالنسبة لي. مُنحَنَيَاتُ الكثيب الوافرة والبضّة تَحُلُّ مَحلَّ الصُّدُور التي لا أَستطيعُ أن أُكَوِّرَ وجهي ولا مَخَاوفي من دونها.

عبر أيّ مَقْلَب كلّ هذا الماء، الماءُ الذي ما يزال نائماً تحت الأرض في أقصى مِمصّات المِضَخّات، هل هو مثل الماء الذي يسخنُ في هذا الخزّان الرّدِيء، يتباهى بالصدأ، ولا يُغَذّي سوى خُضَار حديقتنا؟ حدائق الفرنسيين تفيضُ أزهاراً. أما أنا فهذا المشهدُ الرائعُ لا أستطيعُ أنْ أتأمّلَهُ إلاّ مِنْ فوق الأسوار. وَالِدَايَ يقولان بأنه غيرُ مُجْدٍ الاهتمام بشيء غير نافع. ومن شدّة رَصْد وانتظار سِحْر الأزهار، اكتشفتُ من بينها نثاراتٍ في مزرعتنا. على بعض أوعية البُقُول. أحياناً على النعناع وعلى الكُزبَرة. لمسات صغيرة جدّاً بيضاء سريعة الزوال. وحده الزعفران يعزّيني ويَحمِلُ لونَهُ الخالد والأوحد، حتى النّهاية وحتى الجَنْي، يملأُ يَدَيَّ وعينَيَّ ومنخريَّ. فترة طويلة بعد التّذكار.

شيئاً فشيئاً، سَيَتَسبّبُ بحثي عن مَظَاهِر جمال زهيد سَأُكَافَأُ عنه بِكُنوزٍ مُنبثِقَةٍ من جوف الرمال. كل أنواع الباقات الصغيرة الهشّة- وحتى الزّنْبق- الذي يُسرِعُ في التفتُّح، ويُعانِدُ في تَعْطير من يعرفُ أنه مُهدَّدٌ، بسرعة، وبأنّ خطراً آنياً يُلاحِقُهُ. أستَنْشِقُ رَحيقَهُ فأُحِسُّ بالانتشاء. هذا الشّذى وهذا اللّونُ الحادُّ الموضوعان على تُوَيْجَة نحيلة، إحدى رَوَائِع الغطرسة في مملكة الجماد، هذه. أجلس على جَنبٍ، منذهلة من السّعادة. لقد بدأتُ ألتَقِطُ الأشياء عديمة الجدوى. هذه الزيادةُ عن اللُّزوم أصبحت عندي ضروريّةً.

مُنْبَطِحَةٌ، بِشَكلٍ دائم، يَتّجِه نَظَرِي نحو القرية. خارج «القصر» و«الملاّح» اللذين يَتَدَاخَلاَن، تَظَلّ باقي الأحياء مفصولة بِحَواجِز. الشّوَارِعُ الفَرَنسيّةُ مُتأنّقةٌ بشكل واضح، ومَنْزُوعَة الرّمل ونظيفة. بين

هذه الشوارع من جهة وبين البَلْدات العربية واليهودية مجتمعةً من جهة أخرى تُوجَد مجموعُ المباني الإدارية: مَكَاتِب شركة الفَحْم الحجريّ والدَّرَك والمستشفى ومدرسة الفَتَيَات ومدرسة الفتيان، والبلدية. وهو تحديداً فضاءُ التقاء وتَعَايُش تَجِدُ عتبةُ التَّسَامُح نَفْسَها فيه خفيضةً جِدّا كي لا نقول إنه من المتعذَّر عُبُورُها. وراءَ كلّ هذا، في سَقْطَة الزُّرْقة السريعة يَتَمَدد بستانُ نخل حوله بساتينُ فَوَاكِه. وبعيداً، صَخَب «الصبخة» la sebkha، البِرْكَة المالِحَة، التي لمْ تحتَفِظْ في كلّ ذكرياتها عن الماء سوى بتصدُّعات في دِرْعِهَا السّاطع.

بين هذا العالَم وخزّان المياه يَتَشَقَّقُ طَرِيقٌ، طريقٌ كنتُ أَسْلكُهُ من أجل التوجه إلى المدرسة. إذا ما شُوهِدَ من عَلٍ، فإنه يُؤَشِّرُ بِشكلٍ أفضلَ على هذا الفَصْد الأبيض بين عالَمَيْن مُنفَصِلَيْن... هناكَ في الغرب، هناكَ حيث يَشْمُل الشَّفَقُ في نفس الشهيق الصّامِت الأبكم «القصر» والكثيب، أعرفُ أنه توجد هناك مَقْبَرة «للاّ عايشة». بمحاذاة أسوار ذات سُمْرَة بنفسجيّة أرجوانيّة إلى تَوَرُّمَات الكثيب الأمعر الأُولَى، تلتصقُ القبورُ، وتَتَغَضّنُ وَتَخْلطُ ما بين مُدَرّجات من تُرابٍ ورَمْل وترسم درجات. يأتي الأطفالُ والنِّسَاءُ للجُلوس فيها. يَلتَحِقُ بهم مُتسوِّلُو «القصر». فتبسط النساءُ الطعامَ الذي حملنه كَقُربان. فيتناول كلّ هذا العالَم الطعام معاً. ومقابل الضريح الصغير «للوَليّة عايشة»، توجد جَنْبَةٌ مُعلَّقَةٌ مُزَيَّنَة بِتَمائم وبقايا أشياء ثمينة ومناديل وأَحْزِمَة وخِرَق من كل نوع، تُشبِهُ سَاحِرَةً قديمةً، والشبح الوحيد لِمَسرح النائمين بين الأحياء والكثيب. تنظر الناسُ إلى هذا. ترفع العيون نحو الكثيب وتَبْتَسِمُ.

الرِّمَال أقلّ حرارة. أعضاء جسدي المرتخية ثقيلةُ الوزن. أُحِسُّنِي جَسَدَ الكثيب. نُشَكِّلُ معاً جَسَداً واحداً. تغمرني نشوةٌ سُرْعَانَ مَا تُضيّق عليّ الخِنَاق. انحلّت أحشائي، اليأس الذي كان، لحد الآن، مطموراً، أَمْسَكَ بِخِنَاقِي. أَحْشُرُ وَجْهي في الرمل، أبكي في صمتٍ وأَنَامُ. لا أنام إلاّ قليلا. أرفع رأسي بعد دقائق قليلة، أَفْرِكُ جبهتي وَجَفْنَيَّ وَوِجْنَتَيَّ، وأسقطُ دُمُوعي في الرَّمْل. القليلُ من النوم الذي يهجُمُ على إهمالي في كَنَف الكثيب يُلْبِسُنِي ثياباً جديدة، ويمنحني انطباعاً بالامتلاء. الكثيبُ هو السّرير الذي آتِي إليه من أجل أن أجمعَ، من هنا وهناك، بقايا المستحيل.

بَريقُ الغروب اختفى. غرقت السماءُ في ظلام المساء. أَنْزِلُ من جديد، هادئةً، متفَكِّكَة شيئاً مَا، ولكني مُسْتَعِدَّةٌ لمواجهة حياة الأسفل والأَرَق.

هنا

مَجَلاّت السفر تَتَرَاكَمُ على طاولة غرفة النوم. كأس ماء موضوعةٌ على مقربة، ورأس السرير مرفوعٌ. أتردد في الاختيار ما بين هذه المجلات وبين عددين من مجلة «الطبيب المُعَاصِر» مُكَرَّسَيْن للنوم. انتهى بيّ الأمر إلى أن أطفئ الضوء وتوسّد وَسائدي، متكئةً عليها، مفتونةً، قبل كلّ شيء، برؤية الحديقة في ليلة كان البدر فيها مكتملاً. لم أغلق الشبابيك الخارجية كي يتسنى لي التمتّع بهذا المَشْهَد. الوَمَضات البيضاء تُضيءُ الغرفةَ والسرير. شجرة اللوز المُزْهِرة الموجودة بالقرب من الكوة الصغيرة المشقّقة تبدو كأنها بلورتْ حزمة شرر، دافِعةً إلى الظلّ النخلة المُجاوِرَة. القِسم الأعلى من النخلة يُشَكّل سديماً ساطعاً يعُجُّ بترصيعات نيليّة اللون وليلكيّة على أغصان الكُوبَلْت. أشجار النَّخيل الموجودة في الجانب الآخر تبدو وكأنّهَا أيدٍ كبيرة محكوم عليها بالعذاب تمتدّ نحو هذا البهاء المُتَوّج بهالة.

العينان تُتابِعان بتفصيل ساحر هالة الشمس، أُفكر في المقالات عن النوم التي قرأتُهَا في ساعات متأخرة من الليل، البارحة. وفيها يقوم كُتّابُها بِتَشبيه مع ارتجاجات الجَنين، هذه الحالة الزلزاليّة التي

تُحِسّ بها الأُمُّ بِالنوم المُوهِم بالتناقض. باحثون آخَرون يرون بأن هذه الارتجاجات الصغيرة جداً التي يمكنها أن تكون الاندفاعات الأولى في نظام مجهول يَرْبط، عبر النوم المُوهِم بالتناقض، كلَّ فردٍ مع نفسه ومع جنسه، الجنس البشري، في نظام يُبرْمِجُ التصرفات المُسَجَّلَة في الجينوم من قبل تاريخ الأسلاف بالنسبة للفرد. أنْ يستطيع النوم المُوهِم بالتناقض أن يُصلِحَ ما بين الكائنات وبين نفسِهَا، لا بأس. ولكنّي، أنا الطبيبة السريريّة، أَمْنَحُ كثيراً من الأهمية للإرادة وللاستيقاظ المتوثِّب، والدفاعيّ والخلاّق، تحديداً. إنّ الكائنات تُوَضّح جِنْسَهَا، بالشكل الأفضل، في بذل المجهود أكثر مما تحققه في الهجران... ولكن إذا كانت مِنْ فكرة لم أتقبلها أبداً فهي أن تكون التصرّفات مُبَرْمَجَة بنفس طريقة الأمراض الوراثية! إنّ تقدُّمَ علم الوراثة يمنَحُ أجنحةً للأطروحات الحتمية. بل يمكن حتى الوصول إلى اكتشاف جينة مُشْتَرَكة بين كلّ القتلة.

أُثبّتُ قدميّ في السرير، أملأُ عينيّ بِمَجد شجرة اللوز، كي أضعَ حدّاً لِشَتْم هذه النظريات التي تنفي قدرةَ الكائن البشري على التخلص من مَآسٍ ومن غيتوَات.

عيناي مسلَّطتان، دائماً، على حديقتي، أعودُ إلى الهواجس التي تسكنني منذ الصباح: كيف يمكنني قضاء الصيف بدون مركب شراعيّ؟ فقد تمدّدت النهارات. وهذا النهارُ الربيعيُّ قَوّى من رغباتي في البَحر. أعرف بأني سأفتقد القارِبَ بشكل رهيب.

منذ سبع عشرة سنة، وأنا أقضي كل صيف في البحر. في كورسيكا، سردينيا، إيطاليا، إسبانيا، صقلية، تونس، اليونان، تركيا... عِلاوةً على أننا في القارب، وبمجرد أن تختفي اليابسة في

الأفق، نُحِسّ بأننا في نهاية العالَم. هذا ما أعشقه. الوصول بسرعة إلى نهاية العالَم. التَعَبُ وهمومُ الحياة سرعان ما تُطفئها وفرة البحر. في نهاية العُبور ليس لدينا هاجِس العثور على فندق، نَنَامُ في مِرساة في خليج صغير. في الصباح، ألقي بنفسي في الماء وعيناي ما زَالَ النومُ يُدغْدِغُهُما، أتناول فطوري على غناء الزّيز، في مواجهة بانوراما الأرض البائرة والحرجية. الكتابة عن الصّحراء على سرير البحر. . . كل سنوات التَرَحُّل البحري هذه ثَبّتَتْنِي في اكتشاف البحر المتوسط الذي أعتبره بحري الشخصي. والآن أعرفُ هذا البحر بشكل عميق. . أنا محتاجةٌ إلى اكتشافات وإلى زيارة أقطار قَصِيَّة جدّاً. سأذهبُ، هذا الصيف، إلى «سريلانكا» وإلى «المالديف». ثمّ أعودُ إلى عادتي، إلى التَوَاجُدُ وحيدةً في مجهول له ما يُشبِهُ الدّوخة. إحساسٌ يجعلُ دوخةً معتادة تصعَدُ فيّ. في نهاية الأسبوع المقبل، سأذهب لشراء أدِلّة للسفر وتهيئة هذا الرحلة. هذه الفكرة المنظورة تسحَرُنِي.

مُسَلَّمَات المجلات الطبيّة تعودُ لتَصدِمَ في رأسي الكليشيهات التي تُقارِن ما بين النوم في قارب وسعادة الجنين في سُخْدِه. لم أُصَدِّقْ أبداً هذه الفكرة عن رفاهية الجنين. بلْ يبدو لي أن هذه الفكرة من أكثر الأفكار إثارةً للشبهة بِكُلّ ما تَحملُه من روائح (كريهة) للأخلاق. كيف يمكن أن نُقارِبَ ما بين الحرية القُصْوى التي أُحِسُّهَا في القارب وما بين حالة التبعيّة الكلية للجنين؟ إنّ اندماج الجنين المثاليّ مع أُمِّهِ ليس إلاّ عُضوياً. أما الإحساسُ فلا يوجد فيه إلاّ حالَة البذرة –فيما يخصّ الجنينُ فالأمر طبيعيّ.– أيّ

بهاء يمكن أن نمنَحَهُ للإحساس بدون التعلّق بالموضوع وبدون الموشور وتشبيح العقل؟

هناك، كثيراً ما سمعتُ نساء حوامل وهنّ يتأوّهْنَ ويَتَرَجَّين اللهَ أن تحمل الأجنّة التي يَحْمِلْنَهَا أعضاء جنسية ذكورية - وهنّ يَدْلَكْن بُطونَهُنّ، وعيونهنّ محلّقة بسبب تضرُّعِهِنّ. أقولُ لنفسي، الآنَ، بأنه كان يوجد ما يُوصِلُ هذا القلقَ للأَجِنّة، لكل الأجنة، بغضّ النظر عن جنسها، على افتراض أنها ما زالت لا تمتلك الوعي، في هذا المقام. في هذه الشروط، ما الذي ستُحِسُّ به الرضيعات وهنّ يتقابلن مع وُجوه الوأد والدفن التي تَستَقْبِلُ صَرْخَتَهُنّ الأولى؟ فضلاً عما سيحملُهُ هذا التذكار التدشيني، إذا كان مِنْ وُجودٍ لهذا التذكار. وعلى كلّ حال فإنّ أصوات اللواتي حَضَرْن أثناء الولادة، من الأمّ والجَدَّة الخالات والعَمّات سيأخذن على عاتقهنّ، لاحِقاً، بأن يُكَرّرْن لتلك الفتَيات، باستمرار، صَدَماتِهِنّ مع أنفسهنّ من أجل أن يُدْخِلْنَ في رؤوسهنّ الشعور بالضعف والدونية. سمعتُ هذا الهمس المُتَسَلِّم وهو يحكي لي، مرات عديدة، عن خيبة وِلاَدَتِي. لاحِقاً حضرتُ كثيراً من المحكيات والمَشَاهِدِ التي تُهَذِّبُ مخَالِبَ فتيات أُخْرَيَات. هذه الترنيمة القديمة لأصواتٍ نسائيّة هي التي تسكنُنِي. هذه الترنيمة تُصدِرُ مثل هذه التضحية التي تَنْتَصِبُ كَواجبٍ مُطْلَق ومُمَسْرَح. إن النساءَ يدفعن، بشكل يوميّ، مثل هذا الثمن للحياة ولانسجام عائلاتهنّ ولِقَبيلَتِهِنّ. وهو ما يُغَيّر من شكل معاداتهنّ، ويجعلهنّ خَطِرَاتٍ في نظري. أنا أعرفُ رُدُودَ فعلي للإهانات والشتائم الذكورية التلقائية والأقلّ تعذيباً، لأنها كانت شتائمَ، تحديداً. ولم يكن فيها هذا الكمّ من التّنَازُلات التي تستطيعُ أن تُدَمِّرَ

عَبْر الشعور بالعجز الذي تُوَلِّدُهُ أو تُطَوِّعُه، والذي تستطيع، بِمَكرٍ، أن تُعِدَّهُ للاستسلام عبر هذا الابتزاز العاطفي الفظيع للأمهات: إذا لم تفعلي مثلي، فأنت تُنْكِرينَنِي وتقتلينني!

يَعود إلى ذاكرتي كل ما اعتبرته، دائماً، دورةَ قُوّةٍ استثنائية، وأنطلق في ضحكة مدوّية. كم من نساءٍ وجدنَ أنفُسَهُنَّ حاملاتٍ، والزوج إما غائبٌ وإمّا ميتٌ، وإحصاء الشهور ليس بإمكانه أن يمنحهُ الأبوّةَ، صَرَّحْنَ، مع ذلك، بِلاَ حياء بأن الجنينَ - الذي صُوِّرَ، بالتأكيد، في زمن الزوج، وكم يمكنه أن ينشأ من دون هذا المشوار؟- نامَ زمناً طويلاً في بطونهنّ! قبل أن يتفضّلَ ذات يوم فيستيقظُ ويُواصِلُ نُمُوَّهُ. لقد اعتبرتُ دائماً مضحكةً أسطورةُ هذه الأَجِنَّة التي تستطيع أن تُوقِفَ نُمُوَّهَا شهوراً بل سنوات ثم تُعاوِد النموّ حسب إرادة نَزَوَاتِهَا. المُعجزةُ تتمثل في عدم وُجود من يُشَكِّك في هذه القدرة غريبة الأطوار لبعض الأَجِنَّة في فَرْط الأرَق. قرونٌ من الأجنة النائمة ضَمِنَت البقاء. تَشَاءُ دِقَّة الفكر أن تكونَ الصَّدْمَةُ التي يُثيرها الرحيلُ أو موت الأب-أحيانا صدمة من نفس المدى - هي التي تُوقِفُ التطوُّرَ العادي للحمل. كلُّ اللواتي كنّ خائفات واللواتي كنّ يَخْشَيْنَ أن يَقَعْنَ، ذات يوم، في شَرَك الإغواء. واللواتي كانت الرغبة في كائن آخَر تُعذبهنَّ، كنَّ يُسرِعْن في التأكيد، بمجرّد الغياب المؤقت أو النهائيّ للزوج، بأن طفلاً نام في أحشائهنّ. يا لها من خدعة جميلة! ولكن بماذا يمكن أن نفسّر كونَهُنَّ استطعْنَ أن يحتشدن كلَّ الرِّضَى في بلدان يأخُذُ فيها الارتياب في الخطأ مكانَ حُسْن النيّة والحفاظ على الشرف؟ من تكون هذه

الشَّهْرَزاد الأخرى التي كانت خلف هذه الخرافة التي يَتَوَاصَلُ تَدَاوُلُها، بلا رَويّة، والتي تُواصِلُ إنقاذَ حياة العديد من الأمهات ومن الأبناء؟ إنّ هذه النساء يُظْهِرْنَ عطفاً ومحبة خَاصَّتَين نحو هؤلاء الأطفال، الذين يدعونهم بالنائمين. وهي تسمية أقلّ إيذاءً، بكلّ تأكيد، من تسمية اللقطاء.

حينما كنتُ صغيرةً كنتُ أقول بأن الطفل النائم يأتي، بكل تأكيد، من سرير واقف. وأنا أيضاً، بالتأكيد، كنتُ سأنام بشكل أفضل، لو كنتُ وُلِدْتُ من خلال أرابيسك سرير راقِص.

وجهان أو ثلاثة وجوه لِسَيِّدات الغفوة هذه، تَفْرِضُ نفسَهَا على ذاكرتي. أستَمتِعُ باستعادة مختلف قَسمات قِنَاع الكرامة الذي يستطيع بسرعة كبرى تثبيط عزيمة كلّ تَهَجُّم، وأغْفو في سكينة دون أن أفتح كتاباً. يَجِبُ أن نعترف أنّ هذه سلطة تلك الشيطانات، اللواتي أَنَمْنَ أجيالاً من الحَرَس المُسَمَّرين بفضيلتهم وجَمَّدْنَ على لسانهم سُمَّ نساء أُخْرَيَات– وهذا الإنجاز الأخير يرقى إلى ما هو مُقَدَّس– تصل إلى درجة بحيث إنها تستطيع أن تُمَارِسَ ولو من بعيد وفي ليلةٍ، قَمَرُها في اكتمال.

هناك

عرفناه حالاً. هذه المرة لا يتعلق الأمر بريح رملية. ريح الرمل تثقب الأفق وتَتَقَدَّمُ في حُمْرة مُنْتَشِرَة، في ضباب من الغبار. الإعصارُ، هو الآخر انبَثَقَ من أعالي السماء عَبْر انتفاخات عملاقة، سوداء، يزيد الشفقُ من اشتعالها. يبدو أنّ الأزرقَ انتهى به الأمرُ بالتحطُّم والتكسّر بِسَببِ عُنْف هذا الإعصار، والذي يَنْتَشِرُ في فيضٍ من الدم، ويتأهّبُ لِتَجْليط السّماء على الأرض.

لم تُمْطر السماءُ منذ أكثر من أربع سنوات.

أَطْبَقَ، في البداية، صَمْتٌ مؤثِّرٌ. مثل بُهْرٍ فضائيّ. تَوَقَّفَ الكلُّ في شوارع المدينة، الرؤوسُ مرفوعةٌ. النساء خرجن في الساحات، صامتات. وُجُوهُهُنَّ وأجسادُهُنَّ وأعصابُهُنّ تَتَمَدَّدُ. الكلُّ أصبح في أزمة أعصاب قِرِمِزيّة تَنْدَلِعُ، أخيراً، في عواصف رعدية.

سقط الطوفانُ مع وصول الليل. دُرْنا وجُلْنا، لفترة طويلة، تحتَ الإعصار المائيّ قبل أن نُقَرِّرَ الدخول إلى بيوتنا.

بعد انتهاء ساعتين، كانت الأمطار تتهاطل داخل المنزل، تقريباً، بمقدار ما كانت تتهاطل في الخارج. المكان الوحيد الذي ظلّ ناشفاً هو المكان الذي شيَّدَتْه، من موادّ صلبة، شركةُ مناجم

الفحم الحجري في منقطة وهران، وهي الشَرِكة التي تُشَغِّلُ وَالِدِي. وهو يُوجَدُ بالقُرب من منزلنا وشَاغِرٌ، ولذلك فَنَحْنُ نَضَعُ فيه الماعز والغَنَم، مساءً، ساعةَ عودة الرّاعي.

نلتجئُ إليها مع عائلة أخرى قريبة. البالغون يهيجون ويضطربون ويُثَرْثِرون. يتحدثون عن السيول التي تَتَوالَد وتَكْبُر وتبدأُ في التّسَاقُط كالشَلاّلاَت. يرتجفون من فكرة أنّ المياه لن تتأخّرَ في أن تغمُرَ الوديان وفي التَدَفُّق والانفجار والتّلاَطُم. كَمْ من الرُّحَل، الذين تتلَخّصُ حياتهم في البحث عن الماء وفي الخوف من العطش، تَحْمِلُهُم ويَبْتَلِعُهُمْ هذا الجحيمُ السائل؟ المَطَرُ لا يتفضَّلُ بِمُلاَمَسَة هذا الجَمَاد إلاّ مِنْ أجل اجتياحِهِ. ما بين هذه السماء وهذه الأرض لا شيء يَحْصُلُ دون إفراط. ثُنائيّة قديمة العهد تُصِرُّ على تصفيح انتظارات البشر الأوليّة. حين لا تتسبَّب في إزهاق الحياة.

هذه الاعتبارات المُقلِقَة لا تُعطي الانطباع بأنّها أضَرَّتْ بِمَرَح أَحَدٍ. ربما ليس لها من هدف سوى المزج ما بين التوسُّل والرّعب من أجل زيادة الاغتباط. خَليطٌ من الأجساد نصف مستلقية على حصيرةٍ مُلْقَاة على فراش سميك من رَوْثِ الماعز والغنم، البالغون يَتَلَذّذون حين تُغَطّي زخّات قوية كلامَهُم المُتقطّع. نِيَة قضاءِ الليل، ملتصقين بهذه الطريقة، ليس آخِرَ الملذّات.

الليلُ يَتَدَحْرَج، غريباً، في الظلام. كلمات جدّتي أيضاً. في هذا المساء، استفادت الجدةُ من مستمعين كُثُر. من حظٍّ غير مُنْتَظَر للمناسبات. تحكي عن «طارغو» Targou، هذَا الشَّبح لامرأة تسكن ليالي الصّحراء، مُتَخَفّية في مظهرِ رَجُل، وتبذل قُصارَى جُهودِهَا

لتَضليل الرُحَّل والمسافرين السَّاذَجِين من خلال التوسّع في تعليمات مغلوطة.

قبيل هذا بِعِدَّة أيام، في المدرسة، ساهمتْ مجموعةٌ من دروس الإملاء ومن دراسة النصوص، ومن القراءات والتفاسير من طرف المُدَرِّسَة في جَعْلي أتَنَاوَلُ مُؤَلَّفَات «إيزابيل إيبرهاردت». مُدرِّسَتي امرأةٌ استثنائيّةٌ... في كُلِّ الأقسام الأخرى، لم تَقُم القِرَاءَاتُ ولا الإمْلاَءَاتُ إلاّ في التحدُّثِ عن فرنسا. كنتُ فيما مضى قد سمعتُ، بِشَكلٍ غامِضٍ، عن هذه الرومية[10]، «إيزابيل». كَلِمَاتُها الخاصّةُ بها جسَّدَتْهَا بِسُرعة، وأضفتْ عليها شيئاً من اللغز ومن طابع مميز. كلمات من لغة أخرى تَصِفُ، ليس فقط، الصحراء، وإنما قريتي وبشكلٍ خاصّ كَثِيبِي. كلُّ هذا أصابَنِي بالذُّهُول. ثم هناك السيد «كروز»، رئيس مُقاوَلة الفحم الحجري في منطقة وهران، منحني كتاب «الأمير الصغير». الكتابُ حكايةٌ جميلةٌ. توجد في الكتاب فقرةٌ أَثَارَتْنِي تتعَلَّقُ بِجُذور وأُصول الرُّحل: «أين ذهب الرّجالُ؟»[11] يسأل الأمير الصغيرُ الزهرةَ الوحيدةَ التي التقاها أثناء عبوره للصحراء. «زهرة بثلاث تويجيات. زهرة تافهة. - لا نعرف، أبداً، أين يمكننا العثور عليها. الرِّيحُ تعبثُ بها. إنها تنقُصُها الجُذورُ، وهذا ما يُربِكُها بشكلٍ كبير.» تُجيبُ الزّهرةُ. انتفضتُ وأوشكتُ أن أُلقِي بكتابي. أقنَعَتْنِي جدّتي دائماً بعكس هذا. «إننا لسنا نخلات كي نحتاج إلى جذور. نحن نمتلك سيقاناً كي نتمشّى ونمتلك ذاكرة

(10) تقصد المسيحية.

(11) راجع ترجمة رواية «الأمير الصغير»، التي قام بها المترجم[محمد المزديوي]، والصادرة عن دار الجمل، ثم عن «دار البراق» الباريسية في طبعة ثانية.

كبيرة جداً!» قلّبتُ جَوابَهَا مرتين أو ثلاثاً في هياجِ قُحْفي قبل أن أواصلَ قراءتي برأفة. «مسكينة الزهرة. تنقُصُها بعضُ التويجات. الرّيحُ، من دون شكّ. ثمّ إنّ زهرةً في الصحراء...» غيرَ أنّه على الرغم من حفيظتي التي أضمرتُهَا تجاه سانت إكزوبيري، فإنّ تأمّلي للكواكب تعرّضَ للاضطراب. ومن حينها، سَكَنَ النجم نَظَرُ وهذَيَانُ عفريته. أما أنا فقد كنتُ مسكونةً بالرغبة في أن أُصبح رائدة فضاء، وفي مُلاَمَسة الفضاءات. كنتُ مستلقيةً على الأرض، يَدَاي تحت عنقي، والقَلَقُ يُضايِقُنِي. بعد التحليق، أي فضاء يُمكنني أن أترَجَّاهُ أنا؟ أَلاَ تُخَاطِرُ السماءُ بأنْ تَهْوِي على وجهي كَمَا الأغطية التي أَهْرُبُ منها؟ أثناء النهار، هذا ما أراه. السماءُ، أثناء النهار، ليست سوى غِطاء مصفوق على عَدَمِنَا. ظَلاَمُ الليل يُذَوِّبُهُ، يصقُلُ آلافاً مُؤَلَّفَة من الفوانيس ويفتحُ الكونَ على الخيال... ورداً على كلِّ جواب فإنه يبدو لي بأنَّ دَرْبَ التبّانَة يَتَمَدَّدُ ويَتَثَاءَبُ ويشخر في وجهي.

فيما يخصّ «إيزابيل»، فقد وصلتْ عَلى ظَهْر جَمَل بِمُحاذاة الكثيب. لم تأتِ من السماوات. لقد وصَلَتْ بعد أن عَبَرَت سهولاً حَصَوِيَّة ورِمالاً بِكلماتٍ مثلَ كلماتِنَا. لقد بدا لي أنَّ الصحراء تشبه رواية مكتوبةً من مَحكيات جدتي. هذه المُسافِرَةُ تثيرُ حيرتي ما دمتُ أنهمكُ في كثير من الأحيان في الحُلم بها. أحياناً يَصِلُ بِيَ الأمْرُ إلى تَصوُّر لَمح شَبَحِهَا في طَرَف أشجار النخيل. قرأتُ النَصَّ الذي كتبَتْهُ هنا، في «قنادسة». كتبتْ: «القصر» يبدو لي وكأنَّهُ شُيِّدَ من أجل عَيْنَيَّ، أَعْشَقُ فيه اللونَ... أجهلُ لماذا يبدو لي وكأن «القصر» عُمِلَ من أجل عينَيْهَا. أنا، بالأخرى، أَجِدُ لونَ الحيطان الأحمر والأسمر حزيناً. يَمِيلُ في بعض الأمكنة إلى البنفسجيّ الأرجوانيّ. بالإضافة

إلى ما كانت هذه المرأةُ تكتبُهُ، فإنّ ما كان يَفْتِنُنِي، أيضاً، فيها هُوَ تنكُّرُها في ثوب رَجُلٍ وهو ما سَمَحَ لها اجتياب آفاق الصحراء.

ماتتْ «إيزابيل» غريقةً في سنة 1904، أثناءَ نومها، مِنْ جَرّاء فَيَضان وادي «عين صفرا»، على بعد مائتين وخمسين سنة شمالاً من هنا. كانت قد غادرتْ «قنادسة»، للتوّ، بعد إقامة عدة أشهر في «القصر».

مُمَدَّدَةً على الحصيرة ما بين صمت جدّتي، وهي مستسلمة لـ«طارغو» Targou، وهَدِير المياه، في سُبَاتٍ بصدد الاستيلاء على كل مَنْ كان في المجلس، فكرةٌ بدهِيَّةٌ استولتْ عليَّ فجأةً: «طارغو»، الشَّبَحُ الذي يُحَيِّرُ، هي إيزابيل! أن تكون أسطورةُ «طارغو» سابقةً لأسطورتي، فهذا لا أُخطِئُ فيه. هذا الشَّبَحُ ليس إلاّ بَدْلَة أُولَى، تَنَكُّراً مختلفاً من أجل صحراء أخرى للزمن. حيلة ليليّةٌ كي لا أنام وأموت؟ ثياب رثّة من أجل الأَرَق الذي هو البقاء على الحياة؟ ها هو التِرْياق، تحديداً، للرُّقى المُؤذِيَة المقترنة بثياب النوم والكَفَن.

أَجْلِسُ، يَنْخزُنِي هذا الكشف.

هنا

تَلَقَّيْتُ دعوةً. في الليل تأتيني كلمات الهُنَاك لتسْتَقِرَّ على سريري. سريري مَرْكَب «نوح» مِنْ أجل هؤلاء الناجين غير المُنْتَظَرِين. مِثْل طيور مُهاجِرَة، فإنهم يخترقون الصحراءَ والبحرَ والحروب والسنين والقطائع والخلافات، ويَصِلُون عندي مَسلوخين وخائري الأنفاس. ولكنهم يتَغَطْرسون من تأثري، ويستعيدون، بسرعة، تأثيرَهم وسطوَتَهم ويَسْكُنُون سَهَرَ لَيَالِيَّ. إنَّ أَرَقِي معمول من أجل هذا. حتى من أجل إخراج الكواسر من مَكَامِنِهَا تحت تغريدات ساحِرَة.

كنتُ مَدعُوَّةً. عثرتُ للتوّ على هذه الكلمة في كِتاب. من المَدْعُوَّةِ المُتَخَنْدِقَة في غرفة محظورة على الأبوين، أَنْتَقِلُ، بِشَكْلٍ غير محسوسٍ، إلى دعوة الكاتب في بَلَدِهِ. أَضَعُ الكِتَابَ، وأترك نفسي تَسْتَسْلِمُ لهذا التّذكار. حدث هذا في سنة 1990. كانت روايتي الأولى «الرجال الذين يمشون»، قد حصلتْ للتوّ على جائِزَة مِنْ طَرَف مُؤَسَّسَة[12] أدبية تشكلت في الجزائر. «نور الدين أبا» وهو

---

(12) مؤسسة نور الدين أبا.

رَجُلٌ عجوزٌ ذو صوت دافئ، هاتَفَنِي من الجزائر. حين أقفلتُ سمّاعة الهاتف انهمكتُ في البكاء، بالرّغم من أنني لا أبكي عادةً. فالاضطرارُ بِشَكلٍ مستمرّ إلى صَكّ أسناني ثَبّتَ غُدَدِي. إنّه دفاعٌ وحصارٌ. البكاءُ، في النضالات الفردية، يعني التخلّص من الذات. منح الذّات كَفريسة. تَصَوّرتُ عن نفسي صورة مغلوطة، يمكن اختزالها إلى صورة الضّعف والاستسلام. دُمُوعي لا تَتَفَجّرُ إلاّ من أجل تخليدِ انتصارٍ تمّ تحقيقُهُ بِسُوء نية. لذّة الشّقاء ما زالت تشكل جزءًا من عجزي. وهو عَجزٌ يُكيّسُ عُقُوبةً لم يتمّ قضاؤُها. منذُ أن بدأتُ الكتابةَ وأنا أَمْنَحُ نفسي جسدياً، لِكُلّ الانبثاقات، وأُحَاوِلُ أن أُصْلِحَ نفسي. الكلماتُ تَحْمِلُ، أحياناً، زَفِيرِي دون أن أُغشّي بصري. أَبْتَلِعُ رِيقِي مرات عديدة، ولا أَنْجَحُ في ترطيب الحنجرة. يُوجَد فقط هذا المَغَصُ الذي يضغط بِقُوّة على بَطْني ويَحُدُّ مِن نَفَسِي. مُشْكِلة مستعصية حتى على الكتابة. الكلماتُ لا تستطيعُ فِعْلَ شَيْءٍ ضِدَّ هذا الصّمت المدفون. ثم إنّ الدُّموعَ تجعلني دميمة جداً. بعضُ هذه الدموع كافِيَةٌ لِتَشْوِيهِي. جَفْنَاي يَصِيرَان مُتَوَرّمَيْن بِشَكلٍ فظيعٍ. وهذا السبب راجعٌ رُبَّمَا إلى حساسيتي من الدموع.

قُمتُ بإرسالِ كِتَابِي إلى الجزائر العاصمة عن تحدّ. ولكن دون أوهام كبيرة. لَمْ تَكُنْ لديَّ، أَبداً، أيّةُ جاذبيّة – وأنا هنا أُلَطِّفُ من كلمة جاذبية– لا تجاه الجزائر العاصمة ولا تجاه شبابِهَا الذي يُفْتَرَضُ أنّه ميسورٌ ومَزْهُوّ. فقد فضّلتُ عليها دائماً مدينةَ وهران الآهِلَةَ بالسكان، هذه المدينة الساخرةُ والضاحِكَة وغير المُحْتَشِمَة. موسيقى «الرّاي»، التي تعرّضتْ لاحتقار طويل الأمد في الجزائر العاصمة، التي تَصْدَحُ من رصيف إلى آخر، والتي تُخالِطِ سفلة الناس، وتنزع

وصلة الشوارع، حانات المُومِسات والشِّجَارات، صبيان الأزقّة الذين يبحثون بعضهم عن بعض، شبيهات «دليلة» اللواتي وجدن بعضهنّ بعضاً، الزوايا في «كالونتينا» التي تُجبّصُ الحُنْجُرَة والنَّفَس... إنسانية هجينةٌ حيثُ البوهيميون والمعوزون يُحِسّون أنفُسَهُم غيرَ مطرودين. ينتابنا الانطباع بوجود عاصمةٍ للمحرومين وأخرى للمُلوك. وفيما يَخصني فقد أُطْلِقَ عليّ لقبُ المَلِكَة. لا دَخْلَ لي في هذا القرار. إنّ إطلاقَ ألقابٍ جميلة على الفتَيات كي يَنْخَرِطْن، بِشَكلٍ أفضلَ في حياةٍ تستعبدُهُنّ وتحُطُّ من قدرِهِنّ، انحِرَافٌ منتشرٌ جدّاً في البلد. إضافة إلى أنني أُحِسُّني ساحِرةً أكثرَ مما أُحِسُّنِي مَلِكَة، في طَرَف عَصَايَ بعض الكلمات الساحرة: لِمَ لا؟ ربّما!... بفضل هذه الكلمات فإنّ كلَّ شيءٍ يمكن أن يأتي أو يختفي بومضةٍ واحدة.

مجرد تحدّ، وها هي لجنةُ تحكيمٍ، مُشَكَّلَةٌ تقريباً، بشكل حصريّ من الرّجال، تَهْتِفُ لي وتُنادِينِي. صوتُ هذا الدراماتورج والشاعر «نور الدين أبا» شَقَّ ثغرةً هامّةً في تَصَوُّرِي الضيّق عن العاصمة الذي ولَّدَهُ اليأسُ وأشكال الظلم وتنكيد بَلَد. أبكي وأنا أُمَرِّغُ أنفي في وسادتي وأظهر حقداً وغضباً كبيرين على نفسي وَاصِفَةً نفسي بالحَضَرِيّة البسيطة والطائشة، لكنْ من دُونِ أَثَرٍ يُذْكَرُ. في سريري، هذا المساء، بَلَدٌ بأكمله يحضنني.

«طاهر جاعوت» وأنا قمنا بِتَدشين قائمة الفائزين في مجموعة هؤلاء المثقفين المُعَبَّئين حَوْل هدفٍ وَاحِدٍ، وهو أنّ الكتب المُتَوَّجَة سواء كانت مكتوبةً باللغة العربية أو الفرنسية، فإنّ الجائزة تتلخص

تحديداً في ترجمتها إلى اللغة الأخرى. تكسير المانوية والمساهمة في الحدّ من التمزّق الاجتماعيّ الذي تسببت فيه سياسةُ الهويّة الواحدة والتاريخ الواحد. مشروع جميلٌ. كانت جبهة التحرير الوطني، في السّابق، هي التي تَمْنَح الجوائز. ووحدَهُم موظفو المؤسسة من كان يحْصُل على مِثل هذه الجوائز. وَاحِدةٌ من المسخرات التي تمتلك الجزائر وحدها سِرَّهَا.

لَمْ أَعُدْ إلى الجزائر منذ سنة 1977. غياب دام ثلاث عشرة سنة. الأسبابُ لا يمكن حصرُهَا: الأصوليةُ وقطيعتي مع عائلتي. فعائلتي لم تَقْبَل أبداً مغادرتي للجزائر. ولم تَقْبَل أن تراني أعيش مع رَجُلٍ فرنْسِيّ. حياتي التي تَوَزَّعَتْها دراساتُ الطِبِّ ومُمَارَسَة مهنتي. إن افتقاري إلى الميل نحو الجلد الذاتي للنَّفس خلال أوقات الفراغ... ولكن صدمة أكتوبر 1988 أعطت الحياة للبلد وحَرَّكَت كثيراً من التطلعات ومن حُسن المبادرات. فبدأتُ أنا الأخرى أستَسلمُ للأَمَل.

قَدِمْتُ إلى فرنسا سنة 1977 من أجله، من أجل الرجل الذي افترقتُ عنه للتوّ. ولو أنّني لم ألتقيه، كنتُ سأذهب إلى كندا. في الجزائر، كان اختياري الأول من أجل هذه الصحراء البيضاء. أمّا فرنسا فقد بدتْ لي مُوغِلَة في القرب. قربٌ جغرافيٌّ، عَزَّزَهُ تاريخٌ مُشتَرَكٌ. لم تكن عندي أدنى رغبة في معاودة مشاهدة المظاهرات العنصرية، وتمزقات الحرب. قلت في نفسي، أيضاً، بأنّ التغرّب الكبير وَحْدَهُ من يستطيع أن يُهدِّئني ويُضمِّدَ جراحي. في هذا المرور تَلَقَّفَنِي هذا اللقاءُ. فأصبحتُ مدْعُوَّةً في بلد الحبّ. كانت هذه

الأرضُ، تحديداً، قد بَاشَرَت التودّد منذ طفولتي، هناك. فقد دَعَتْنِي، في البداية، إلى أمكنة خارج الكلمات، في لغة أخرى، في أحلام وَرَقِيّة، في حكاياتها الممنوعة. أيّ شيء طبيعيّ من غنيمة الحرب[13] المُتَراكِمَة ينتهي بها الأمر بِأَنْ تُشَيِّدَ لي قلعة صغيرة للحبّ؟

كنتُ قد غادرتُ الجزائر مفلسة تماماً. لم تكن تهمُّنِي إطلاقاً المِنَح الدراسيّة التي تُمَوِّلُ الدّراسات العليا في الخارج. فمن الأفضل لي أن أشتغل طبيبة ليلية وأَنْ أتقاضى مرتّباً غيرَ معلن. الأفضل ألاّ أَدِينَ بشيء لهذا البلد. لا شيء. كنتُ أعتقدُ أنني أكرهُهُ كما اعتقدتُ أنني أكره أُمّي.

قادني الحُبُّ، في فرنسا، في زَوْرق، على سرير البحر، في ضياء صحراء زرقاء. في كلّ صيف، كنت أُفضّلُ إخفاء الحنين باللازورد، تاركةً نفسي أتَمَتَّعُ بِمَبَاهِجِ عبور البحر بَدَلَ أنْ أتَحَمَّل أصواتاً حاقدةً مُغْرِقَة في الظّلام من كلّ الأنواع. ولكن أن أعود إلى بلدي وأحظى بهذا الاحتفال كَكَاتِبَة، فلم يَخْطُرْ لي على بال.

كانت كلّ الصحافة الفرانكفونية، على كثرتها، حاضرةً في هذه اللحظة، لحظة تسليم الجوائز في فندق «أليتي». وحتى مبعوثو صحف ناطقة باللغة العربية التقدمية كانوا حاضِرين. كانت مجموعة

---

(13) غنيمة الحرب: تعبير لكاتب ياسين بخصوص اللغة الفرنسية. (ملاحظة من الكاتبة).

من النساء الجامعيات حاضرات، وأصبحت بعضُ منهنّ صديقات لي فيما بعد. وحْدَهَا التلفزة، الخاضعة لِنَيْر الدولة، قَاطَعْتْ هذه المُبَادَرَة. خلال عدة أيّام، كانت صُوَرُ «جاعوت» وصُوَرِي وبورتريهاتنا وأحادِيثنا الصحافية كانت منشورة في كل الصُّحُف، وغالباً في الصفحات الأولى. في نهاية الأسبوع كان الحدث قد أخذ أبعاداً هامة بحيث إنّ التلفزيون وَجَدَ نفسَهُ مضطَرّاً إلى أن يُقدِّم مُلَخَّصاً عنه. ولكني كنتُ قد التحقتُ بمدينة «مونبوليي». تمّ إرسال بعثة إلى الصحراء لتصوير وَالِدَيَّ. وكانت المعجزة أنّ والِدِي سمح لأُمِّي أن تجيب عن سؤال أمام الكاميرا: «ما الذي تشعُرِينَ به إزاء تحول ابنتِكِ إلى كاتبة؟» رفعَتْ أُمّي ذِرَاعَيْها، وقالت بوجهٍ مُسْتَسْلم: «ماذا تريد أنْ أقولَ، يا بُنَيَّ، لقد كان دائماً ثمَّة كِتَابٌ بيني وبين ابنتي. وحين كانت تنام، أخيراً، كانت تَضَعُ كِتَابَهَا مفتُوحاً على وجهها!»

أَقْرَأُ في السّرير في بيتي في «مونبوليي». رنَّ الهاتِفُ مرات عديدة في المساء. أصدقاءُ من مدينة «وهران» بالإضافة إلى مدير المركز الثقافي الفرنسيّ في الجزائر العاصمة تتابعوا لِيَتَحَدَّثُوا لي عن البرنامج التلفزي. لقد كان دائماً ثَمَّةَ كتابٌ بيني وبين ابنتي. إنها أجمل جُمْلة يَتَفَوَّهُ بها هذا الفمُ.

لم أذهب إلى الصحراء. ها لقد مرّت ثلاث عشرة سنة لم أَعُدْ فيها إلى بيتنا... حينما وضعتُ سَمَّاعَةَ الهاتف لم أمنع نفسي من التفكير في صاحب مكتبة «بشّار». هل يكونُ دائماً على قيد الحياة! خلال فترة مُراهَقَتِي، كان يحُثُّني: «خُذِي الكُتُب التي تُرِيدِينَهَا. فأنا أعرفُ أنَّكِ ستُعيدينَهَا سالمةً. إنَّ حَاجَتَكِ إليها أكثر أهميّة من المال.

الله كبيرٌ!» بعد سنوات من مُغادَرَتي للجزائر، قَدِمَ هذا الشخص الكريم/ الأريحيّ، وكان قد حصل على تقاعُدِهِ، في سيارة تاكسي إلى قريتنا لِيسْأل والِدَيَّ: «ماذا فعل الله بتلك الفتاة الجميلة التي كانت تعشق الكُتُب؟ -إنها طبيبةٌ، متخصصة في علاج الكلى. . . هناكَ، في فرنسا. . .» أُفكِّرُ فيه بِكَثير من العِرْفان بالجميلِ في لحْظة هذا الصَّدَى الذي تَرَكَه، في الجزائر، صدورُ روايتي الأُولى. أقول في نفسي: سَيَعْرِف أنني أصبحتُ، الآنَ، من جانبَيِ الكُتُب. وسَيَرى، عن حقّ، بأنه ساعدني في هذا المسار. أُحِسُّ بالفَخر لكوني لم أُخَيِّبْ ظَنَّهُ. مهنةُ الطبّ، الوجه الظّاهر لِلألَم، لم تكن إلاّ طريقاً مُحدَّداً ما بين القراءة والكتابة.

لَنْ تُتَرْجَمَ أعمالُ «جاعوت» ولا أعمالي إلى اللغة العربية. أَوّلُ ترجمة إلى هذه اللغة لكتابي «الرجال الذين يمشون» ستأتي بعد عشر سنوات، من بلد مجاور، المغرب(*). «طاهر جاعوت» تَمَّ اغتيالُهُ، بينما اضْطُرَّ أعضاء المُؤَسَّسَة الذين تَوَّجونا إلى اللجوء للمنفى، هم أيضاً.

الحبُّ ليس إلاّ حالة عُبُور وننتهي دائماً بأن نُطْرَدَ منها. لسنا سُعداء بالضرورة، كما يقول أحدُ كبار الأصدقاء الكُتّاب المُتشائِمين، جذلان. حين نعتقد أنّها قد طالتْ، فقَطْ لأنَّ التعوُّد ساعَدَها على النوم. أو لأنه الواجبُ. وهو ليس بالشيء الأفضل على الإطلاق.

رعشات تطعن نومي، تُوقِظُنِي بعد فترة قصيرة. أفتحُ عينَيَّ في

(*) صدرت الرواية عن المركز الثقافي العربي، المغرب وبيروت.

الظلام، فَيَعْبُرُ ذهني قَتَلَةُ «طاهر جاعوت» و«عبد القادر علولة». صدري يضغط عليَّ. ولكني أَعِي بِشَكل مُبَكِّر بأنّ هذه الارتِعَاشاَت من طبيعة أخرى، وهو أنني حصلتُ للتو على لَذَّة، وأنا نائمةٌ. هذه الرعشات لا تنطلي على أحد. فأعضاء جسدي أصابتها صدمات كهربائية. أُحَاوِلُ، عبثاً، استقصاء نفسي لأعثر من جديد على من كان صاحبي.

مُتراخيةً، أُدَاعِبُ بطني: «لا يوجد خَطَر. فلاَ أَحَد دخل في بيات شتويّ في الداخل.» إنّها فُقَّاعة من خفّة قابعة في ظَلام أفكاري. كل عَطَش لَيْلي. غريزةٌ تَرْفُضُ المصيبة كامتناع. غريزةٌ تَنْتَظِرُ أنْ يكونَ دِمَاغي خارجَ الحلبة كي تَمْنَحَنِي عشيقاً مُتَخيَّلاً. غريزة تلعب لي الجولة الحاسمة للأرق. أَظَلُّ حَالِمَةً خلال لحظة: «من هو عشيقُكِ؟ لا أملك أيّ فكرة. مَلاك؟ شيطان!»



هُنَاك

الرقم المتصاعد، دائماً، هذه المرّة، لأعضاء العائلة، لا علاقة له بالحوافز وراء توسيع المنزل. فانبثاق الاستقلال ومنظور احتفالات لا حَصر لها تَفرِضُ زيادة مكان محتشم للاستقبال، بعيداً عن الخلفية المنزلية. قاعة المدعُوّين تنفتح على بعد خطوتين من عتبة باحة المَنزل. إنّها من أكبر الغرف في المنزل. كُنّا نُطلق عليها. قاعة الضيوف. لم نكن نَعرِفُ من قبل كلمةَ «صالون». وفي غياب الضيوف كانت القاعة تظلّ مُغلقةً بِالمفتاح. لم تكن أُمّي تفتحُها إلا لكي تُنظّفَهَا وتحرص على أن تكونَ جاهزةً لِكُلّ طارئ. سجّادٌ سميكٌ يغطي اسمنت الأرضية. المخمل الأحمر والأصهب والأسمر يُغلّف مخدّات المَقَاعِد التي تمتد على طول الحيطان، مانِحاً كثيراً من الأَسِرّة الممكنة. بالإضافة إلى أن مساحة السجّاد تُضاعِفُ أيضاً من هذه الإمكانيات. مِخدّات من القماش نفسه تَتَكاملُ مع الرفاء المتواضع. طَبَق نحاسيٌّ كبيرٌ يتربع في وسط الغرفة. مثل هذا التنسيق نَجِدُه لدى كلّ العائلات التي تملك مثل هذا الرفاء. من البريق الزائف عِوَضاً عن البحبوحة. ولكنّي أُعْجِبتُ بهذا التَّرَف الذي يُذَكِّرُ بِتَصَوُّرِنَا عن السَّرير في الجَنَّة. في قراءاتي، أَثَارَتْ انتباهي

الأهمية التي تحظى بها مجموعة الأثاث والمفروشات في الغرب. وكعلامة على ماضينا كَرُحَّل ما زالوا راسِخِين، فإنّ مفروشاتنا يمكن اختزالها إلى بعض الصناديق وطاولات خفيفة تُزيِّنُها مُنَمْنَمات. هل هُوَ ارتداد وراثيّ عند أُنَاس مَشَّائين؟ البَذَخ عندنا هو ما يلي: أكبر قدر من مساحة مُعَدَّةٍ من أجل وضعية مُمَدَّدَة، متراخية، في الليل كما في النهار، على السجاديد، على المقاعد مع أَقْمِشَةٍ لامعةٍ ومخدّات. الاستسلام لأحلام اليَقَظَة ولِلتَّهْويمات. إفراطٌ في الحساسية نجدها حتّى في الأقمشة والألوان. عبر أيّ تناقض تعبرُه هذه الحضارة التي تُمَجِّد الجسد واللذّة، كي تدّعي تحريم الرغبة على النّساء، صانعات وخليلات جَنَّات عدن، ومن أطباقها المطبوخة بِعُصَارة مُنعظَات.

وها نحن نمتلك، الآن، هذا المكان الجدير باستقبال الزُوَّار. مع مجيء الاستقلال أصبح الناس يتنقلون بِسُهولة. أعضاءُ من العائلة الذين يقطنون وجدة في المغرب، أو في الهضاب العليا، قَدِموا لرؤيتنا. وحين أقول إنهم قدموا لرؤيتنا، فهذا معناه أنهم ظَلُّوا عِندنا شهراً على الأقلّ. وقد حصل أحياناً أن كان عددُ الحاضرين يتجاوز الثلاثين فرداً. إنها مَنْمَلَة حقيقيّة. ولكن هذه المناسبات، على الأقلّ، لها فَضْلُ تكسير رتابة الأيّام الجَهَنَّمِية.

في الأيام العادية، كُنّا نُواصِل تَكَدُّسَنَا، نحن البالغين ستة عشر فرداً– الجدّة، الوالدان، الإخوة والأخوات، عمي وزوجته اللذان رُزِقَا بِوَلَد– في الغُرَف الثلاث. كما لو أنه من الضروريّ استثمار كلّ سنتمتر مُرَبَّع من أرضيّة المنزل. كما لو أنه تَوَجَّبَ تَوَفُّرُ الجِدَّة

البشريّة من أجل الإحساس بأننا أحياء. الفضاءُ الفارغُ، هو الخارجُ. هو الصحراءُ. هو الموتُ.

بعد غليان هذا الصيف، خلال الليل، مُغتَاظَة من فكرة هذه الغرفة التي لا يوجد فيها أحد- وبينما كنتُ، لحد الآن، أَفرِضُ الضوءَ على كل وحدة كاملةٍ من نائِمِين مُتَحَالِفِين ضدّي عَبْر تَظَلُّمَات عادلة- أنهضُ من سريري وأذهب للاستيلاء على سرير القلعة كي أختلي بنفسي فيها. ليَاليَّ والأوقات الفارغة للقراءة وحتّى نومي تخضع لِتَحَوّلات بفضل تَخَلُّصِهَا من إكراهات ومن شعور بالذنب. في الأوقات التي لا تكون لي فيها دُروسٌ، أستطيعُ أن أقرأ طولَ الليل وأنا أستمع إلى الإذاعات الفرنسية وأَنَامُ في الصباح. فأفضلُ فَترات النَّومِ تَأْتيني في الصّباح. وهو ما يجعلُ مقيتاً استيقاظي بالقرب من الآخَرين. بمجرد أن يصبح طعام الفطور جاهزاً حتى تقوم أُمّي بالنفخ في البوق. وفي غضون دقائق يَكونُ الكلُّ وَاقِفِين، باستثنائي أَنا. أتكوّرُ في سريري الحقير على أَمَل باطل في أن يَتِمَّ نسياني، وأنْ أستطيعَ أن أَسْرِقَ شيئاً من الزمن. ولكنّ أمي لا تمنحُنِي أيّ هُدنة. وبمجرد أن تتَنَاوَلَ قَهْوَتَهَا حتّى تتصدّى للأعمال البيتيّة، فتقوم بِطَيّ كل الطبقات المُشَكِّلَة لأَسِرَّتِنَا، وتقوم بِجَمْعها. في بناءات عمودية معتمِدَة على الحائط، وتَغْسِلُ البَطّانِيّات المُلَطَّخَة بِالبُول وتَغسِلُ الحصائر بِالماء والحَلْفاء. وتَعرِضُ كلّ هذا لأَشِعَّة الشّمس، في الوقت الذي تُواصِلُ فيه غَسْلَ أرضية المنزل بفضلِ دِلاءٍ كبيرة من الماء.

لاحِقاً، حتّى قاعدة السرير، لم تنقذني من هذا الضجيج الصباحي. فَصَخَبُ الدلاء والصراخات المتكرّرة كانت عقوبةُ عدم

قدرتي على الاندماج في الراحة المشتَرَكة والمُصَنَّفَة. فَاضْطُرِرْتُ إلى النّهوض، جَفْنَاي ثَقيلان بسبب نقص النّوم وشدّة الحَفيظة.

استيلائي على هذه الغرفة أعطى الانطلاقة للحرب، التي ظلّتْ مستترةً إلى هذا اليوم، ما بين أمّي وبيني. كانتْ كلَّ صباح تَدَعُ، بصفة عَرَضِيّة، أشغَالَهَا وتُطَبِّلُ بِشَكَاسة أخلاق خلف الباب: «يا هذه! أيّتها الأمريكيّة! تُوجد أشغال بانتظارِكِ. قومي من نومِكِ!» أَتَقَلَّبُ على المقعد، وأنا أتلذذُ بِمُعارضتي للنظام الأمومي وأعجوبة الأعاجيب: وهو اختلاسُ بعض الإغفاءات بعيداً عن الصَّخَب وعن المُشَاجَرَات. القراءةُ طوال الليل والنومُ صباحاً والعيشُ بِمَعزل عن الآخَرين–على الطريقة الأمريكية– يَسْمَح لي أيضاً بالتخلّص من الأنشطة التي تَفْتَرس الأيامَ وتُرْعِبُنِي. الانقلاب التامّ للنّوم يُدَشِّنُ تَحَوُّلَ الرفض إلى مُقاوَمَة. يُرَسِّخُ من تصميمي على ألاّ أَدَعَ نفسي أَتَحَوّلُ إلى أَمَةٍ لإخوتي. فهم يقضون نهاراتهم في اللعب وفي السباحة. في المساء يستطيعون الذهاب إلى السينما. وعلى كلّ حال، فَهُمْ ليسوا فقط أحراراً، ولكنهم أيضاً مَحَلّ دلال وغنج ومُلاَطَفَة. أما أنا، فَلاَ حَقَّ لي في أيّ شيء من كل هذا. وما عليّ إلاّ أن أَخْدُمَ وأن أُذْعِن وأن أَلُوذَ بالصمت. وإخراس الشقاء الذي تُسَبّبه لي كثيرٌ من التمييزات في الحنان. إنّ كبرياءَ الأطفال، هؤلاء الملوكِ الصّغار بِالقُوّة، إذا ما أضفنا إليها تَشَدُّد الآباء يُثِيران سَخَطي. أُفَضّلُ أن أموتَ على ألاّ أقوم بأي مجهود خلال بعض التّرتيبات. في هذه الفترة، فيما أعتقد، بدأتُ أَعِي النَّظرات العدائية التي تُلقيها أُمّي عليّ، وباستمرارية لعناتها وغياب الكلمات الودودة والمُطَمْئِنَة. أَلَمْ تُوجَدْ أيّة استثناءات إزاء كلّ هذا؟ لقدْ فركتُ

الذكريات عَبَثاً، فلم أسمعْ إلاّ صلواتِ نُوَاحِهَا وأَوَامِرِهَا التي تَدُكُّ أيّامي.

أَتَشَبَّعُ من الحرية الوحيدة التي توجد بمتناول يدي، وهي القراءة. أقرأُ طوالَ الوقت. أقرأُ بِنَهَم. من الآن فَصَاعِداً، يمكنني أن أمتلك كتب بِوفرة. لا أفهمُ كلَّ الكلمات التي أقرأُها، ولكني راضيةٌ عن هذه الوضعية. الكلمات المجهولةُ هي أكبرُ آثارِ هُروبي. هي تتركني في حِلٍّ من المعنى الذي تحظى به كتابتُها ورنَّتُها، وتُسْكِرُني بِشَكلٍ أكثرَ. إنها تُمَثِّلُ كلَّ ما لا أعرفه عن التاريخ وعن الجغرافيا وعن البشر. إنّها تَنحتُ خيالي بين الحاجة وإغْوَاءاتِها. أمّا اعتيادُ القواميس والأطالس الموضوعة على مقربة مني فَلَمْ تأتِ إلاّ بشكل متأخر. أتت هذه الحاجة بمقتضى امتلاك اللغة وضرورة تفكيك رنينها في أعماقي. أنا في هذه الساعة، لا أحتاج إلاّ إلى افتراس الفضاء وجوهر الكلمات. إنّ الكُتُب أصبحت، الآنَ، مؤونتي الوحيدة. لقد افْتَقَدْتُ شَهْوة الطَّعَام.

لمْ أُعِد مفتاح الغرفة الشهيرة، بِشَكل مُبَكّر. فقد كنتُ أَصْرُخُ وأُطْلِق ساقيَّ للرّيح حين تُحَاوِل أُمّي انْتِزَاعَهُ منّي. كانت صرخاتي تكبَحُهَا وَتُكَزِّزُها رُعْباً. وباستثناء الزَّئِير كحيوانٍ جَريح تحت ضربات الموت، فإنّ الفتياتِ لا يصرُخْنَ أبداً، خصوصاً إذا كانت الصرخات عن تَمَرُّدٍ. فيما يَخُصُّنِي أنا فقد عرفتُ هذا، عرفتُ قُوَّةَ الصُّرَاخ. عرفتُ زِنَتَهُ من الفضيحة ومن المُحَرَّمَات. وفي حالة عدم الاستماع إليَّ وعدم فهمي، فإنّي أعتقدُ بأنّ الصراخَ قادرٌ على مُؤَازَرَتي. لقد قِست وَقْعَهُ في عيْنَي أُمّي، وأُعْجِبْتُ بِقُوَّتِهِ الدَّافِعَة. إنه يلويني في

مكاني وتضطرُّ أُمي إلى أنْ تتَرَاجَعَ وهي تهمسُ: «إنّ ابنتي مجنونةٌ!»

كان عليّ أن أَخُوضَ معركة بلا اسم وأن أستفيدَ من مؤازرة امرأة أجنبية، من فرنسية، وهي مديرة مدرستي، كي أستَطيعَ أن أجتازَ عَتَبَةَ ثانوية المدينة المجاورة. ففي اليوم الذي سَلَّمْتُ فيه إلى أبي مِلَفَّ القسم السادس للتوقيع عليه، كَوَّرَ أوراق الملفّ، وقذف بها إلى الجانب الآخر من الغرفة: «لا مَجَالَ أبداً للذهاب للدراسة في المدينة. لا يُمكِنُني أنْ أَقْبَلَ أن تقضي أيامِكِ بَعيداً عن حِراسَتي!» كانت المديرةُ متيقظة إلى هذا الرفض، فجاءت لرؤية والدي لحظة اشتداد الحرب، وقالت الحقيقةَ كلَّها: «السيد محمد، أنا أعتقدُ بأنّك مُقاوِمٌ كبيرٌ لأنّك بَعثتَ بأولادك إلى المدرسة. وفي كل الأحوال، يُعْتَبَرُ هذا التصرُّفُ في نظَري فِعْلَ مُقَاوَمَةٍ أكثر من كلّ المقاومات الأكثر التزاماً والتي تستَهْدِفُ عَدُوّاً مُحَدَّداً. إن خوض صراع ضدّ مُواطنين صعبٌ جدّاً. أنا أيضاً من أنصار استقلال الجزائر. وسيأتي هذا الاستقلال. غداً. في بضعة أشهر... إنّه آتٍ لا محالة. حينَهَا سَتَبْدَأُ معركةٌ أخرى. المَعركةُ المُوَجَّهَة ضدّ العقليات الرّجعيّة، وضدّ الظلاميّة. وفيما يخصّكَ أنتَ، فقد بدأتَ هذه المعركة. لقد قمتَ بما لا يَعْتَبِرُه الآخَرون إلاّ مشروعاً بعيداً. وكي تكون الجزائرُ مُسْتَقِلَّةً، بشكل كامل، فإنه يَتَوَجَّبُ على البلد إيجاد مُدَرّسيه وأَطِبّائِهِ ومُهَنْدِسيه...» بدأت يدُ أَبِي في الارتعاش، متسببة في زوبعة صغيرة في كأس شايِهِ التي كان يُمسِكُ بها وقال: «أَعِدُكِ أنّ مليكة ستواصل دراسَتَهَا. حتى ولو اقتضى الأمرُ أن تَذْهب إلى روسيا!»

الثانوية التي توجد في المدينة المجاورة، تعني فيما تعنيه قضاء يوم كامل بعيداً عن المنزل، بَعيداً عن العائلة. تحقيق حريتي. كنتُ

فتاة القرية الوحيدة التي تذهب إلى الثانوية. كنا أربع فتيات في الثانوية من كل المنطقة. الفتيات الثلاث تزوجن بوقت مبكر. ظللتُ وحيدةً ما بين خمسة وأربعين طفلاً. كان استثناءً يُوَضّح كَمْ كان هذا الإنجازُ هشّاً. هذا الاستثناءُ يُعطي كُلَّ مَقاسه لِطَابَعِهِ المُنْعِش. ولكنَّ خَطَرَ الزواج يَظَلُّ قائماً. ولكنْ ينتابُني غَضب شديد يَحميني من السقوط في أيِّ شَرَك. وفي أسوأ الأحوال، أستطيعُ أن أهرب من المنزل في الليل. أتمشى بشكل مستقيم أمامي في الصحراء. الموتُ التهاماً من قبل بنات آوى أفضل من الموت عطشاً. هذه التوبيخاتُ تُلْهِب حماستي وتُساعِدُني على الصمود. أغتذي بالخيال لأَبْنِي نفسي، يومياً بَطَلَةً لأُسْطورتي الشخصية: «سأصبحُ رائدة فضاء أو طبيبة أو ربما كاتبة!» أحتاجُ كثيراً إلى التشبُّث بِحَمِيَّة وحماس بما هو صعبُ المُرْتَقَى كي لا أَسْقُطَ. أحتاج إلى أن أَحْلُمَ بأيّام قادمة قريبة وبآمال ومتمنيات كبيرة كي لا نخضع أبداً. الطريق الوَاجِبُ عبوره سحيقٌ. في انتظار الوصول إلى ما أريد، أنا أقوم بتخزين المعرفة من أجل إسناد تقدُّمِي.

فترةُ ما بعد الظهيرة تجذبني من فترة اعتزالي دون أن تجعلني أغوص في الحياة العائلية. حيثُمَا أجلِسُ ينتفضُ كتابٌ أمام ناظِرَيَّ. تحاول جدتي أن تردني إلى عين الصواب: «لا تُتْعِبِي عينَيْكِ بكثرة القراءة. سينتهي بك الأمرُ إلى العمى!» أَشكُرُها لأنها هدّأتْ من رَنّة الحديث كي لا تمنح أُمّي فرصةً للمُزايَدَة. أرفع عينيَّ عن كِتَابي وأبتسم في وجه جدتي، فَتَسْتعيدُ نظراتُنَا، بسرعة، تَوَاطُؤَهَا. وتنسى توبيخها.

في الليل، وأنا متمددة على أحد المقاعد، تسكنني، أحياناً، وُجوهُ النساء المُتزَوِّجات، أُفَاجِئُهُنّ، هنا وهناك، وهنّ يتفحَّصْنَنِي بِعيون مُفتَرِسَة. كَبُر نَهْدايَ وبدأتُ أكْتَشِفُ هيجان مداعباتي الشخصيّة، شعورٌ مُسْبَقٌ بالانتهاك.

إنّ هذا الانتصار الذي حققته وهو أن أكونَ، في نهاية المَطَاف، وحيدةً، ساعاتٍ وأيّاماً، كان حاسِماً بِحَيث إنه ضَاعَف كثيراً من فرحي بقدرِ مَا ضَاعَفَ من إصراري وعنادي. هكذا بدأتُ خُطايَ الأولى على طريق الحرية. يبقى عليّ ألاّ أُقْتَلع منها. كنتُ مُتَمَتْرِسَةً في قاعة الضيوف وأنا أُردّد القول باستمرار: «لا، لن أكون أبداً خادمةً. أنا المَدْعوّةُ.» أَفْرِضُ نفسي كضيفة في عائلتي. بين أحضان ثقافةٍ شفهية، أعيش محصورةً في الكُتُب. الكُتُبُ تَظَلُّ ضُيُوفي الوحيدة. ذَهَبَ بِيَ الأمْرُ إلى إيجاد ثلاثة رفوف لها في قاعة الضيوف. إنها ثورتي الخاصة بي. العلامة على أنني أصبحتُ غريبةً عن أهلي. فها أنذا أنتبذُ نَهَاراتهم إضافة إلى لياليهم. الحياةُ على الهامش. الفكرة تراودني بقوة. وَوُعُودُها ليستْ خاليةً من كآبة.

هنا

أرى كلَّ شيء في عيادتي من الهموم الصغيرة إلى مظاهر الضيق والبؤس. لقد كنتُ أتصوّرُ أنني سأتركُ ضيق الاستعجال والخطر بِفَضل تخصصي هذا. كان ينتابني فَرَحٌ لكوني أستطيعُ أن أُكَرِّسَ نفسي لأوجاع الطبّ العامّ. أكتشفُ كَمْ هِيَ كثيرةٌ الكائناتُ التي لا تَحميها صحةُ أجسادها من مَخَاطِرَ لا تُدْرَكُ باللمس. أكتشف إلى أيّ حدّ يُمْكِنُ للهويات المتفسِّخَة وللمآسي وللأقدار أن تثقل التكهنّ الحيوي. وَهُوَ ما سوف يُشَكِّلُ نَصِيبي. إذاً فَعَلَيّ أن أَتَشَاجَرَ، هنا، مع خُلاَصَةٍ من المشاكل الجسدية والاجتماعية، ومن قسوة الحياة.

المرضى في غالبيتهم مغاربيون. يوجد بعض الأتراك والبرتغاليين والغَجَر والأفغان... ويضمّ الحيّ ضمن ما يضمه من الفرنسيين بعضَ المُهَمَّشين والفُقَراء والهامشيين.

يوماً بعد آخر، أفحَصُ أَسِرَّةَ المُهاجِرين، هذه الأجساد الراحلة، كما أطلقتْ عليهم الشاعرةُ السوريّة، جارةُ عيادتي. يوجد من بينهم مَنْ حصل على شَرَاشِف، الأُبَّهَة الكاملة على الطريقة الغربية. أَكتَشِفُ أَسِرَّةً تُشبِهُ مُهُوداً بفضل تخريمات مُغرية وزرْكَشات أخرى. كل هذا علامة، دون شكّ، على ازدراءٍ ناجح في الحياة

هنا. أزورُ أَسِرَّةً حقيرةً ملقاة فِي أعماق الأكواخ القَذِرَة، في عُزْلات تُجّار النَّوْم. حين أَعْبُرُ مَتاهَات المَمَرّات الكريهة من أجل اكتشاف الرجال الذين يحترقون من الحُمّى والذين يبصقون دماً في عُفُونة الغُرَف الصغيرة الضيقة والتي ليست لها نَوَافِذ، وَحِيدِينَ، بَعِيدِينَ عن عائلاتهم التي بقيت هناك، أُحِسُّ، أحياناً، بارتباكٍ من مجيئي إلى هنا في كامِل أناقتي. ولكنَّ النظرات المليئة بالشكر والامتنان تبعث فِيَّ السكينة. العيون تتحدث لي عن الحَمَاس الذي اختزله خجل تلك اللحظةِ إلى تَشَكُّراتٍ مُتَلَعْثِمَة. وحين سيستطيعون، لاَحِقاً، أن ينهضوا من أَسِرَّتِهِمْ وأن يَهْرُبُوا من قَبْوِهِمْ حيثُ جمَّدَهُم الأَلَمُ، يأتون إلى عيادتي بِتَمَايُل منحرف، وُجُوه أطفال صِغَار مُثِيرَةٌ جداً لِلشَّفَقَة، الرؤوس شائبة، الأجساد التي فكَّكَهَا الرّوماتيزم وإصابات العمل، يُناوِلُونَنِي بعض التمرات، إبريق شاي، طَبَقاً أو صينية، عَطِيّة وتَبَرُّعاً: «هذه العطية من أجل الإسعافات ومن أجل الشَّمْسِ التي حَمَلْتِها إلينا.» كلماتُ هؤلاء وتَقَاسِيم وُجُوهِهِم تُكَدِّرُ خَاطِري كثيراً. إنها أجملُ هدية أحصلُ عليها.

زياراتي إلى المرضى الذين يوجدون في أقصى دَرَجَات العزلة، في زوايا البؤس والاقتلاع، أصبحتْ استعجالي الشخصي. هذه الأَسِرَّةُ ليستْ أَسِرَّةً وَاقِفة. إنها مُكَسَّرَة وموضوعة في أقصى الأمكنة. وأخيراً عليّ ألاّ أُغَيِّرَ مِنْ رِهَاني، وألاّ أَسْقُط من محيطي حين أَتَحَدَّثُ إليهم، إنّها طريقتي في إعادة جزءٍ من الاحترام إلى هذه الكائنات المُحَطَّمَة خلال فترة معينة.

جَسدي الصغير، وشَعْر رأسي المَتَجَعِّدُ وحقيبتي هي التي تَسْمَحُ لِي بِالمرور، عَبْر القذارة والظَّلاَم وعَثَرَات الغيتوات، إلى هذه الأَسِرَّة

المهجورة وهذه النَظَرات النَّهِمَة. ويغضّ النظر عن حالة الفِرَاش، فأنا أجلس على طَرَفِه، أكتشفُ الجَسَدَ، أَفْحَصُهُ وأَلْمَسُهُ، أَتَنَاوَلُ يدَ المريض كي أتحدّث إليه، وأُطَمْئِنَهُ. حين أنْصَرِفُ إلى حالي، وعلى الرغم من وَخْز الوضعية الحادّ، فإني أَشْعُرُ بسكينة غريبة. وشيئا فشيئاً، نجحتُ في الوصول إلى هذه الخلاصة المتفرِّدة، وهي أنّهم، أي المرضى، هم الذين يُعالِجونَني كلّ يوم. هُم الذين يُؤكِّدون لي بأنّني وَاصَلْتُ دون أن أُنْكِرَ شيئاً، دون أن أُنْكِرَ حتّى الفقر. لقد أدخلوا في مِهْنَتي رؤيةَ وبُعْداً مَغَارِبِيّيْن. وجعلوني أُعَبِّرُ عنهما بلُغَة الطفولة. إنّ الحَيَّ الذي يُقيمون فيه يَنْشُرُ، حولي، باستمرار، مَذَاقَاتِهِ وأَرِيجهُ العائلي. هذه الأشياء العائلية هي ما أبحثُ عنه.

ولكنّ المِنَّةَ الأكثر عمقاً تأتيني من نظراتهم. صرفتُ كثيراً من الوقت كي أعي بها وكي أَزِنَ قدرَتَهَا على الإصلاح وعلى التجديد والإحياء. العيون نفسها بدأتْ، هنا، في إعادة إصلاح وترميم ما خُرِّبَ هناكَ.

هذا لم يمنَعْنِي من أنْ أصدر ردّات فعل على عيوبهم وأن ينتابني، في كثير من الأحوال، غضبٌ مُذْهِلٌ ضدهم. لقد كانوا متعوِّدين على هذا. وهو دليلٌ على أنني التحقتُ بهم بصفة كلية.

في الفترة التي كنتُ فيها بالثانوية، وحين بدأ خيارُ الطبّ يَفْرِضُ نفسَهُ عليّ، تخيلتُ نفسي، ولفترة طويلة، طبيبةً لِلرُّحَل. لم أتصَوَّرْ نفسي أذهبُ لعلاج سكّان المدينة! لن ألمسَ أجسادَ مَنْ كانتْ نَظَراتُهُمْ تشي عندي بكثير من العنف! حديثُ جدّتي المليء بالحنين وحياةُ عائلتي المنعزلةُ عند قدمِ أحد الكُثْبان، في مواجهة فضاءات

واسعة لم يَتِمَّ أبداً اختراقُهَا وتخطِّيهَا، المُرَاهَقَة الجريحة، وخيبة الأَمَل من الأحلام التي كان يُغذِّيهَا انتِظَارُ الاستقلال، أثارتْ فِيَّ وَهْمَ أن الحريَّةَ كانت توجد في نمط الحياة الذي تخلَّتْ عنه عائلتي، أي نمط حياة القوم الرُّحَل. كنتُ أتخيّلُ نفسي وأنا أتقدم بصعوبة خلال الصحارى الحوضية والسهول الخَصَويّة، وأنا أبلع صحاري وصحاري في سيارة كي أُقَدِّمَ الإسعافات لآخِرِ المتكلكلين في الخطيئة وكي أُلَقِّحَ أبناءَهُم.

بعيداً عن الصحراء، في جنوب آخَرَ، وفي مدينة تقع على شاطئ البحر المتوسط، في مدينة «مونبوليي»، أصبحتُ طبيبةً لأُنَاسٍ رُحَّلٍ من زماني، المهاجرين.

كلُّ حياة هذه الأجساد الراحلة ليستْ إلاّ عُبُوراً بين هنا وهناكَ. أَوَائِلُ القادمين وهم يطوفون في مدن أجنبية، جِيلُ الصُّفْر، يُلامِسون الحيطان مثل أشباح كي لا يُلاَحِظَ الآخَرون وُجودَهُمْ ويبدأون ثرثراتهم الطويلة في مقهى كي يُؤَخِّرُوا اللحظة التي يتوجب عليهم فيها الالتحاقُ بِأَسِرَّتِهِمْ المنكوبة.



هناكَ

دخلتُ إلى قسم الثانوية. عشية العطلة الصيفية، استدعاني مُديرُ الثانوية كي يُعْلِنَ لي عن تَسميتي مُعلّمةً في المدرسة الداخليّة. لم يكن هناكَ من شخصٍ آخَرَ قَادِرٍ على تَحَمُّلِ هذا المَنْصِب. أمّا الحُرّاس (الناظر) فقد تمّ اختيارُهُمْ من فترة طويلة تحسُّباً لافتتاح المدرسة الداخلية. تمّ إعدادُ قاعة كبيرة تَسَعُ سبعة أَسِرَّة خاصة بالفتيات. ولكن لم يكن ثمة شكٌّ في أنّ هذه الأَسِرَّة لن تَجِد جميعاً من يستعملها في السنة الأولى. وهكذا مع اقتراب نهاية الدروس، قَدِمَ رَجُلاَن، أحدهُمَا من «تيميمون» التي تَبْعُدُ ستمائة كيلومتر في الصحراء والآخَرُ من «تندوف»، التي تبعد ألف كيلومتر، من أجل تسجيل ابنَتَيْهِمَا. وبِسُرعة تَمّ استدعائي أسرَعَ مِمّا كان مُتَوَقَّعاً.

في سنة 1962، في سنة استقلال الجزائر، لم يَقصِدْ مقاعِدَ المَدارِس الفرنسية إلاّ عشرة في المائة من الذين يتوجب عليهم الذهاب إلى المدرسة. ويُشَكِّلُ الذكورُ الأغلبية السّاحقة. المعجزةُ تَتَمَثَّلُ في أنني شَكَّلْتُ جُزءًا من هؤلاء المَحظوظين. ولكنّ تأثيرَ القوانين المتعلِّقَة بالتدريس الإلزامي، في منتصف الستّينات، بدأ يُؤتي ثِمَارَهُ. هذه القوانين تنصّ على إلغاء التعويضات العائليّة كلّما

انسحَبَ مراهقون، ذكور أم إناث، من السِّلْك الدراسيّ قَبل سِنّ السادسة عشرة. بالإضافة إلى أنّ الدولة تمنح منحة دراسيّة لكلّ تلاميذ الثانوية مهما كان العائد الشهريّ لآبائهم، بحيثُ إنّ العائلات ليس لها ما تَصْرِفُهُ من أجل التحصيل الدراسيّ لأبنائهم. هذا ما جَعَل الجَزائر بعد ثلاثين سنة من استقلالها، تقومُ بتخريج فرنكوفونيين أكثر مِمّا تَمّ تخريجُهُ خلال ثلاثين سنة من الاستعمار! غير أنّ الجِنْسَ اللَّطيف كان الخاسِرَ الأكبرَ. على الآباء أنْ يَتَحَمَّلُوا النَّقْد والتنصُّلَ والمواجهة الجَسُورة للتقاليد. إنهم يُعرِّضون بَنَاتِهِمْ للاستنكار والشجب، ولأقوال خسيسة ومَهِينَة في الشارع، هذا إذا لم يَصِلِ الأمرُ إلى حدّ رَجْم سِيقَانِهِنّ بالحجارة لأنَّهُنَّ تَجَرّأنَ على دَغسِ أَرَاضٍ كانت لحدّ الساعة محصورةً بالذُّكُور.

لا أملك غرفة بالمعنى الحقيقيّ للكلمة. خِزانَات معدنيّة موضوعة جنباً إلى جَنْب، تُعَيِّنُ لي فضاءً مُحتَرَماً في رُكْنٍ من الغرفة. خِزانتان مُخَصَّصَتان لي تَنْفتحان من جهتي. على ظهر الخزانات الأخرى أَلْصَقتُ بوستراً كبيراً يُصوِّر مَشْهَداً للبحر. طلبتُ أن يُوضَعَ مصباحٌ بقرب سريري وطاولة للعمل، وحصلتُ عليهما في اليوم نفسه. وكانت عندي إمكانية أن أمتلك، لأول مرة، قاعة حَمّام، لي وحدي. فيما يخُصّ التلميذات الداخليّات، اللواتي سَيَصِلن غداً، فَمَا لهنّ سوى اقتسام المِرَشّات المُشْتَرَكَة. أمّا في المساء، فأنا موجودةٌ وَحدي. الحارسُ الليليّ الذي يتعقّبُنِي يُغلِقُ بابَ الجناح الصغير من ورائي دون أن أُحِسّ بأنني سجينةٌ. في الليل، ولحدّ الساعة، كان الأَرَقُ والكُتُبُ وغرفةُ الضيوف المسافَةَ

الوحيدةَ بين عائلتي وبيني. إنها أوّل مرّة سأَسْهَرُ فيها وأنام على مَبْعُدة كيلومترات من العائلة. وإذا كنتُ وَاعِية بأنَّ هذا المَنْصِبَ وهذا المُرَتَّبَ يُشَكِّلاَن المرحلةَ الحاسِمَةَ فإنَّنِي ما زِلْتُ أَجْهَلُ حَجْمَ التَغَيُّر القَادِم.

على الرغم من الوعد الذي قَطَعَهُ أبي على نفسه أمام مديرة المدرسة، فقد كادوا يُزَوِّجُونَنِي في بداية الصيف الأخير. ولم يجد أَحَدٌ من العائلة مُفيداً طلب رأيي أو حتى، فقط، إخباري بهذا المشروع الذي كان سَيَتِمّ بين لحظة وأخرى. لم أكتشف الأمرَ إلاّ مع وُصُول ما يُفْتَرَضُ أنها عائلة زوجي، إلى بيتنا، مُحَمَّلَةً بهدايا وخروف للاحتفال بإجراءَات الخُطوبة. أخُ جَدَّتِي، الذي يعيشُ في أعالي السهوب، والذي لَمْ أَرَهُ منذ سَنَوات، ارتأى أنّني، ومُنذ سنّ الرابعة عشرة، قادرةٌ على تأسيس عائلة. ولم يَكُنْ في واردِهِ أن يتركني أُصبحُ عانساً. من سلطته، وهو شيخُ القبيلة، أن يَضَعَ حدّاً لِقُصُور وَالِدِي. ولهذا خاطبَ العائة القادمة لِطَلَب يدي: «أَهِبُهَا لَكُمْ مع بِذْلَتِهَا».

اسْتَفدتُ من المُهلة التي تَرَكَهَا لي وَالِدَاي، اللذان كانا مشغولَيْن باستقبال ضيوف الرّحمن، تَسَلَّلْتُ من المنزل، ومن القرية. أطلقْتُ ساقَيَّ لِلرِّيح، والخوفُ يجتاحُنِي. لقد كانَ للفضيحةِ التي تَسَبَّبَ فيها هُرُوبي وقعٌ فوريٌّ. فَمَنْ هُوَ الذي سيَطْلُبُ يَدَ فتاة قادرة على الهرب، وعلى إلحاق العار بِرِجال قبيلتها؟ في اليوم التالي، أمسكت العائلةُ القادمةُ لطلب يدي بخروفِهَا الذي كان يثغو واقتفتْ طريقَ السُّهوب. بعدها بدأت جدتي تُعامِلُنِي بِوَمِيضٍ من الإعجاب

السَّاحِر. أما أُمّي فقد غَرِقَتْ في حُرُودِهَا. وفيما يخصّ أبي فإنه لم يُوَجِّهْ لِيَ الكلامَ خلال فترة طويلة. ولكن لا شيء استطاعَ أن يُسيءَ إلى انتصاري. لاحقاً، وبعد عدة أَشْهُر، ستأتي فضيحةُ الفاتِح من نوفمبر لِتَتْويجِ صِيتِي كامرأة متمرِّدَة وفاسِدَة الأخلاق. وهكذا لن يتجرّأ أحدٌ، من الآن فصاعداً، على تزويجي من دون عِلْمي.

جالِسة على السرير، في هذا المساء الأول في داخلية البنات، أفكر في أشهر العطلة الصيفية الأربعة. أَرَقٌ طويلٌ أَحْرَقَتْهُ نارُ الصيف. ها هو خطرُ الزواج قد ابْتَعَدَ. مُعاوَدَة الدُّروس وساعاتُ المُدَاوَمَة سَتُجَدِّدُ بنية أيامي، وتُسْقِطُ قليلاً من نومي على الليل بدل أن تُسْقِطَهُ على الصّباح، والتخفيف من تَوَحُّشِي من خلال استغراقي في هذه الحياة الاجتماعية الوحيدة التي أنتمي إليها، ألاَ وهي هيئةُ التدريس. في قاعة الدراسة، سيكون لديَّ خمسة وأربعون ولداً والتلميذتان الداخليتان. أَعْرِفُ أنني سأكون مسجونةً مع الفتاتَين كلَّ المساءات هنا. لا أَجهلُ أنني حارسةٌ خاضعةٌ لِحِرَاسةٍ مُشَدَّدَة. ولكنّي أَشْعُر بارتياح واسع من جراء عدم اضطراري إلى الدخول إلى بيتنا. فَكَّرْتُ مطوّلاً في هذه المسألة، هذه الليلة. لقد نَجَحْتُ في اقتلاع نفسي من الجسم العائلي. أنا أُمَثِّلُ هذا الاقتلاعَ. جُزَيْئَة، قِطْعة صغيرةٌ من الجلد بِنَقائص في كلّ الحواسّ. من الأجساد لا أعرف سوى العيوب والابتزاز والاختناق، وليس الحُبّ، باستثناء حبّ جَدَّتي. ولكنّ جدتي، كما هو شأني، احتمتْ خلف الكلمات. هي ناسكةٌ، امرأةٌ تَقِيَّةٌ ذاتُ كلمة مُتَسَكِّعة، شاعرةٌ. البحثُ عن الكلمات جعلها تَرْصُدُ وَقْعَهَا في

عُيُون الآخَرين. هيِ ترى فيها لهيبَ الأحلام، إنَّها طريقَتُها في المُداعَبَة.

ثانويَّتُنا التي ما زَالَتْ في طور البناء، في حيّ بعيد عن المدينة، والقريبة من الكثيب نفسه، «برغا»، والتي تُوجَد بالقرب من «قنادسة»، لا تضمّ سوى ثلاث بنايات موضوعة، دونما سياج، أمَامَ الصحراء. ممدَّدَة على سريري وأنا أنظرُ إلى البوستر الذي يُمَثِّلُ البحرَ وشعورٌ ينتابني وكأنّي أُبْحِرِ في سفينة صوبَ وجهة بعيدة ولكنها ما زالتْ مجهولةً. ويأتيني تصوُّرٌ مُسْبَقٌ، بحماسٍ مُؤلِم قليلاً بأنه لنْ تَكُونَ ثَمَّةَ عودةٌ ممكنةٌ. شعورٌ مُسْبَقٌ بأنَّ الثمن سيكون بَاهِظاً.

هنا

إزاءَ الاعترافات الرهيبة، أحياناً، لِبَعض المرضى، أُفَكِّرُ في كثير من الأحيان، في هذا القلق الآخَر الذي انتابَ أصدقائي زمنَ افتتاح العيادة: «لا يوجد هنا، إلاّ الرجالُ! أَلَيْسَ من الأفضل لكِ أن تستقرّي في «لابایاد»؟» فـ«لابایاد» منطقةٌ سكنيّة ذات إيجارات مُخفَّضَة في غَرْب «مونبوليي». وهي أحد هذه المَهَاجِع التي تُوجَدُ في أطراف المُدُن. فهنا تقطُنُ عائلات المُهاجِرين. اخترتُ أن أَمْتَهِنَ التطبيب في منطقة «بلان كابان»، وهو حَيٌّ تجاريٌّ مُبْتَلٌ بالبول ومُتَبَّلٌ ومُهْمَلٌ وملتَصِقٌ بِوَسط المدينة. إنه مركزُ العُزّاب، هؤلاء العُمّال الذين يعيشون بِمُفْرَدِهِمْ في فرنسا. الذين يَتَرَدَّدون على مَتاهَات تُجّار النّوم. أكواخُ العزلة القذرةُ.

ولكنْ أن تكون امرأةً ليس عائقاً بالنسبة لطبيب العرب. فهل سيكون ميزةً؟ نعم، إذا استثنينا كُلَّ طابَع ماليّ. حينَ تلقيتُ اعترافاتٍ مُقَنَّعَة لحالات عجزٍ جنسيّ من أفواهِ رِجَالٍ مُعَذَّبينَ، اعتقدتُ، في البداية، أَنَّهُم كَوَّنوا في أذهانهم مفهوماً لاَجِنْسِيّاً عن وَظيفتي. أعرف أنّ هذا ليسَ صحيحاً. انتهى بيَ الأمرُ إلى استنتاج أن التعبير عَمّا لا يمكن الإقرار به هو من دون شكّ أسهلُ في لغته الأمّ وبأنّ التواءات

المجازات المغاربية تحميهم من فظاظة الكلمات. فهل تسبب لهم الارتياح من خلال مَسْرَحَة يَأْسِهِمْ؟ معظمُ الذين كانوا متأهّبين للابتسام ليسوا أصحاب هذه النَّظَرَات التي عَذَّبَهَا الشَّقَاءُ: «دكتورة، أنا لستُ رَجُلاً، إنّ روحي قد مَاتتْ..» جُمَلٌ متقطعة الأنفاس والمعنى، الجسد الذي قَصَمَهُ مَوْتُ الرّوح والقضيبُ.

ذات يوم اعترف لي رَجُلٌ مغرِبِيٌّ: «أمي تريد أن تزوّجني هذا الصيف للمرة الثالثة. وأنا لا أستطيع. فقد قامت بِطَرْد زَوْجَتَيَّ السابقتين، الواحدة تلو الأخرى. تطردهما بعد سنتين من الزواج. وفي كِلا المرتين لِلسَّبَب نفسه، وهو أنهما عاقران. وأنا أقضي وقتي، هنا، في العيش في العزوبية وفي تبديد أموالي في الزواج. أنا نادمٌ على طلاقي من زوجتي الأولى، فقد كنتُ أُحِبُّهَا. وما زلتُ أُحِبُّهَا. وقد وَرَدَتْني أخبار عنها في الصيف الماضي، حينَمَا كنتُ هناك. لقد تَزَوَّجَتْ مرة ثانية. وأنجبتْ عدّة أولاد.» التحاليل الطبية ستثبت بأنه يَفْتَقِر إلى الحيوانات المنوية، وبالتّالي فهو العاقر. هزَّ رأْسَهُ علامة على ضنى، وقال: «كُنتُ أرتابُ في الأمر.»

البعضُ يأتي لِيَعْرِضَ عليَّ جِسْم الجريمة، العجز الجنسي، ولكنّهم يُواصلون رفض كل تطرّق لِرَدْع نفساني، يَثورون-لا ندري ما إذا كان من أجل إعطاء مصداقية لإنكارهم- ويُعَبِّرُون بِشَكل مُفاجِئ باللغة الفرنسية: «لا، لا، لا يوجد أيّ هَاجِس! الرأسُ بِخَير. المُشْكِل هو الفِراشُ. السريرُ وحدَهُ المُشكِلة!» حين تكشف كلّ التّحاليل المطلوبة عن حالات عادية، فإنهم يَظَلُّون، لفترة طويلة، مشدوهين في تدقيق النّظر في النتيجة الواضحة وهم يرددون: «الفِراشُ، السّريرُ وحده الذي ليس على ما يُرامُ!» أَجِدُ

نفسي عاجزةً عن جعلهم يقتَنِعُون بأنّ الوصول إلى النتيجة ليس عضوياً.

ذات يوم، وبينما كنتُ بِصَدد إرشاد أحدهم للذهاب عند الطبيب النفساني، وكان في الخامسة والثلاثين من العمر، صرخ فيَّ قائلاً: «ماذا سَيفعل بي هذا الطبيبُ؟ لا شيء سوى الكلام؟» وأضاف بعد فترة من الانصعاق: «وأنا لا أريد أنْ تُفْرَغَ رأسي، أريد أن يَنْتَعِظ قضيبي! » أتركِي المتخصصين في الكلام جانباً. أنتِ دكتورة، وألَّفتِ كُتُباً، يجب عليكِ أن تُعالِجِينِي! - أنا طبيبةٌ، ولستُ ساحِرةً ولا «متكلّمة». ألَّفْتُ كُتُباً وليس طلاسِمَ. هم يَعْرِفون بأنني أؤلِّفُ كتباً. ولكنهم لم يقرأوها. هم لا يعرفون القراءة. مَهْمَا يَكُنْ فإنّني لنْ أستطيعَ، أبداً، أن أجْتَثَّ من رُؤوسِهِم فكرة أن طبيباً يُؤَلّف كتباً يَتَوَجَّبُ عليه أنْ يمتلك عِلْماً مُتُوَهِّجاً بسلطة خفية. إذاً فَيَتَوَجَّبُ عليَّ أنْ أنجح في شفائهم وكذلك في شِفاء النّساء من هذا الألَم العنيف والمُسْتَوْطِن والمتفشّي في كل مكان. ألَمُ العيشِ الذي يُكَسِّرُ الأجساد: «بابٌ ينفَتِحُ في الصَّدْر، سَكاكِين تقطَعُ البطن، كلّ العظام مُهَشَّمَة، من الرأس إلى القدمين، ومسحوقةٌ، مُحتَرِقَةٌ مثل أنبوب القشّ، كلها، كلها، كلها! تنتابني رغبة في النوم!»

هناك

يوجد عشرة من معلّمي المدرسة الداخلية بالإضافة إليَّ. أعمارنا جميعاً تَتَرَاوَحُ ما بين خمس عشرة وسبع عشرة سنة. تضمّ المُؤسَّسَة، الآن، عشرين فتاة - أختي من بينهنّ - من بين ثلاثمائة طالب ثانوي نجد من بينهم ما يُقارِبُ الثُّلُثَ من التلاميذ الداخليين. في المساء، بين الدراسة وتناول الطعام، التلميذتان الداخليتان اللتان وصلتا من بعيد من الصحراء تَنْزَوِيَان بِوُجوهٍ جَفِلَة، وَشْوَشات قَلِقَة وهُمَا تَتَأمَّلانِ تَبَجُّحَات ومُمَاحَكَات الأطفال. أُعِيرُهُمَا كلَّ انتباهي. أُبْصِرُ حركات الأطفال. أتخيلُ الشدّ والجذب تِجَاهَهُمَا، ما بين الحاجة إلى التبادل والعزلة الصعبة التحمُّل ومِزْلاج أشكال الرِّقَابَة والتَّوْصِيات.

أعرفُ هذه الأشياء.

اكتشفْتُ بأنهما لم تُقاوِمَا كي تَتَوَاجَدَا في هذا المكان. فهما قادمتان من عائلات ميسورة، وقرار أرباب عائلتيهما، هنا، تجاوَزَ تطلعاتهما. وهو قرار جعلهما كتلتين صلبَتَيْن من شَرَف وشارِدَتَيْن.

في لَحظات ذَهَابِهما إلى سَرِيرَيْهِمَا، استعجالُهُما الواحدة تجاه الأخرى وبالنظر إليّ لا يتجاوز سلطتي. تبدو نظراتهما وكأنهما

تُلِحَّان في الطَّلب ما لا تستطيعُ حركاتهما المنطفئة- بِسَبب الأيام المليئة بالدروس- أن تَغمُرَهُ، وهو غياب العائلة. الحاجةُ إلى الأُمّ، بصفة خاصة.

أَتَفَاجأُ بكوني ألعبُ دورَ الأخت الكبرى - وهو ما رفضتُ دائماً أن أكُونَهُ- وأَذهَلُ من خلاصة تفكيرهما: «ما الفائِدةُ من تحصيل الدراسة مقابل هذا الثمن، إذا كُنَّا مقطوعين عن أهالينا؟!»

مقطوعون عن أهالينا! لدى هذه الكلمات أَجْنَحُ إلى سريري، أنهضُ خلف حاجز الخزانات المنتصبة ما بيني وبينهما، وأُثَبِّتُ البوستر المُلْصَق على ظهرها، وأتساءلُ: لماذا ينقُصُني مثلُ هذا الإحساس الهامّ جداً؟ ما الذي تعطَّلَ ما بين عائلتي وبيني؟ في أيّ لغز ترسَّخت هذه اليقينيات البَنَوِيّة؟ هل لهذا السبب تَسكُنُني الشكوكُ. قناعاتي مربكةٌ ومُتَشَوّشة بالغضب. حاجات صلبة للهروب والتجاوز تُسَنِّدُ أعصابي.

لم يَتَوَفَّرْ لديَّ الوقتُ لِسَحْبِ خيطي من هذه الدسيسة، حتّى كانتا مستغرقتَيْن في الشَّخير. أطفأتُ الكهرباء التي تُضيءُ جهتهما، وأنا مُقتنعةٌ بأني المُحِقّةُ. لدى حركة القاطع الكهربائيّ، يُصَفِّقُ ضحكي الدّاخلي: «لا يُوجد ما هو أكثرُ نفاقاً مِن هذه الكلمة، الحقّ!»

لا أذهب عند والِدَيَّ إلاّ من أجل تسليم مُرَتَّبي لِوَالدي. ولاحقاً، سأختفي وَراء مُبَرِّرات عديدة من أجل تأخير زياراتي وأَعْهَدُ بالمال إلى أختي، التي كانت تعودُ كلَّ مَساء. أصبحتُ دعامةً لعائلتي دون عِلْمي، سأسمع أبي يُصَرِّحُ، ذاتَ يوم، وهو يُطْري عليَّ: «لقد أصبحتِ الآنَ، يا ابنتي، رجلاً!» هذا التفكير الأبويّ وكذلك كوني

لا أتأخر في إعفاء نفسي من العودة إلى القرية خلال أسابيع، بل شهور، منحتني هذه القناعة، وهي أنّ تَرَاكُمَ المرتَّبات يُقوّي من مكتسباتي. لقد صرتُ أشتري حريتي.

أكدُّ بلا انقطاع وأقرأ حتى ساعة متأخرة. قراءات هامة تضع مَعَالِمَ على أَرَقي: «رامبو»، «كوليت»، «جيونو»، «سارتر»، «بوفوار» التي فتحَ لي كتابُها «الجنس الثاني» آفاقاً وقوّى من عزيمتي. «كامي» كان بالنسبة لي غريباً. وكذلك «ياسين». الجنوبُ القذر والعنيف عند «فولكنر» قريبٌ منّي. لنْ أُعْجَبَ بـ«كامي» إلاّ بعد قراءة «كافكا»، بل وكان عليَّ أن أنتظر كتاب «السقوط». كنتُ في هذه الفترة قد بدأتُ أبني نظرية صغيرة حول كتابات تتحدث عن المحليّة وعن الإحساس وكتابات القلق والاضطراب.

في الصمت المُقَطَّع لهذه الليالي أَتَمَثَّلُ مَهْجَعَ الأطفال الموجود فوق رأسي. أتخيل عدد الأَسِرَّة العادية أو المتراكِبَة. كلّ هذه الهياكل من النفايات الحديدية الممتدة على طبقات خرسانية. النومُ وهو خارجٌ من الأَسِرَّة الحقيرة في المنازل الطينيّة يُعيدُ، هنَا تركيب كيانٍ ثانٍ: الجسم العائليّ والجماعات. أَتَصَوَّرُ أنني لن أُغلِقَ أبَداً عينيَّ في مكان كهذا، في هذا المهجع. يبدو لي وكأنني أُحِسُّ بطقطقات بنايات الثانوية الثلاث المغروسة في الرمال. شخير يبدأ الرغاء في رأسي كما لو كان آتٍ من عِيرٍ مجنونةٍ.

الفتاتان الداخليتان اللتان كانتا تُحِسّان بِالحنين إلى عائلتيهما ظَلّتَا في منزليهما. هَلْ هُما تَتَنَعَّمَان بِجِهاز العرس الذي قامت أُمُهُمَا بِتَحضيره بأناة؟ هل تَسْكُنان بالقرب من حنانهما؟ مَهْما يَكُنْ، فإنّ

أخرياتٍ لن يَذْهَبْن بعيداً في دراستهنّ سيَتْبَعْنَهُمَا. مهما يكن فأنا أريد أن أتذوَّق من انشراحات أخرى بل وحتّى من متاعب أخرى.

حياتي كتلميذة في ثانوية محاطةٌ بزعماء صغار متَّفِقِين على إزعاجي وتنكيد حياتي. إثنان من بينهم أكثرهم إثارة للاحتقار، مديرُ الثانوية والمُفَتِشُ، انتهى بهما الأمرُ إلى تدبير مكيدة لمعاقبة تَطاولي في مواجهتهما، وهو إيقافي عن عملي كَحَارِسَةٍ عشيّة العطلة الصيفيّة كي يُعَاد تشغيلي مع بداية السنة الجديدة. الهدف من هذه المُناوَرَة هو حِرماني من مُرَتَّبِي خلال أربعة أشهر في فصل الصيف. وقد قاما بتسديد هذه الضربة إليّ خلال سنتين متعاقبتين. أَلْقَيا عليَّ خطبة واتَّهَمَانِي فيها بكلّ الآفات، اخترعا لي عُشَّاقاً. كنتُ غبيّةً أبحث عن المِثال الأعلى، كنتُ ما أزال عذراءَ ولم أَكُنْ قدْ تناولتُ قطرةً واحدة من الخمر. نعم، كنتُ قد بدأتُ التدخين. نعم، عرفتُ بعضَ العلاقات الغرامية العابرة. ولكن لم يَسْتَطِعْ أحدٌ أن يُحَرِّك فيَّ رغبة الذهاب بعيداً. أما الحُبُّ، فليس عليّ إلاّ أن أَحْلُمَ بِهِ. إنّه تمرينٌ يَشْغَلُ كثيراً من أوقاتي.

أنا مقتَنِعَةٌ بأن هذين الوَغْدَين يقتسمان مُرَتَّبي خلال العطلة الصيفية. وما كانا ليُثْقِلاَ كاهِلَيْهِمَا بأيّ عقدة ذنب كي يقوما باستدعائي مع اقترابِ شهرِ أكتوبر. لأنه بالرغم من تواجد العديد من التلميذات، في الصفّ الدراسي الذي يليني، فلا توجد واحدةٌ منهنّ قادِرَة على مواجهة ما أقاسيه. فبالإضافة إلى كره النساء، وهي حصتنا التي نَتَقَاسَمُهَا نحن النساء جميعاً، ينضاف عقلُ الإدارة الرجعيُّ. يَتَوَجَّب عليّ أن أَتَحَكَّمَ، بشكل صارم، وإلى حدود السّاعة التاسعة ليلاً، في مطالعات أكثر من خمسة وأربعين طالباً -

أخواتهم اللواتي في مثل سنّي تَزَوَّجْن منذ فترة، وهنّ مُكِبَّاتٍ على مضاعفة عَدَد أفراد القبيلة. يَتَوَجَّبُ عَلَيَّ أن أَتَحَمَّلَ الإهانات والبذاءات التي تنتشر في الساحة ليلاً، حين لا أستطيعُ أن أُحَدِّدَ مَنْ وَرَاءَهَا... إهانات مستمرة ومُصَمِّمَة على سحق كبريائي وإرادتي.

اعتاد والدي على الانتفاع من مُرَتَّبي كُلَّ شهر. وهو الذي سَيَتَضَرَّر من افتقادي للمرتب خلال صَيْفين متتابعين. أبي رجلٌ فقيرٌ. وعلى الرغم من أنّ الاستقلال خَدَعَهُ فإنه قضى فترة طويلة قبل أن ينقلب ضدّ الأقوياء. فضلاً عن أنَّ المُفَتِّشَ يَصْرُخُ في كل مكان عن علاقات قرابة تربطه مع الكولونيل قائد الجيش في الجنوب. إئتلاف الموظفين المتعجرِفِين مع المستَبِدّين العسكَرِيّين منخرطٌ في تشكيل ترقياتٍ وترفيعات للأباطرة الصغار. قانون الاحتقار ينتشر وسينتهي به الأمرُ بِنَهْبِ البلد.

ولكن فيما يخصّ المال، فلا أقوم سوى بإيصاله. هل يا تُرى يتمتع الجَلاَّدان بعطلة صيفية على حسابي؟ العطلةُ، فيما يخصُّنِي أنا، ليست إلاَّ عودة إلى نقطة البداية: أي غرفة الضيوف، الغرفة الوحيدة التي أستطيعُ أن أقرأ فيها وأنْ أحتمي فيها من حياة أفسَدَهَا وفكَّكَها سعيرُ نار وأرق الصَّحراء.

أُقاوِمُ وينقصني دعمٌ يَقِظٌ ضدّ هذه المعاهدات المفروضة. من البدهيّ، بالنسبة لي، أنّ الصراع غيّر مكانَهُ. فقد خَرَجَ من حيطان والِدَيّ وأصبَحَ الآنَ بِقَامة الجسم الاجتماعيّ، بِقَامة سُوء استعمال مُشَيَّد كَصَرْحِ أخلاق. خَفَّفَ من جواسيسه ومن رُقَبائِهِ... حياتي شِجَارٌ دائمٌ. وبسبب كثير من الظُّلْم تحولت الشَّكَاسَةُ إلى سلاحِ ذي حدَّين.

في شهر أكتوبر، ينادون عليَّ. أعودُ. وكان على نظري أن يُلقِي مثل هذه الشُّحنَة من الهياج ومن الاحتقار الذي كان يدفَعَهُمَا إلى خفض عينَيْهِمَا. لستُ بِحَاجةٍ إلى أن أصرخ في وجهَيْهِمَا. أنا مسعوفة بما يكفي كي أُحَمِّسَ نفسي وأصرخ: «ماذا يعنيني من أمر هذين الحَقيرَين! فَهذِهِ الثانوية هي أنا. إنه المستَقْبَلُ الذي أتهيَّأُ له. أمّا هما، فلَيْسَا إلاّ فَخّاً، ليسا إلاّ خَطَراً يجب تجاوُزُهُ. أمّا أنا فأفتحُ الطريق أمام الأجيال القادمة من فتيات الصحراء.» نُصَفِّحُ أنفُسَنَا قَدْرَ استطاعتنا في مجتمع ميئوس منه. وأنا التي لا بلد لي، لستُ في تناقُضٍ مع هذا.

منذ الأولى ثانوي، ودون أن أتلقَّى الدَّعوَة، دفعتُ نفسي إلى أمام، منغرسة كَشَظِيَّة في هذا العالَم الذكوريّ، وَسَط تنافُساتِهِ، وجَشَعِه وعَقَائِدِه. كان عندي بَعضُ أصدقاء نادرين، وكان لدَيَّ دعمُ بعض الأساتذة من أصحاب الضمير.

إنّ ما كانَ يَنقُصُ في هذا الزمن العنيف، هو الصداقةُ الحقيقيَةُ. لمْ أكُنْ أعرِفُ، حينَهَا، ما تعنيهِ كلمةُ: صداقة. غير أني كنتُ قد قرأتُ «مونتاني»: «لأنّ الأمرَ تعلّقَ بِهِ، لأن الأمرَ تعلّق بي» جعلني حالمة. فَهَلِ الحنينُ إلى علاقة ما، إلى حالةٍ مَا يمكن أن يَسْبِقَ التجربة؟ أعتقد بالإيجاب. أعتقد أنني أحسستُ بهذا، أحيانا. الأمرُ ليس التباسا للرُّوح. بل كلّ أمواج الرُّوح صعبة المَنَال. مِثْل ضجيجٍ لا يُطَاقُ سَمَاعُهُ في صَمَمِ هذه الأرض. رقّة ضباب مستحيل في سماء ذات زُرْقَة حربٍ. مثل البحر يسكن جِشَاف صحارى جلدي.

في تلك السنوات، أصبح حرصي على الظهور جميلةً، غريزةَ

بقاءٍ. وكوني حظيتُ بقاعة حمّام لوحدي ساهم دونما شكّ في هذا. ملاحظاتٌ مختلفةٌ ساعَدَتْنِي شيئاً فشيئاً على تحصيل الوعي. قال لي أحدُ أَسَاتِذَتِي ذات يوم بخصوص هذا الموضوع: «إنّ هذا يشكل جزءاً من مِزَاجِكِ كَمُحارِبَةٍ. إنه ورقةٌ رابحَةٌ، إنها استراتيجية!» مُحارِبَة، بالتأكيد، على طُول النّهار خِلالَ هذه المرحلة الجنائزيّة من الثانوية. ولكنْ ليس في اللحظة التي أكونُ فيها على استعداد، لا. هذه اللحظة، كانت على العكس، استراحةً وطريقة في تدجين هذا الجسم المتَوَحِّش وفي تهدئَتِهِ. كنت قد اقتلعتُهُ من مصنع أيدي نساء. من تدليكهنَّ ومن دَغْكِهِنَّ ومن ترويضهنَّ ومن إشباعهنّ ومن مُحاولات أخرى. أَلْحَقْتُ بِهِ قَهَماً(*) رهيباً من أجل الاحتفاظ به على شاطئ الدُوّار والكُتُب، كُتُبِي أَنَا. بعد المساء الدامس الذي أوْشَكْتُ أن أتَعَرَّضَ فيه للرَّجْم، متشبّثة بِكِتابٍ أو جاثمة على كثيب، اخترعتُ لنفسي، في معظم الأحيان، جسداً تَعويضياً. جسد خياليّ ولكنه فاتحٌ وهُجُوميٌّ يتحرك من خلال مغامرات القراءة، ويَحْمِلُ أحلامي بعيداً عن غرق الكثبان، تَارِكاً، عن طيب خاطِر، الجسدَ الجريح، مثل جثمان في لحظةِ شِدَّةٍ. أُراقِبُ إذاً من الخَارِج، من بعيد، هذا الجَسَد. وأقول له متهكمةً: «مُتْ في مكانك، ولْيَمُتْ بلدُكَ في داخلكَ. أمّا أنا فقد أصبحتُ بلا وَطَن!» أحياناً يَمَسُّنِي مساً خفيفاً خوفٌ مَشُوبٌ بالشَّفَقَة. ولكنّ تعاطفي ينحرفُ، في هذه اللحظة، إلى استياء. كانت تنتابُنِي رغبات في اغتيالات جماعية بعد الصدمة التي تَسَبَّبَتْ فيها هذه المأساةُ. بِيَ رغبةٌ في امتلاك بندقية لتفجير الوُجُوه الصارخة في كابوسي. لِعَدم إمكانية تحقّق هذا، فَقَدْ

(*) القهم: قلة الشهوة للطعام، بسبب مرض أو غيره.

حَقَدْتُ طويلاً على هذا الجسد لكونه كان الضحية. ودَفَّعْتُهُ، تحديداً، الثَّمَنَ من خِلال هِجْرانِهِ.

ولكنّه ظلَّ حَيّاً تِجَاه وضد الكُلّ. وهذا العِنَادُ الرافض للموت وللطاعة، انتهى به الأمرُ بِأنْ انتزعَ احترامي، وبأنْ أَيْقَظَ فِيَّ انتباهاً قَلِقاً وتَعَهَّدَهُ، وهو الانتباه نفسه الذي نُوليه للناجين من الكوارث. حينها بدأتُ إرساءَ طقوسيات مُوَجَّهة لاستمالة عزلةٍ مستعصية، منحوتة من ضربة رفض. بدأتُ أَتَذَوّقُ وأسحقُ كلَّ جمال في مُتَنَاوَل يدي بمثابة سخرية - مؤامرة؟ - أمام تهديدات التفكُّك والاختفاء. بَدأتُ إتلافَ كُلِّ أنواع الحنان قبل أن أَعْهَدَ بها، لاَحِقاً، لِعناية مُدَاعَبَاتٍ وقُبَل العُشّاق.

لقد كنتُ وصلتُ، في الحقيقة، إلى هذه المسألة البدهيّة، وهو أنني لَمْ أَمُتْ في سن الخامسة عشرة، ذلك المساء من الفاتح من نوفمبر. كل ما سوف يحصلُ لي، من الآن فصاعداً، هو انتصارٌ. المستقبلُ أصبح عملاً إضافياً. في هذا المساء الذي هو ذكرى انطلاقة الثورة الجزائريّة- كَمْ يبدو لي هذا التَعبيرُ منافِقاً وطَنَّاناً!- لم ينجحوا إلاّ في قتل الأوهام عن المجتمع فِيَّ. هذه الأوهام الاجتماعية التي حملتْ طفولتي أثناء الحرب. استنكار للحماقة والجُبْن اللّذَيْن يُهيّئان سَمَاد القَسْوَة. صفّارات الطبقات والطوائف والسراي والمجموعات والحُشُود وكلّ النقابات والاتّحادات، كشفتُ، إلى الأَبَد، سِرَّ المُخاتَلات والانحرافات. إقطعوا، كَسِّرُوا كل الروابط! هاتوا لي ما هو الأكثر رعونة.

ولكنّي لا أتحدّثُ أبداً عن هذه الحادثة، ألعاب نارية كانت مُبرْمَجة في ذكرى الاحتفال بفاتح نوفمبر. اجتمعت كل عائلتي في

مدينة «بشار»، عند عمتي، كي تشاهد هذه الاحتفالات. غادرتُ الثانوية في يوم العطلة هذا استجابة لطلبهم ومن أجل أن أُسَلِّمَ والدي مُرَتَّبَ شهر أكتوبر. ولكنّ لمْ تَكُن لديَّ أدنى رغبة في الاختلاط بالحشد الذي كان في عين المكان في الليل. فأنا أُفَضِّلُ البقاء في بيت عمتي. ولكنْ لم يَكُن في الوارد أنْ يتركوا فتاة في سنّ الخامسة عشرة وحيدة في منزل بالليل. اشتقتُ إلى غرفتي في الداخلية وإلى الباب الذي يُغْلَقُ خلف ظهري من طرف الشَّبَح الأسود الطويل للحارس. لقدْ قُضِيَ الأمرُ.

الساحةُ مُرَبَّعَةٌ وَوَاسِعَةٌ، ومُحَاطَةٌ بقناطر. الأمواج البيضاء من الحايك، أي خُمُر النّساء، تحتل نصف المكان. بينما يحتلُّ حشد الرجال الداكن، النصفَ الآخَرَ. كُنّا، أختي الصغيرة وأنا، الوحيدتَيْن غير المُحَجَّبَتَيْن. وبِمُجَرّد أنْ وَصَلْنَا حتّى تداعتْ إلينا كلماتٌ بذيئةٌ وأنفاسٌ مليئةٌ بفضلات الطعام. اندسَّتْ مجموعةٌ من الشباب الثَّمِلين وسط النساء كي تتمركَزَ خلفنا. كنتُ أقاسي من كلماتهم البذيئة وأنا أغلي ولكن دون أن أُبْدي تَذَمُّراً لأنّ دمدمات النساء اللواتي كنّ حوالينا كانت تَتَّهِمُنَا بكوننا نُعَرِّضُهُنَّ للعار والسوقيّة بسبب صَفَاقَتِي في حضور الاحتفال عاريةً في عزّ الليل. فكل من لا تَرتدي حِجاباً تُعْتَبَرُ عارية. إنه التعبير المستَعْمَلُ. وَضَعَ كبيرُ هذه المجموعة، وبتشجيع من اتّهامات النساء، ومن حثّ أصدقائِهِ الثَّمِلين، يَدَيْه على نَهْدَيَّ ثمّ قَرَص رِدْفِي. دُرْتُ إلى الوراء في خوف ودهشة. ووجَّهتُ له صفعَتَيْن مُدوِّيَتَيْن فيما تَكَفَّلَت ركبتي بِخِصْيَتَيْهِ. التوى من الألَم، وسقط على ظهره في أحضان أصدقائه. ردّي أثار غَضَبَ وَهَيَجَانَ المجموعة التي هجمتْ عليَّ، مُهَدِّدَةً

باغتصابي وبتقطيعي وتفجيري إلى شظايا، وإلى...

انْتَابَنِي الخوفُ، فالتقطتُ يدَ أختي واندفعتُ وسط الساحة في اتّجاه الزاوية التي يُفْتَرَضُ تَوَاجُدُ أبي وعمي فيها. كانت سُرعَتُنَا جامِحةً، بينما كانت الجماعة تُطارِدُنَا في غضب مُسْتَعِر، وكنتُ أثناءَهَا أتلقّى كل أنواع المقذوفات والضربات والشتائم. غير أن صَوْتَيْن أَطَلاَّ من خلال مَسَبّات هذه الأمسية الجنائزيّة. صوتُ المُصوّر الفوتوغرافيّ «بلال»، الذي صاح فيَّ: «يا «مليكة» من هنا، من هنا، بسرعة!» كان حانوته مفتوحاً، ويُطِلّ على الساحة. كان يَوَدُّ التقاطَ صُوَرٍ عن الألعاب النارية. وكان يعرفنا منذ صِغَرِنَا. وكان يَحْضُر إلى بيتنا لالتقاط صُوَر هويّتِنَا.

غِبْنَا، أختي وأنا، في حانوته. وما إن تَوَفَّرَ له، بالكاد، الوقتُ الكافي لإغلاق بابه الحديديّ حتى كانت الجماعة منهمكةً في تكسير الباب. تَكَسّر الزجاج بفعل رمي الحِجَارة. تطلَّبَ الأمرُ حُضورُ شاحنتين للشرطة من أجل إخراجنا من هذا المكان، مصدومَتَيْن وجريحَتَيْن ولكن على قيد الحياة. الصوت المهمّ الآخَر في هذه الليلة كان صوت شرطيّ شابّ. لقد تتبَّعَ المَشْهَد عاجزاً عن حمايتنا من هذه الجماعة. التحق بنا في مركز الشّرطة، لاَهِثاً ومصدوماً هو الآخَر. وهو الذي فسّر، في لحظة غضب رائع، ما حدث لعميد الشرطة المخمور الذي اتهمني بالدعارة. ولو أن رئيسَهُ أضاف تمتمة إضافية، كان سَيُحَطِّم رأسَهُ بسبب استنكاره وتَوَتُّرِه: «متوحشون! ما زلنا متوحشين! عشرات من الناس يُريدون رَجْمَ فتاتَيْن، خطؤُهما الوحيد هو أنهما رفضتا... ما زالت الثورةُ، الثورة الحقيقية، تنتَظِرُ من يقوم بها!»

لاَحِقاً ستقول أُمّي وهي تبكي: «ما كان عليكِ أبداً أن تُغَادِرِي صفَّ النساء!»

في اليوم التالي كانت كُلّ مدينة «بشار» تتحدث عن أنه تمّ العثورُ علينا، أختي وأنا، ونحن نَزْنِي مع الجنود. الحماقة لا يمكنها أن تتبدّى بِأشياءَ ممكنة التصديق. السنوات الثلاث المُتَبَقّية لي في هذه الثانوية، وفي هذه المدينة ستكون جحيماً. الشتائم والبذاءات تزدادُ قُوّةً.

لقد كَتَبْتُ هذه الفظاعة، بطريقةٍ أكثَرَ تفصيلاً في كتابي الأول «الرجال الذين يمشون». ولكنَّ السّرد في هذه الرواية تمّ عن طريق ضمير الغائب المفرد. هي امرأة أخرى، «ليلى»، من تَحَمّلت هذه الفظاعة. أَشْعُرُ بالحاجة إلى إعادة كتابتها هُنَا. هذا الكتابُ، بدون هذا المَشْهَد كان يبدو لي ناقِصاً. وأيضاً لأنّي أعرفُ، الآنَ، بأن هذا العنفَ لعب دوراً رئيسيّاً في حريتي القادمة.

مُتَمَدِّدَةً على سريري مساءات التمردات الكبرى، أَقْطَعُ اللسانَ في رأسي وأُبْصقُ كلَّ تعاقداته. أَعُضُّ التعابير الأكثر قسوة وأُقطّعهُا بِشَكلٍ دام جدًا. أشحذ السِنَّ والجَوَابَ. لم يُكْتَبْ بِأَنهُ ستَكُون لهم الكلمةُ الأخيرةُ. لَنْ تكونَ لهم هذه الكلمةُ أبداً. لهم خساسة أفعالهم. ولكنهم لن ينجحوا في إخراسي، فأنا أكثرُ قوّة منهم في الأجوبة. هذا يضايقهم. أستمتع بهذا.

هذه الدورة الغاضبة للكلام في ذهني، ليلاً، هل هي بدايات الكتابة؟ بلى. إنها بداية الإبداع. مثل كلّ كائن مُتَفَرِّد ومَحروم، ليس لي من ملجأ سوى هذا. لا أَحَدَ تحَدَّثَ لي عن التحليل النفساني.

التقيتُ بهذه الكلمة في خلال قراءاتي. ولكنها لم تكن سوى محارة فارغة. بالكاد شيء من الغرائبية. فضلاً عن أنني ما كنتُ لأعْشقَهَا. فعليّ أنا أن أَخْرُجَ من الصَّدَمَات، لِوَحدي. أتَعَلَّمُ أن أتَقَدَّمَ لأني أرفُضُ أن أموتَ.

«لا أعرف كيف استطعتُ أن أَسُلَّ نفسي من ما يُمكِنُ تسمِيَتُهُ أَزْمَةً، مِثْلَمَا نَتَحَدّثُ عن أزمة أعصاب أو أزمة بُطْء وانحطاط، مثلما يكون عليه نومٌ مُخْتَلَقٌ. العُزلةُ كانت تعني هذا. نوعاً من كِتَابَةٍ. والقراءةُ كانت هي الكتابةُ!» هكذا كتبتْ «ديراس» أيضاً في «الكتابة»، بِبَرَاعَة فائقة.

الظهورُ بمظهر جميلٍ، هو هذا أيضاً: تطبيعُ الجَسَد على لغة اللذة، التحدّي ضدَّ الانفجار الداخليّ. لأنّه «إذا كان الضحكُ هو أناقةُ اليأس»، فإنّ الأناقةَ هي الشَّرَف والنُّبْلُ.

حين تكون أعصابي وتفكيري في هذه الحالة، فأنا لا أستطيعُ قراءة أية رواية، حتى أثناء أقسى لحظات الأَرَق. وَحْدَهُ الشِّعْرُ يساعدني على الانفكاك، يُبْحِرُ بي ويبتَلعني. لأنّ قراءةَ هذا الجوهر هو الانخراطُ في قُوَّةٍ بنائيّة تنفجِرُ وتبْعَثُ إلى الوُجُود. هو غَمْس العقل إلى حدّ الاستنفار وتقطيعُهُ حتّى في الجحيم.



جسدُ جنحة

هنا

في يوم الأحد المُوافِق للثاني عشر من شهر فبراير من سنة 1995، في بداية الأمسية، هويتُ على مقعدي، وغرقت في البكاء حينما عَلِمتُ بِوَفاة «رشيد ميموني». خلال السَّنَتَيْن الأخيرتين، تَقَاسَمْنَا، «رشيد» وأنا، عدة بَرَامِج إذاعية، ولقاءات عمومية، أثارت إعجابي بِالرَّجُل. مأساة البلد، وحساسياتُنَا المسلوخة قرَّبتْ بيننا دُفْعَةً واحدة. قفزةٌ تدفعني إلى أحضانه بمجرّد ما أرَاهُ. يَحْضنُنِي بين ذِرَاعيْه ويَهْمِسُ في أُذُنِي: «يا جميلتي، يا أيّتها الأجمل!» أَسْتَمِدُّ مؤاساتي في عِنَاقِهِ، في حضور هذا الأخ في الصراع. إنّ اضطرار «رشيد» إلى مغادرة الجزائر، تحت التهديد، هو الذي تَسَبَّبَ في مَقْتَلِهِ! كان يعيش منفاهُ بِأَلَمٍ. منذ فترة قريبة، وأثناء تكريم «طاهر جاعوت»، حكى لي عن الصعوبات التي تعترض عيشه خارج البلد. فكان ردّي: «إنني أُفَضِّلُ أنْ أراكَ حيّاً تُزَرْقُ، هنا، بالرغم من المشاكل، على أن أراك مَيِّتاً في الجزائر.» لم يُقَاسِ من المنفى خلال فترة طويلة.

أستيقظُ في اليوم التالي، والروحُ مُلَوَّثَة، والجفنان مُتَوَرِّدَان من الدموع. يتوجب عليَّ وضع نظّارات سوداء كي أذهب إلى عيادتي في هيأة مقبولة. كنتُ منهمكة في علاج أول مريض، حين رَنَّ

الهاتف. أخذتُ السمّاعة، أسمع في البداية صوتَ وَرَق يتكمّشُ، تتبعه نوبة سُعَال رهيبة لشخصٍ يُشبه تَيساً في حالة هياج جنسيّ ثم صوت يقول: «سوف تموتين، أيتها الكلبة القذرة! سوف تموتين، أيتها الكلبة القذرة!

- هل تملكُ، قبل كلّ شيء، خِصْيَتَيْ رَجُل لتقول لي مَنْ أنتَ!»

أغلق الهاتف.

وضعتُ الهاتف أنا الأخرى بغضب شديد، ولكنْ قبل أن أصِلَ إلى طاولة الفحص عَاوَدَ الرّنينُ. الصّوت نفسه. الهياج الجنسيّ نفسه. التهديد نفسه: «سوف تموتين، أيتها الكلبة القذرة!» لاَ شَيْءَ آخَر. اللّهْجَةُ يَشُوبُهَا اختلالُ العقل وفيها شيءٌ من العَدائية. أتركُ جهاز الهاتف وأعود إلى شُغْلي دون أن أَنبِسَ بِبِنْتِ شَفَة. في الصباح، وكل مرة تنتابُنِي الرعشة عند أخذ السماعة، لا يُخَطِّئُنِي شُعُوري. دائماً هذا الكشط الذي لا يمكن تحَمُّله في الحنجرة قبل أن يُبْصق مَرَّتَيْن في أُذُني: «ستموتين أيتها الكلبة القذرة!» وهو يَخْفِرُ المَقَاطِع الأولى كضربة تمهيدية لمشروع الاغتيال.

في نهاية الفترة الصباحية، وما إن انتهت استشاراتي الطبيّة، تَهَاوَيْتُ على مقعدي، أخذتُ رأسي بين يَدَيَّ، وألقيتُ نظرةً حَذِرَةً على سمّاعَة الهاتف الموجودة دائماً بالقرب من المقعد. ولكنّ تَذَكُّرَ هاتِفٍ آخَرَ هو الذي يهجم على أفكاري. الهاتفُ الذي جاءني من مدينة «بشار»، من هناكَ، من الصّحراء، منذ ثلاثة أو أربعة أيام. لمْ يَأْتِنِي الهاتِفُ من وَالِدَيَّ، فَهُمَا لا يُهاتِفَانني أبداً. كما كان شأني، أنا أيضاً. مَهْمَا حَدَثَ. قفزتُ من الفَرَح حين تَعَرَّفْتُ على صوت

«فتيحة»، وهي فتاةٌ من ثانويتي الموبوءة. كنتُ دائماً أَغَارُ من «فتيحة» بسبب علاقتها الحميمة مع أبَوَيْهَا، ثمرة مُسانَدَة وحبّ غير مشرُوطَيْن. مستقويةً بهذا، ما كانت «فتيحة» لِتُؤَثِّرَ عليها عيونُ النَّهَابين ولا مُضايَقَات مُهَذِّبِي الأخلاق. وكانت أحياناً تسمح لنفسها بالسخرية منهم في سِرِّهَا. وكان هذا يمنحها وجهاً مُشِعّاً، وضَحِكاً من دون شقوق. في مثل ظروفنا كانت مِثْلُ هذه الطهارة الساطعة جُزْءاً من المُعْجِزَة. سعادةُ الآخَرين، إذَا ما نُظِرَ إليها وتَمَّتْ مُسَايَرَتُها بشكل يوميّ، تُلَوِّثُ وتُشَوِّشُ في آنٍ وَاحِدٍ... حين أصبحتْ «فتيحة» محاميةً، عادتْ إلى مسقط رأسها مدينة «بشار»، وأَنْجَبَتْ فيها. هَاتَفَتْنِي لتخبرني بأن أخي الأصغر تمّ اعتقالُهُ بسبب أنشِطَتِهِ في الخلايا الأصوليّة، وأضافتْ: «كُونِي مطمئنةً، إنه لم يَقْتُلْ أحداً. ولكنه كان يشتَغِلُ مُرَوِّجاً لأَفْكَارِهِمْ.» ستتكلف بالدفاع عنه، وَوَعَدَت بأن تَفْعَلَ المستحيل، وبوجه خاصّ الحرص على ألاّ يَتِمَّ نَقْلُهُ إلى «تطاوين»[14] وألاّ يختفي من دون أن يترك أيَّ أَثَر.

وُلِدَ أخي الأصغر بعد التحاقي بالجامعة. ولم أَرَهُ إلاّ خلال فترات نادرة، ودائماً بِشَكل سريع. ولكني أتذكر وِعَاء حليبه وكذلك شَعرَه المُجَعَّد وساقيْه غير الراسختَيْن والمرتبكتين في سريره. كيف يمكنني أنْ أَتخَيَّلَهُ بِلِحْية وقميص؟

نَقَلْتُ نظري إلى الهاتف وكَرَّرْتُ ما كنتُ قلتُهُ بعد سماعي لهذا الخبر: «ما الذي فعلناه؟!» وحين ذهب فكري إلى مُضَايَقَات الصباح، قُلتُ: «هذا الصوت الذي ينبح؟ ما بين سنّ السابعة عشرة

(14) تطاوين: مدينة حمامات في الجمهورية التونسية.

والعشرين؟ بالتأكيد، أقلّ من سنّ الثلاثين. إنّ شتيمَتَهُ، كلبة... مصدَرُهَا من هناك. هذا مرتبطٌ بموت «رشيد». المُصادَفَةُ فاضحةٌ. لقدْ شُوهِدْنَا معاً. إنّ هؤلاء البُلْهَاء يمكنهم أن يقولوا إنّ اللهَ تَكَفَّلَ بِسَحق «رشيد»، أَمّا هُم، فقد بقي عليهم أن يتكَفّلوا بالصديقة التي كانت تتبختر تحت أنوفهم. هُمْ؟ إخوان صغار؟ مَزّاحون؟»

لكنَّ عُنْفَ اللهجة للأسف، لم يَتْرُكْ قليلاً من الثقة للمَزْحَة. فانتهى بيَ الأمر، في بداية الأمر، إلى مُهَاتَفَة أحد جيراني. كنت أعرف أنه موجودٌ في منزله. فالتحَقَ بي. وقَصَصْتُ عليه الأمرَ.

– أعرفُ جنرالاً في قوات البرّ والحدود. سنأخُذُ رأيَهُ.

أنصت إليه الرجلُ، وطلب منه أن ينتظر بضع ثوان، الوقت الكافي للاتصال بالشرطة، ثمّ طلب منه أن أتحدث، شخصياً، معه:

– سيدتي، أنزلي الستارة الحديدية ولا تفْتَحِي البابَ لأحد. سيأتي من يبحثُ عنكِ.

كان يعرف من أكون. وكان يعرف مكانَ عيادتي وحتى الشباك المعدني الذي يُؤَمِّن الكُوَّةَ الزجاجية. وبتنفيذي لهذه الأوامر، كان يستولي عليَّ إحساسٌ قاسٍ بأنني دخلتُ، رغم أنفي، في رواية بوليسيّة رديئة.

كنتُ محميّةً من قِبَل أرفع الشخصيات في الجيش الفرنسي، وأَجِدُنِي في أقلّ من سنَتَيْن في مكتب المدير العامّ للشرطة تُؤَازِرُهُ شخصيات بَارِزَةٌ من المخابرات العامّة. على وجه السُّرْعَة تمَّ إرسالُ فِرقةٍ من الشّرطة لِتَفتيش حديقتي وفَحْص مَخارِجِ المنزل ومحيطه. ها أَنَذا في قَلْب خُطّة «فيجيبيرات». وَوَسَط أسئلَة تَبْحَثُ عن بعض الأَدِلّة سمعتهم يقولون لي:

- سيدتي، إنكِ لا تستطيعين العودة إلى منزلِكِ. تَلْزَمُنا ثلاث شاحنات شُرْطة لتأمين حمايتِكِ. لاَ بُدَّ أنَّ لكِ أصدقاء يستطيعون إسكانَكِ. وسيكون من الأفضل أن يَكونَ هؤلاءِ الأصدقاءُ بَعيدِينَ عنْ عالَم الثقافة. سنبعثُ معَكِ مَنْ يُرَافِقُكِ لأَخْذِ بعض الأمتعة...

دهشتي واستغرابي لم يتوقَّفَا عندَ هذا الحدّ، فقد عَهِدَتْ بي الشخصيات البارزة في الشرطة إلى كوميسير مُكَلَّفٍ بِتَدوين المعلومات التي تخُصُّ التهديدات والإساءات السّابقة، وينسحبُ لأَخْذ الاستشارات. وحين عادوا، تَلَوَّى المديرُ العامّ للشرطة على مَقْعَدِهِ قبل أن يَهْمِسَ:

- هل تَنَقُّلاَتِكِ كَكَاتبة تقودكِ في كثير من الأحيان إلى إغلاق عيادتكِ؟

- نعم...

- يُمْكنكِ أن تكوني مُسافِرَةً، مِن جديد، لبعض الوقت... ما أَوَدُّ قوله هو أنّ الأمرَ يبدو لاَ قِيمَةَ لَهُ، أَلَيْس كذلك؟

- نعم... ولَكِنْ... هل أنتم بصدد مطالبتي بإغلاق عيادتي؟

- فقط لفترةٍ تَسمَحُ لنا برؤية ماذا سَيَحْدُث. إنّ تَوَاجُداً بوليسياً في مكان عَمَلِكِ سَيُنْذِرُهُمْ. ونحن لا يمكننا أن نتركَكِ من دون حماية.

كُنتُ ما أَزَالُ مُندَهِشَةً لأتحقق من هَوْل الوضعية. لِمَاذَا سَيَقْلِبُ تَهديدٌ عبر الهاتِف حياتي إلى هذه الدَّرجة؟ لقد رأيتُ في حياتي أشياء مثلها. غيرَ أنّي لَمْ أَتوَقَّفْ أبداً عَنْ نَشاطَاتي، سُرْعَة رُدودِ أفعالهم وأهميّة أركان عامة الشرطة التي تَمّ تجميعُها بسرعة... هل

هو فقط من تأثير خطة «فيجيبيرات»؟ أَمْ هَلْ يمتَلِكون قرائن وشُبْهات؟ لقد أَخَافَتْنِي ردّةُ فِعْلِ الشرطة، لأوّل وهلة، أكثرَ مما أَخَافَتْنِي حِدَّةُ صوت الهاتف. عاوَد الرجلُ الحديث:

– سنُطالِبُ بإنابةٍ قضائيةٍ كيْ نقوم بوضع خطوطكِ الهاتفية تحت المُراقَبَة... يجب علينا أن نَتَصَرّفَ باستعجال وبِيَقَظَة وبِحَذَر، إذا كُنّا نُريد تحقيق نتائج. أنتِ تعرفين أنّكِ أوّلُ مستهْدَفَة في الجنوب. توجد بعض الحالات في باريس. ولكن...

أول حالة... نتائج... يَسْتَمِرُّ، أين يَجِبُ عليَّ أن أَذْهَبَ في المرة القادمة كَكَاتِبَة؟ التواريخ؟ من الضروريّ جداً أن أُخْبِرَهُم بِخَريطة طريقي. كلُّ شيء أصبح، بِشَكلٍ فجائيّ، ضرورياً واستعجاليّا. أين سَأُقيمُ؟ بطبيعة الحال، لدى «ماتيلد». أعطيتُهُ العنوان. فقام بإيصاله إلى أفراد شرطته. بعد فترة وجيزة، بدأ هاتِفُ الشخصية النافذة يَئِزُّ. فَقَبِلَ أن أسكن هناكَ. «عمارة تَقَعُ في مكان جيد، ومن السهل حِرَاستُهَا.» تحتلُّ «ماتيلد» الطابق الثاني والأخير. وهي ليست على عِلْمٍ بِهَذا بعدُ.

في نهاية المطاف، لستُ خائفةً. بل إنني أعترفُ ببعض الاعتزاز لكوني معنيّة، عَنْ قُرْب، بِالخَطَر الذي يَضْرِبُ البَلَدَ. ولكنّ إغلاق عيادتي يُقَلِقُنِي. لقد عشتُ هذا وكَأَنَّهُ استسلام. طلبتُ بَضعَ ساعاتٍ للتفكير. الوقت الكافي للذهاب لتجميع بعض الحاجيات والذهاب للاستقرار عند صديقتي. رَافَقَتْنِي مجموعةٌ من الشرطة إلى منزلي وتَفَحَّصُوا داخِلَهُ بينما كنتُ منهمكةً في نقل أثاثي. أجهلُ الفترةَ التي سأقضيها خارجَ منزلي. سَتَتَفَتّحُ بَرَاعِمُ أشجارِ اللّوْز. ولن أكونَ هنا كي أَتَمَتّعَ بِمَشْهَدِ ازْهِرَارِهَا.

بِمُجَرَّد أَنْ عَادت كبريائي إلى حظيرَتِها، اكتشفتُ أنَّ إغلاقَ عيادتي حوالي عشرة أيام كان حظًا غيرَ مُنْتَظَر. لقد كنتُ بصدد الانتهاء من كِتابَة رواية «أحلام وقَتَلَة». سأستطيعُ أن أَعْكِفَ عليها بلا انقطاع. نَاشِرُ كُتُبي كان يُجَنُّ وهو يقول: «يجب أن تُخْبِرِي الصَّحَافَةَ بِمَا حَدَث. فكلما كان الخبرُ منتشراً، كان عندنا اليقينُ بأنَّكِ فِي وَضْعٍ آمِنٍ.» فكرةُ النَّاشِر جعلتْنِي مُضْطَرِبةً، فَرَفَعْتُ صوتي وقلتُ بلهجة قاطعة: «ليسَ وارداً أبداً. ليست لديَّ رغبةٌ في تَحَمُّلِ الآثار الشاذّة من خلال وَضْعِ وَسَائِلِ الإعلام في محيط ما يحدث لي. وفوق كلّ شيء لا أريد أن أعطي الانطباعَ بأنني أَدِينُ لِمَا يَحْدُثُ لي في بيعِ كِتَابٍ وَاحِدٍ من كُتُبي!»

بعد فترة صمت، هَمَسَ بِرَنَّة فيها شيءٌ من الحنان الحزين: «كانَ عليَّ أنْ أفكر في هذا... أنت شخصٌ يتعذّر تغيير رأيه.»

حينَ وضعتُ أثاثي في الغرفة المُجاوِرَة لغرفة «ماتيلد»، فَكَّرْتُ في التكلفة الأخرى للكتابة، فكرت في كلّ التبعات التي لا نرتابُ فيها في اللحظة التي تحدث فيها، طاردة العزلة بالصوت الحميمي.

إحدى الترجيعات جَذَبَتْنِي من هذا التفكير. قذفتْ شُبَيْكَة من الفسفوريّات على حيطان الغرفة ثمّ اختَفَتْ.

نظرتُ بِشُرود إلى الزجاج المزدوج للنوافذ، مددتُ أُذُنِي، فأنا مُعتَادَةٌ على صمت كما في منزلي. فهل سأستطيعُ أن أنامَ هنا؟



شبكة
صخب أنثى
الأدبية
www.xx5xx.com

هناك

إنها بدايةُ فَصل الصَّيْف. صيفي الأخير في الصّحراء. لقد سبق لي أن ذهبتُ إلى كليّة الطبّ في جامعة وهران للتّسْجِيل. ركبتُ الطّائِرَةَ. القفزة الكبرى. أقمتُ خِلال عدة أيّام عند إحدى العمّات، فقد كان أَبَوَايَ لا يَقْبَلان أنْ أَظَلَّ بعيدةً عنهما لِفَترةٍ طويلةٍ. عدتُ من هذه الزيارة مُنْهَكَةً، غير أنّي أنامُ بِدَرَجةٍ أَقَلّ. أجهلُ السَّبَبَ. أحياناً يبتهج قلبي. حينَهَا يَتَرَنَّحُ الأُفُقُ قليلاً. فأقول لنفسي إنَّ السَّبَبَ راجعٌ لكوني اجْتَزْتُهُ.

بسبب هذا الرحيل ذهبتُ إلى المَقْبَرة. لم أَكُنْ زُرْتُهَا بعدَ الأزمة التي تَسَبَّبَ فيها رَحيلُ جَدَّتِي. عَلَيَّ أنْ أستريح هذا اليوم. الفضاءُ مفتوحٌ، مِنَ الآنَ فَصَاعِداً. سأستطيعُ أخيراً أنْ أَعْرِفَ البُعَادَ الجسديّ. وإلى هذه اللحظة لم أَكُنْ أَعْرِفُ شيئاً عن المَسافَات. لَمْ أَكُنْ أعْرِفُ سوى المَهَاوِي -الجغرافية والعاطفية- التي تُحيطُ بِي والتي تُصفّحُ الزَّمَن، وتضع في كلّ شيء قسْوَتَهَا كما تُبْهِرُ بضيائِها.

في نهاية النهار، وحينَ خفّتْ حَرَارةُ الشَّمس، حَاذَيْتُ الكثيبَ إلى هذا المكان، جلستُ بجانب قبر جَدَّتِي. لقد مرَّت ثلاث سنوات على وَفاتِهَا، تَارِكَةً إيَّايَ يتيمةً. نعم أنا يتيمة. يتيمة بشكل رهيبٍ

وإلى الأبد. إنه اعترافٌ مُضنٍ بالنسبة لِمُرَاهِقَة. ولكنْ حين تمّ وضعُ جسَدِهَا الصغير في القبر، وحين بدأت التربة المجروفة تغطّي كَفَنها، هذا ما أحسستُ به. في أعماقي وفي أصدق شيء فيَّ. شعورٌ فظيعٌ بالنسبة للبنت البِكْر في عائلة ما زالت على قيد الحياة، في أُسْرة تتكون من عشرة إخوة.

منذ هذه الوفاة، ولأني أعرفُ، الآن، أنَّ أيّ استعباد يمكنه أن يمنعني من وُلُوج الجامعة، لم أَعُدْ أقول شيئاً لأيّ أحد. لم تَعُدْ لديَّ رغبة في مواجهة وَالِدَيَّ ولا في التسبب في معاناتهما. لم تَعُد لديّ أية رغبة في رؤية أُمّي وهي تَرْتَعِدُ وتَثُورُ، وكأن السماء ستهوي على رأسها كُلَّمَا فتحتُ فمي. لقد غادرتُ صفَّها، بصفة نهائية، في ذلك المساء من فاتح نوفمبر. اشتريتُ حريتي، بفضل تَرَاكُم مُرَتَّبَاتِي. مِثْل أَمَةٍ. حريتي ووحدتي. كلاهما معاً. فكلاهما، بالنسبة لي، شبَّا معاً في هذا المنفى الرائع: المعرفة. المعرفة بالنسبة لي هي منفاي الأول. المنفى الأوحد لأنه لا رَجعة فيه. لأنها أخرجَتْنِي من تاريخ جَامِدٍ في ليل الزمن كي تدفعني وحيدةً، محرومة، وجه مفتوح على طريق هذا النصف من القرن العشرين المُعبَّدَة الذي ما زال عَصِيّاً عليّ. ما زال مُعارِضاً لي في معظم الأحيان. مفهومُ المنفى لا يمكنُهُ أن يَرتَبِط بأرضٍ مَا بالنسبة لأجدادي الرُّحَّل. كانت تعني الإقصاء الإرادي أو المفروض من مجموعة عائلية. وفي هذا الجانب، على الأقلّ، فأنا أُشكِّلُ امتداداً لهذا الشّعور وهذه الذاكرة.

إنّ تمييزات وَالِدَيَّ هي التي سبَّبتْ عصياني وغذّت ارتباكي وانشقاقي قبل أيّ وَعْيٍ بالتمييزات الاجتماعية. فهي التي قذَفَتْ بي في سلّة الكتب، في هذا البحث الشديد عن أجوبة-كلها بعيدة

الاحتمال – لِتَسَاؤلاتي. إنّ العطشَ العاطفيّ والتمييز والخيانات الأولى والإهانات الأولى، رفعتْ حِدَّة مِزاجي. لاَحِقاً ستُوَضِّحُ أشكالُ العُنف التي عانَيْتُهَا في ذلك اليوم الموافق للفاتح من نوفمبر مَدَى عُزلَتِي وانْجِرَاحي. شيءٌ مَا غيرُ قابل للانعكاس حدث في ذلك الوقت. شيءٌ مَا كان قد تكسَّرَ فِيَّ، وهو مفهومُ الرباط، نفسه، الذي كان قد أصبح واهٍ جدّاً لكثرة ما تمّ تمطيطُهُ ولَيُّهُ ومعاملته بِقَسوةٍ.

من خلال النظر إلى هذا المنفى، فإن عُبُور حُدودٍ وبِحَارٍ تُمَثِّل، بالأحرى، خلاصاً. الصفاء يأتي من الإمكانيات التي تستطيع الأمكنة الأخرى العذراء لهذا الماضي أن تُساعِد على إعادة بنائها. أُومِنُ بهذا. لقد هَزَمَ أَمَلِي الشِّدَّةَ، دائماً. لا أملكُ سِوَى هذا لأَشُدَّ عليه في قبضَتَيَّ.

أمّا الآن فقد صفا قلبي من الحقد. ولكنّ صفاءَ ذهني أَرْسَى الصَّمْت كَمَسَافَةٍ أُخرى. يَستحيلُ تَخَطِّيها إلى الأبد.

وحتى علاقاتي مع عمّي، الذي كنتُ أُحِبُّه كثيراً، أصبحت الآنَ عبارة عن لاشيء تقريباً. فَهُوَ أبٌ لِعائلة كبيرة العدد يعيشُ في المدينة بأعباء ومسؤوليات أخرى. أنا أُوجَد تحت تأثير مَنْفَذ صَمتٍ وبُطْء. مثلَ منفصِلَةٍ عن نفسي، في هذا الجزء الذي مات في داخلي منذ ثلاث سنوات، في ذاتَ مساء من شهر نوفمبر، في الزعيق والشتائم وإلقاء الحجارة، على ساحة «بشار». موتُ جدّتي أنهى شُغُورَ التَرِكَةَ هذا.

أَجِدُ بنفسي مكاناً بالقرب من قَبْرِهَا. أرفع رأسي صَوْب الكثيب. هَذا الكَثيبُ هو جدّتي، شيئاً مَا، في الوقت الحاضر.

كلامُها حَرَثَ كثيراً هذه التضاريس. ما زلتُ أحتَفِظُ عنها بالتقطيع الشِّعري في أُذُنَيَّ. أَغْرِسُ يَدَيَّ في تُرابِ قَبْرِهَا وأعرفُ أنني سأستطيع أن أَتَصَرَّفَ بحرية في العالَم الذي ينتظِرُنِي. تقدَّمْتُ، في مدينة «وهران» إلى مفتّشية الأكاديمية للبحث عن عمل آخر يُوازِي دراساتي. تَمَّتْ طَمْأَنَتِي بأنني سأَحْصُلُ على هذا الشُّغْل، وبأنهم سيحاولون العثور على أوقات عمل تُناسِبني. ثمّة نقصٌ فَادِحٌ في عَدَدِ المُدَرِّسِين.

هَلْ عيبُ النَّوْم- الذي أصبح أكثر قسوة معي في الأيّام الأخيرة- هو الذي جَعَلَنِي أَتَذَكَّرُ، فجأةً، هذا الحوار الذي جَرَى مع جَدَّتِي قبل حَوالَيْ عشر سنوات؟ أنظر إلى الكثيب وأسمع جدتي وهي تسألني في ذلك اليوم: «لِماذا لاَ تنامين؟» حَيَّرَنِي سؤالُهَا، نظرتُ إليها دون أن أُجِيبَ. لَمْ أَنْظُرْ أبداً إلى هذا الأمر من هذه الزاوية. فَنَوْمُ الآخَرين، بالنسبة لي، هو الذي لا أفهَمُهُ. نومُ الآخَرين هو الذي أَتَّهِمُهُ بِالتَّآمُر: لماذا ينامون، كُلُّهُم، في الوقت نفسه؟ هُمْ موجودون هُنَا، يُوَحِّدُهُمْ الرِّباط نفسُه ولكِنَّهُمْ غائبون عنّي. إنّهمْ موجودون، هنا، فقط لِيُشْعِرُوني بأنهم في مكان آخَر، معاً. هم معاً، مِنْ دوني. أَشْعُرُ بِرُعب غامض: كيف يستطيعون أن يناموا خلال فترة طويلة؟ كيف يَتَحَمَّلونَ النومَ بعضهم مُتَشَابِكٌ بالبعض الآخَر؟ فهل سيستطيعون أن يستيْقِظُوا؟

ما كانت عينا جدتي لِتَنْتَظِرَا الجوابَ الذي ما كنتُ لأَعثُرَ عليه. هل كانت لِتُخَمِّنَ البلبلة التي سيُسَبِّبُهَا لي سؤالُها المعكوسُ. انزلقتْ عيناها ببطء، واتَّجَهَت صوب مكان الكلمات البعيد. وعاودت جدّتي الحديث:

«كَمْ كان عمري حينَ حدث ما حدث؟ كان أصغر منكِ بقليل. فارق بسيط. كان عمي ما بين الرابعة والخامسة. ظلَلْنَا وَحدنا، أمّي وأخي الذي كان في عمر الرضاعة وأنا. لم أعُد أتَذَكَّرُ المُهِمَّة، القصيرة الأمد، التي ذهَبَتْ لأجلِهَا العائلاتُ الأخرى. مهمة استغرَقَتْ يومَيْن أو ثلاثة أيّام. أبي كان قد قَصَد السوق الذي يبعد بِضْعَ ساعات سيراً على الأقدام من مكان إقامتنا. استيقظ قبل الفجر وَوَعَدَنَا بالعودة قبل طعام الغذاء. عادةً، حين تكون كل العائلة مجتمِعَةً، كانوا، أربعة أو خمسة رِجال، يذهبون لشراء المؤونة ولا يعودون إلاّ في نهاية النَّهار.

كان منظرُ خيمَتِنَا المعزولة حيث بدأ رَمْلُ الصحراء الأحمرُ في قضم سهب الحَلْفَاء يثيرُ شقائي. وكان وَطْءُ الصمت ثقيلا. نقصُ الضوضاء العائلية، وغياب الأطفال الآخَرين وكذلك غياب باقي القبيلة كان يُفقدني معرفة الاتجاهات. لم يَبْدُ لي، من قبلُ، المدى الشاسعُ عاريا إلى هذه الدرجة ومُهَدِّداً إلى هذه الدرجة. فجأة لَفَّتْنِي رائحةٌ مُغْرِيَةٌ. كنتُ جالسةً في الخارج، أمام الكانون، بجانب الخِبَاء، وكانت أُمّي منهمكةً في طبخ الفطائر.

استنشقتُ الهواء عميقاً. بشكل مُفاجِئ غلَّفَ السماءَ والأرض عبير ونَكْهَة الخبز الساخن.

ربّما كان الوقتُ بداية فصل الربيع أو أواخر فصل الشتاء. الشمسُ كانت تَقتَرِبُ من ذروتها دون أن تكون قارِصة. كنتُ جاثمةً على أَكَمَةٍ، وكنت مُرْتَبِطةً بها عبر هذه الرائحة، أُراقِبُ حركاتِ أُمّي، مُسْتَمْتِعَةً بِوُعودها. «زهرة، تَعَالَيْ!» أسرعتُ في اتجاهها. «عندي أَلَمٌ في رأسي. أَحْضِري لي منديلي.» شدَّتْ به صُدْغَيْها ثم

تَمَدَّدَتْ، حيث كانتْ، على مقرُبَة مِن الكانون. لم أَنْتَبِهْ للمشهد، فقد كانت تشتكي دائماً من صداع الشقيقة. التحقتُ بِمَجْثَمي، حين تناهى إليّ شخيرُها. كان الأمرُ غيرَ عادي، فلم أسمعها أبداً تشخر من قبل. كان ثمة شيءٌ غريبٌ في صوتها أيضاً. هذه التحذيرات كَنَّسَتْها، بسرعة، ضغينةٌ قَلِقَةٌ. فكيف يمكنها أن تنامَ في هذه الساعة من النَّهَار، وفي هذه الوضعية الخاصة، تاركةً إيايَ وحيدةً؟

فجأةً انتزَعَتْنِي صَرَخَاتُ أخي الأصغر من هذه الهواجس. لم تَتَحَرَّكْ أُمّي. كنتُ ممتلئةً من الحَنَق ومن الشفقة على الرّضيع، فَقَرَّرْتُ هزّ جَسدِهَا. لم يستَجِبْ جسدُهَا. وجدتُ الأمرَ أكثرَ غرابةً من السابق، ولكني كنتُ عاجزةً عن معرفة السبب. وبما أن صَرَخات أخي كانت تَتَضَاعَفُ، ذهبتُ لإحضاره من داخل الخباء ووَضَعْتُهُ بالقرب من أُمّي. ومع صُراخات هائجة، بدأ يَحُكُّ وجهَهُ النَّاعِمَ بِثَدْيِهَا المُكْتَظّ الذي كان يَفيضُ قليلاً عن تكويرة القستان. وانتهى الأمرُ بوجهه الناعم إلى أن جَعَلَ حلمة ثديِهَا تتدفَّقُ. التَقَمَ الحلمة، وتوقف، حالاً، عن البكاء. وبعد أن شَبع نام هو الآخَر، وفمه ممتلئ بحلمة ثدي أُمّي، ويده الصغيرة موضوعة على محيط الثدي.

جلستُ مُعطية ظهري لخاصرة أُمّي وأنا أترصَّد عودة أبي وامتلأت عيناي كثيراً بالدموع بسبب ما أحسستُ به من هجران وتخلّ. وأخيراً جاءني الارتياحُ حالما لمحتُ شَبَحَهُ في الأفق، وأسرعتُ للقائه، وأنا أقول: «إنّ أُمّي نائمةٌ، ولا تريد أن تتحركَ قط! - كيف انها لا تريد أن تتحرك قطّ؟» تَنَاوَلَ يدي، وأَسْرَعَ الخُطَى وهو يناوشني بأسئلته. وأخيراً جرى وأنا في أَثَرِهِ.»

عادتْ عينا جدتي إليَّ:

«هل فهمتِ الأمر؟ أمّي كانت ميتة. إنّ ما أثار فضولي هو كونها لم تَتَنَفَّسْ قطّ. لم أكن أعرِفُ ساعتَهَا ما الذي يعنيه عدمُ التنفس ولا الموتُ. كان أخي ما يزال نائماً بصدرها، وكانت شفتاه اللتان ما تزالان ضاغطتين على ثديِهَا تمنحانه وجهاً شَرِهاً... بعد هذه الحادثة، نمتُ طوال الوقت، وحتى أثناء النهار. وقد اعتَقَدَ أهلي، لفترة طويلة، أن مرضَ النوم أصابني. أما أخي، فقد فَارَقَهُ النومُ. كان يصرخُ ليلا ونهاراً، وما كان أيّ ثدي بِقَادرٍ على إشباعه... ولم أتغير إلاّ حين رُزِقْتُ بأول أبنائي، وهو عمك، في سنّ الثانية عشرة. أخي ظَلَّ الأرق يلازمه. خلال سنوات حُكِيَ لي بأنّ الرُّضّع لا يبكون إلاّ من أجل منع أُمَّهَاتِهِم من الموت ولكنهم لا ينجحون دوماً. وكنت أقفز لدى أول صرخة لأبنائي.

ولكنْ أنتِ لماذا لا تنامين؟»

نظرتُ إلى جدتي، وقد أصابني الاضطراب، وأجبتُهَا بتلقائية:

«لأني لا أعرف أن أنام. - أنتِ لا تنامينَ لأنّكِ عطشى، ولا تعرفين أنتِ سيجدُ عَطَشُكِ ضَالَّتَهُ.»

أنهضُ، أتأمّلُ القُبّةَ الصغيرةَ لِرَمْلِ القبر:

- نامي جيداً، فأنا قدمتُ لأقولَ لكِ بأني سأرحَلُ أخيراً من هنا.

هنا

هذه الحادثة، حادثة موت جدّتِي، تحدثتُ عنها في روايتي الثانية «قَرْنُ الجَرَاد»، وَصَفْتُهُ كما شهدتُهُ. يَرِدُ الموتُ في الرواية على شكل جريمةِ قَتْلٍ. بعد هذه الصدمة لا تَصِيرُ اليتيمةُ نائمةً ولكن بكماء، إلى حدّ هذه اللحظة، أنا أيضاً لم أتحدّثْ عن الخوف الذي تَسَبَّبَ لي فيه عُنفُ المَحكيِّ الجَميلُ. لقد ساهمتِ الكتابَةُ في انبثاقه وقامت في حبْكِهِ على شكل جريمةِ قتلٍ، ناقلةً انفعالَ الطفولة إلى مُسْتَلْزَمَات الخيال.

لماذا فكرتُ في هذه الأشياء، هذا الصباح؟ حينما فتحتُ عيْنَيَّ؟ السؤالُ الذي يُلاَمِسُنِي لَمْساً خفيفاً دون أن يَحُثَّنِي، في شيء، على البحث عن السَّبب. أَعْرِفُ أن ذكريات الاستيقاظ غيرُ متوقَّعَة أو مُضْحِكَة مثلها مثل أحلام الأَرَق. وضعيةُ النوم تَستَدْعِي المَتَاعِب والمَشَاعِر التي قامت أنشطةُ النهار بالتشويش عليها. الحياة تستعرض نفسَهَا في ملجأ الليل. تَمَّ تفتيشُ كُلِّ شيءٍ وتَضمِيدُهُ وإعادة التفكير فيه في جَسَد الظلام المُنْهَك. فَهَلْ رُبَّمَا يُوجَدُ هنا أحد أسباب أَرَقِي: خِداعُ ما هو مأساوي بِضَرْبَةِ تَبَاهٍ وتبجُّح، التهام رأسِه بِقُوَّة التحديّات، دفعه بكلماتٍ بعيدةِ المَنَال وقَلْبِهِ وتحطيمِهِ إلى أن يَسْقُط

بالضربة القاضية. ثمّ تجاهله من أجلِ كِتَابٍ. ولكن ليس عليَّ أنْ أُغمض إلاّ عَينا واحدة وليس أبداً خلال فترات طويلة، أحيانا، كي لا يستعيد العادَةَ المُستَهْجَنَة لِيَنْقَضَّ عليَّ ويُمسِكَ بِخِنَاقي. وحدَهُ الليلُ، وظلامُهُ وتفكيكاتهُ يُنَاسِبُ أسطورةَ الإنجازِ هذه. يقول «سيوران»: «الأَرَقُ هو بُطولةُ السرير». وبالنسبة لي فإنّ الأَرَقَ هو رقصةُ المُتَمَرِّدِين.

أتقلب في السرير، واكتشف بأنني موجودةٌ في منزل «ماتيلد»، أصيخ بِسمعي لصوت المدينة. العزل الذي تتوفر عليه الشقَّة يمنحها هدوءاً مخفضاً للصوت، التحوّل في حُضُورٍ مُقَوٍّ.

- هل استيقظتِ؟

كانت «ماتيلد» في كامل لباسها وقد احتذتْ جَزْمَتَهَا، وجاهزة للالتحاق بعملها. دخلتْ إلى غرفتي وفتحتْ مصراعَ الشبّاك. فَغَرِقَ السرير في أشِعّة الشمس.

- القهوة ساخنةٌ. وقد تأخر بيَ الوقتُ. سأنطلق بِسُرعة. اشتَغِلي جيّداً. نلتقي مساءً!

أدفَعُ الشَّرَاشِفَ، أنهض من فراشي، أتسلق درجَ الشقة ذات الطابقَيْن، وأدخل الصالون. المطبَخُ يوجد في أقصى الصالون. مجموع المنزل ينفَتِحُ على سطيحة كبيرة. ومِنْ بعيد يُغَبِّرُ الضياءُ الوُرُودَ بِتَشَابُك القرميد في سُقُوف وَسَط «مونبوليي» ويُلَوِّنُهَا بألوان قوس قُزَح.

وجدتُ بجانب إبريق القهوة كأساً كبيرة من عصير البرتقال هيّأَتْهُ من أجلي «ماتيلد». تناولتُ كأس قهوة، وخرجتُ إلى السطيحة،

وأنا أتفحَّصُ الشارع والسقوف: «أين يختبئ أفرادُ الشرطة؟» ثمّ اتجهتُ، كأس القهوة في يَدٍ وعصير البرتقال في اليد الأخرى، إلى جهاز الكومبيوتر الذي كان موضوعاً على طاولة الصالون، وأشعلته وبدأت أشتغل على نصّ: «أحلام وقَتَلَة». لا يمكن لأيّ تهديدٍ أن يرغمني على الصمت. الأصوليون من كلّ نوع لن يكونوا سوى غِلمان أمام تأثير الكلمات.

في المساء، عند عودة «ماتيلد» كنتُ ما أزالُ ملتصقة بنصّ روايتي. كان جسدي مُكَزَّزاً. لَدَيَّ الانطباعُ بأنّ شاشة الكومبيوتر قامت بِكَسْر قَفَصِي الصَّدْرِيّ. فأنا أكتبُ بأسلاكها الموصولة بأعصابي. أكتُبُ بِدَفقات دَمي. وحين أنجحُ أخيراً في التخلّص من هذا الجُرْح، فإني أظَلُّ مترنِّحَةً، لفترةٍ طويلة.

في معطفها، تُراقِبُني «ماتيلد» تحتَ حاجِبَيْها بهذه الهالة المَيَّالَة إلى هذا المزيج من التَمَرُّد ومن اللَّوم الذي أعرفهُ عندها:

– هل تَوَقَّفْتِ خلال بعض الوقت من أجل تناول الطعام، يا «نين»؟

هذا التعبيرُ الممتلئ بالحنوّ، «نين»، يُضيءُ رأسي دائماً. هي كلمةٌ كاطالونية. فـ«ماتيلد» من أمّ كاطالونية وأب من منطقة «بروتانيا» الفرنسية. مزيجٌ صاعِقٌ. ورداً على علامةِ إنكاري أنا، قالت:

– مِنَ الغدِ، سأعود إلى البيت لأتغذى معكِ. أما اليوم، فأنا مشغولَةٌ باجتماع ما بين منتصف النهار والساعة الثانية بعد الزوال. إنّ توقفاً قصيراً عن العمل سيعود عليكِ بالنفع الكبير. وأخيراً، أنا أفهم نفسي... أعرفُ بأنّ الكتابةَ هِيَ راحتُكِ الكبرى.

«ماتيلد» هي أوّلُ مَنْ ضَحِك من تعبيرها: «وأخيراً أنا أفهم نفسي..» دون أن تَنْجَحَ في العُدول عنه. إنها تكتَفِي بالضحك في كلّ مرّة. بهذا العِنَاد الذي يُمَيِّز مِزاجَها، فإنّ «ماتيلد» انتهتْ، دون شكّ، إلى أنْ تُقْنِعَ نفسَهَا بهذا الأداء. وهو رُبّمَا ما يُفَسِّرُ لماذا تمتلكُ حبّ العناية بالتائهين، هذا الاهتمام للاختلافات وللتّمَايُزَات.

حَوّلتُ هاتِفَ العيادة إلى خطّ «ماتيلد» الهاتفيّ، وَوَصلتُهُ بِمُجاوِبٍ آلي يُعلِن، باللغتين الفرنسية والعربية، عن غيابي لفترة تُقارِب عشرة أيام، وأَزْلَجْتُ الصمت عن كلّ هذه البلبلة. البارحة، وضعتُ لافِتَة على بابِ قاعةِ الانتظار. أغلب المرضى يأتون دون أن يُهاتِفُوا بشكلٍ مُسْبَقٍ. من لا يَعْرِف القراءة، وهُمْ الأغلبيةُ، يَسألونَ التُّجَارَ المُجاوِرِينَ. «آهِ! إنها ذهبتْ لِتَلْعَبَ دورَ الكَاتِبَة. إذاً، فَهِيَ سَتَعُودُ غداً.» التظاهر بالكتابة كما يمكن أن نَتَظَاهَرَ بِالحُمّى؟ والعودة من الكتابة كما نخرج من سريرٍ بَعْدَ شِفَاءٍ مِنْ مَرَضٍ مَا؟ هذا التَصَوُّرُ بعث في نفسي الابتسامة. لأنّ الكِتَابَةَ مثلها مثل مهنة التّطبيب هي نقيضُ التّظَاهُر والاصطناع. فَكِلاهُمَا يَتَعَلّقُ بحدودِ ما هو أساسيّ وضَروريّ للحياة، وكلاهما يَفْتَرِسُ، بطريقةٍ متغطرسة، الحياةَ بِأَكْمَلِهَا، هذا الحياة المُثبَّتَة مُسْبَقاً.

مَرضاي، باستثناء مَنْ يخضعون لمَشَاكل خَطِرَة، ينتظرون دائماً عودتي، فهم مُتَعَوِّدون. فيما مضى، وخلال فترةٍ طويلةٍ، بَحَثْتُ، عَبَثاً، عن طبيبة تأخذ مكاني، تتحدث العربيّة. طبيبة تَحُلُّ مَكاني كان بإمكانها أن تكون مُناسِبة تماماً. لا طائل! فقد أقنعني استطلاعٌ قمت به لدى مرضاي بأن أتَوَقّف عن هذا التنقيب عن الزبائن: «ليسَ

من الضروريّ، لدى أيّ مَرَض، الإسراع إلى تناول دواء.» شيءٌ من الثقة أو المواجهة، أحياناً، يكفي لِدَفْعِهِ. ثمّ إنَّ الألَمَ الدائم ليس في عَجَلَةٍ من أمرِهِ، لأنّهُ يَظَلُّ طوال الحياة. لهذا فنحن لسنا محتاجين إلى أحدٍ آخَر، لا نعرفه، ليكون في مكانكِ حين تَذهبين. إننا سَنَنْتَظِرُ، هذا كلُّ ما في الأمر. لا يمكن تعويضك. رفيقي، هو الآخَر، كان قد أعلن هذا. ومع ذلك!

هاتفي الخاصّ وُضِعَ على اللائحة الحمراء مع مُجَاوِب. ولمّا كنتُ أعرف أنه يُتَصَنَّتُ عليّ، فقد تَجَنَّبْتُ مهاتفة أيٍّ كان. لم تكن لديَّ أدنى رغبة في قصّ حكايتي على رقباء شرْطَة مجهولينَ يترصّدون في غرفتهم الصّغيرة الضيقة.

قالت «ماتيلد»، بقلق، أثناء طعام العشاء:

– ألاَ يتوَجَّبُ عليكِ أن تقومي باستبدال الشبابيك الخارجية؟

– بلى. ولكن سواء كانت جديدة أوْ قَوَّضَتْهَا تقلُّبَات الجوّ، سيان عندي. إنها هشّة جداً. فضلاً عن أنني لا ألجأ أبداً إلى إغلاقها، لأني أَنْزَعِجُ من استيقاظي في منزل مُعتم... وما دام ثَمَّةَ خَطَرٌ، فإنّهُ من الأفضل وضع شبابيك.

– فِكْرَةٌ مُمتازةٌ، يا «نين»، فمنذ فترة طويلة تراودني فكرة اقتراح الشبابيك عليك. لَنْ يُكَلِّفَكِ الأمرُ كثيراً، ولكنْ على الأقلّ، ستعيشين في هدوء إلى الأبد! وعلى كلّ المستويات.

– هل تَعْتَقِدين هذا؟

– نعم! أخيراً، سـ...

وأَغْرَقْنَا معاً في الضحك.

- إلاّ أني لا أريد أن يأخذ بيتي صورةَ سِجْنٍ بِقُضبان من كلّ النواحي.

- خذي الوقت الكافي لدراسة هذه الأشياء. ولكن عليكِ أن تستفيدي من هذا الغياب لِتَجَنُّبِ بداية الأشغال لدى عودتكِ إلى منزلِكِ.

متمددةً، كنتُ أُفكّر في كل الأشغال التي حدثت في منزلي في سَنَةٍ. ضرباتُ فأسي على ألواح السرير شَكَّلَتْ بِدايَةَ عاصفة من الدبابيس ومن المَطَارِق ومن المناشير وآلات أخرى من مختلف هيئات الحِرَفِيّين وهي تُكَسِّرُ المطبخَ ومَغسِل الثياب والمرحاض... تدميرُ الذاكرةِ المُراوِغَة للأشياء. سَحْقُ أَمَاكِنَ ذكرى أصبحتْ مُؤْلِمَةً. التكسير من أجل إعادة بناء على ذوق واحد. التحطيمُ من أجل إعادة الأشياء إلى ما كانت عليه. الإيمانُ بِإِرَادة الإصلاح في ذاته، ومن أجل ذاته، إصلاح الحبّ المُكَسَّر، رمز كثيرٍ من قطائع كثيرة أخرى ورَمْز خَرَابِ بلدٍ. تَطييبُ النَّفْس من أجلِ مُدارَاة عزلة يُعَذِّبُها الشعورُ بالعجز. استعادة وَجْهٍ مخدوع، وإنقاذُهُ من قِنَاع المُداجَاة.

اقْتَلَعَتْنِي فكرة من فِرَاشي. استوْلَيْتُ على ورقة وعلى قَلَم، والتَحَقْتُ بِسَريري، وطَفِقتُ أَرْسُمُ. صلبان طويلة من الجنوب وربَطْتُ خطوطها المُتَعَرِّجَة. أُبْعِدُ عنّي الرَّسْمَ لأَحْكُمَ على الوَقْع، أقولُ مُبْتَهِجَةً: «إنّ شبابيكي سَتَكُونُ رائعة، على هذه الطريقة. يجب أن تُلَوَّنَ باللون الأخضر كالنَّخِيل!»

وهران

من بين كلّ لياليَّ في الحيّ الجامعي في «وهران»، الليالي الأولى لأول عُطَل فصل الشتاء هي التي تركت وَقْعَهَا عليَّ، والتي نُسَمّيها أيضاً عُطلة أعياد الميلاد. كلُّ الطَّلَبَة يلتحقون بأهاليهم. ولا تبقى إلاّ مجموعةٌ صغيرةٌ من الطلبة المندسّين في أجنحة الحيّ السِتَّة. وأنا مِنهم. خُطْوَةٌ واحِدةٌ تَعْبُر الساحة، وأحيانا سُعالٌ، أو عَطْسَةٌ، تُعلِنُ لي، في المساء أو في الصباح الباكر، عن وُجود بعض الطلبة هنا. في النهار يكون الحيّ قاعاً صفصفاً. ديكور أوبِرِيت من أجل أثرياء ذاهبين للانْتِشَاء. أستَخْلِصُ من هذا أنّ الباقون، وهم قلائل، يُواصِلون الاشتغال من أجل إِعَالَةِ عائلاتِهِم بينما يذهب الطلبة الآخَرُون من أجل الاختِفَاء وملء جُيُوبِهِم بالمال.

هذه الخُطَى المُنعَزِلَة في ساعاتٍ غيرِ مُناسِبَةٍ تَهُزّ مَشاعِري وتُعَذِّبُنِي. أُنصِتُ إليها، وأَتَتَبَّعُ طريقَهَا من خلالِ شَبابِيكِي، وأُحَاوِلُ أن أُخَمِّنَ أشباحَ هؤلاء. إخوانَ البَوْن الشاسع بين الرغبة في تحقيق الذّاتِ والعَقَبَات المفروضة. . كنت أتمنى لو أنّي أمتلكُ الشجاعة وإرادة فتح الشبابيك والمناداة عليهم والصراخ: وأنا أيضاً! ثمّ إلقاء نفسي بين أحضانِهِم كي نُسَلِّي بعضَنا البَعض. أَظَلُّ مُتَخَفِّيَةً خلف

شبابيكي. ينتابُني بعض الخوف من هذا الحيّ الجَامِعِي الذي أُفرِغ، فجأةً، من ضحكِهِ الزّائِد وغير المُبَالِي. هذا الحيّ المزروع وَسَط مُسْتَنْقَعَات، والبعيدِ جِدّاً عن المدينة، بِغُرَفِهِ الفَارِغَة وشبابيكه المُغْلَقَة مثل نَوْمِ الجُفُون، وبِأَسِرَّتِهِ المهجورَةِ مِنْ قِبَل العُشَّاقِ، يَبْدُو أَنَّهُ، في هذه الأَيَّام التي تَقْصُر في شهر ديسمبر، غَاصَ في مُسْتَنْقَعَاتِهِ من أجل إمضاء الشتاء في السُّبَات. أَستمعُ إلى صَمْتَهُ ولديَّ انْقِبَاضٌ في صدري. أَعتَقِدُ أنني خائفةٌ، بشكلٍ خاصّ، من صمتي الخاصّ. خَائِفَةٌ من الخَجل الذي يَسْحَقُنِي. لقد كنتُ خائفةً، دون شك، من التَّعَبِ ومِنَ القَلَقِ المُتَرَاكِمَيْن، أيضاً.

مُنْعَزِلَةً في غرفتي، أَكَدُّ بلا انقطاعٍ مثل شخصٍ أهبل من أجل تَجَاوُز التأخُّر، محمولةً بِالشُّعور الرهيبِ بأنّني قادمةٌ، بِشَكلٍ دائم، من أَمَاكِنَ قصيّة مِنَ البؤس، ومِنَ الاضطراب ومن العُزْلَة، ومِنْ كوني لا أكونُ أبداً في السَّاعَة المُحَدَّدَة لأيِّ رَحيل وأيّ نُزوعٍ نحو ما هو عاديّ. وحين أَصِلُ حدَّ الإشباع، أُبْعِدُ عنّي، أخيراً، دروسي، أنهضُ وَأُرَاوِحُ مكاني في غرفتي، في شعوري بالذّنب. ستنتابني رغبةٌ في صَدْم رأسي بالحائط - أقوم بهذا التصرف أحياناً -، والزعيق بالأسباب التي أخفيْتُ في أعماق أعماقي، كيفية حدوثها. حين أنتهي، في فترة متأخرة من الليل بأنْ أَتهَاوَى على سريري، أَجْتَرُّ لِلمَرَّة الألف: ليسَ لديَّ مِنْ خِيَار سِوَى أنْ أُخْفِقَ في امتحاناتي. فأنا طالبة في كلية الطبّ. ولستُ رَبَّ بيتٍ كثير العَدَد. هذا، ما لا أستطيعُهُ، ولا أُريدُهُ . هذا يُشبِهُ النَّوْمَ بِطريقةٍ لائقة، وهذا ما لا أستطيعُهُ أبداً. الشيء اللائِقُ لا يَلِيقُ بي.

الصحراءُ وصَدْمَةُ المدرسة الداخلية في مدينة «بشار» جَعَلاَنِي

غيرَ قَادِرَةٍ على أن أتَصَوَّرَ من جديد، حياة السجن باعتباري حَارسة.
لَمْ أَعُد أستطيعُ قطّ تحمل معاناة الساعات التي صفَّحَتْها الإهانات والتي أنهكَتْهَا الشتائمُ والنُّبَاحُ والاحتقارُ والاستعبادُ.

خرجتُ للتوّ من تجربة في ميدان التعليم. فَمِن منتصف شهر أكتوبر إلى نهاية شهر ديسمبر، اشتغلتُ مُدَرِّسَة رياضيات في ثانوية تعويضاً لأستاذ ذهب في إجازة مَرَضِيَّة. مهنةٌ رائعةٌ. ولكنِّي لم أَخْتَر هذه المهنة. قضيتُ شهرَيْن اثْنَيْن ما بين القلق والابتهاج والحِرْمان، في إعداد الدروس واللُّهَاث خلف باصات عديدة وتكليف صديقات بأخذ الدروس على ورق الكربون، وباستباق الأعياد وإحراقِ مختلف أشكال الرِّقَابَات من كلّ الأطراف، مُجَازِفَةً بإثارة صَدَمَات نفسيّة أو بِإثَارة الحَسَد والغيرَة كَيْ لا أُحِسَّ بأنني مُستَثْنَاةٌ ولا أُحِسَّ بأنني موضِعُ شَفَقَة. إنها مسألةُ كبرياء. فالكبرياء هي على نقيض الغرور، وأنا لا أستطيعُ أنْ أَحتَمِلَ ذرَّةً من الشَّفَقَة. وغروري لا يُمْكِنُ أن يكون استثناءً.

كُلّ الطالبات، تقريباً، قادمات من طبقات اجتماعية متوسطة أو من الطبقة البورجوازية الغنيّة. من هذه الأهداب تأتي، دون تَصَادُمات كثيرة وأحياناً بِهُدوءٍ، التَحَوُّلات الاجتماعية. أمّا الطبقة العاملة، وبِسَبب تقتيرها على أبنائها، فإنها تحتفظ بهم بينَ أحضانها. والذين ينجحون في التحرر منها وكذلك الذين يَجِدُّونَ في الانسلاخ عنها قليلون جداً. ضرباتٌ مُتواصِلةٌ بكل البراثن، لأسوأ المَظَالِم. مثلما هو حالُ تُفَّاحتي.

الأشهر الماضية صفَّحَتْني. يَتَوَجَّبُ عليَّ أن أستجمع قِوايَ وأن

أُجَدِّدَ نشاطي، وأن أُوَضِّحَ كلَّ شيء، وأن أَجِدَّ بنشاط. فالشُّغْلُ هو صلابتي الوحيدةُ. ليستْ عندي من حِيَل أخرى سوى الدراسة، من أجلِ التخفيف قليلاً من اللاطمأنينة[15]. تتجلّى سعادتي، في الحقيقة، في أن أُكَرِّسَ كَامِلَ وقتي في دِرَاسَتِي، والاستفادة، أكثر فأكثر، من الحُرّيات التي طَالَمَا انتظَرْتُهَا من الحياة في الجامعة ومن السقوط المجنون في الغَرَام. لقد وَصَلْتُ، رُبَّما، إلى هذه الحريات، وهَا أَنَذَا أُبَرِّئُ نفسي كما لو تعلّق الأمرُ بهاجسٍ مُؤذٍ. لهذا السبب، أيضاً، قَرَّرْتُ أن أَنْغَلِقَ على نفسي. هذا الحيُّ الجامِعي الذي أصبحَ شَبَحاً أصبح، أخيراً، مَكَانِي المُفَضَّلَ من أجل توضيح تطلُّعَاتي وعَجْزِي. الحي الجامعيّ يُوَضِّحُ جَيّداً العزلةَ المُحَاصَرَةَ التي تَحْشُرُنِي دائماً في ذاتي.

في ساعاتٍ غير مُتَوَافِقَة مع الفَتَرَات النادرة التي يَظْهَرُ فيها رِفَاق العزلة والعَمَل المجهولين، أكون ما أَزالُ أستَعْرِضُ في فكري: لماذا أكادُ أموتُ من الشغل من أجل إخوان كثيرين يتم التودّدَ إليهم كما لو أنهم ملوكٌ صغارٌ وهُمْ لا يَكْتَرِثون لأيّ شيء، وبشكل خاصّ الدراسة، ولا يكترثون، بصفة أكبر، لِحَالي؟ فَحِينَ كنت في عُمْرِهِم، كنتُ أَكْسِبُ حصّتي وحِصَصَهُمْ. ما عليهم سِوَى أن يفعلوا مثلي. لن أُضَحّي بنفسي من أجلِهِم.

ولكنْ يا لَهُ من تَنَكُّرٍ مضحكٍ، يُمثِّلُهُ الوعيُ! متى سأستطيعُ أن أَتَخَلَّصَ من تشويشِهِ! عَلَقَةٌ حقيقيّةٌ! لقد احْتَجَجْتُ بِشِدَّةٍ عبثاً،

(15) إحالة إلى كتاب بسوا/ كتاب اللاطمأنينة. وقد صدرت طبعة عربية من الكتاب عن وزارة الثقافة في المغربِ – ترجمة مهدي أخريف.

وكَشَفْتُ، عبثاً عن مَظْهَرٍ خادِعٍ من دُونِ شُهُودٍ، وما زِلْتُ أَحتَفِظُ عن هذه الفترة بإحساسٍ بِالاختناق. وما زالت تراودني كوابيس وأنا يَقِظَة.

في الصباح، حين تَسْتَنْفِذُ الكآبَةُ والتَمَرُّدُ كُلَّ مَصَادِرِهما، أَنْجَحُ في الوصول أخيراً إلى رؤية براغماتية لِمُكْتَسَبَاتِي، وفي صَقْلِ الحُجَج والمَشَاريع لي. أنا الوحيدةُ: على الرغم مِنْ أَنّ العُطَلَ لا تَحْمِلُ من مضمونها سوى الاسم، فإنّ هذه العُطَل هي الأُولَى بعيداً عن سِجْن الصحراء الشاقّ. بعيدا عن تَعَسُّفَاتِهَا. تَفْصِلُنِي، الآنَ عنها ثمانمائة كيلومتر.

لم أكن أشتَغِلُ مُدَرِّسَةً طول الوقت. لا! كنت أكتفي فقط ببعض المُنَاوَبَات في السّنة، ما يكفي لإكمال المعونة المالية الهزيلة الي كانت تُدِرُّهَا المنحة الدراسية. وكنتُ أتعلّقُ بِهَا بِإِصْرَارٍ. لن أتركَ نفسي تَخْدَعُهَا كل هذه الأشكال من الابتزازات. يَتَعَلَّقُ الأمرُ بِمُسْتَقْبَلِي. سَأعودُ في البداية إلى حياتي.

بدأتُ أكتشفُ الصداقة، وبدأتُ أَعِي تَشَدُّدَاتِي، أيضاً، فأنا أُزْعِجُ بِنُزُوعي المثاليّ. وُلِدْتُ وأنا لا أملكُ شيئاً، وتَعَرَّضْتُ لِمَا يُشبِه الرفضَ ولهذا أُريدُ كلَّ شيء. أُرِيدُهُ قبلَ كلّ شيء من نفسي. لقد لَقَّنْتُ نفسي على أنْ لا شيءَ يُعْطَى، بما في ذلك الحنانُ. الحنانُ يُنْتَزَعُ ويُسْتَحَقُّ، هو أيضاً، وبشكل خاصّ. حين تُذَوِّبُ النُّدُوب المزاج...

العُشّاق يَتَدَافَعُون. وإذا كنتُ أرفضُ أن يناموا في سريري فَلَيْسَ فقط لأَتَجَنَّبَ شخيرَهُمْ. فأنا أَفِرُّ، دائماً، من شخيرِهِم على أخمص

قدمي وسط نَوْمِهم. فالجَسَدُ الأكثر إثارة لِلْعَاطِفَة والعِناقَات المشبوبة بالعاطفة لا تُغَيِّرُ من عدم قدرتي على تَحَمُّلِ نوم شخصٍ آخَرَ بجانب سهري لِلَّيَالي. فضلاً عَنْ أنَّ دَوْسَ المُحَرَّمَات، إلى هذه الدرجة، كانت سَتَكون لها آثارٌ مُناقِضَة لآثَارِ المُنوِّمَات. فهل يتَوَجَّبُ عليَّ انتظارُ الحبّ الكبير كي أُدَارِي، أخيراً، ارتيابي.

وفي الحقيقة، لَمْ يَرُقْ في عَيْنَيَّ، لِحَدّ الآن، أيُّ شخص. إنهم يستجيبون لرغباتي الشديدة في المداعبات. إنهم يُهَيِّجون من غير أن يُلَبُّوا الرَّغَبات. غير أني أتَذَوّقُ شيئاً مَا من الخفّة. ولكنّي تعرفتُ على واحد منهم منذُ بعض الوقت! واحدٌ لا يُنَاسِبُني بالضرورة. يمسحُ حدودَ حقلَ رؤيتي مثل قطٌ شَرِسٍ. أفترضُ أنهُ ملجومٌ بشحنةٍ من مبادئ ومن أفكار رجعية. أحشو رأسي بِتَحذيراتٍ، وأُحاوِلُ أن آخُذَ حِيطَتِي. ولكن بدون جدوى. لهذا السبب فأنا أتمزق. الرغبةُ كانت عنيفةً وآسِرَةً. قلت في نفسي: «ربما هذا هو الحُبُّ. هذا الارتجاج المجهول. هذا. . .» ثمّ أنتفضُ قائلةً لنفسي: «أَوْقِفِي، أَوْقِفِي الحماقات، هذه الأشياء ليست من اختصاصكِ!» حاوَلْتُ عبثاً أنْ أَسْخَرَ من كيمياء المشاعر، ولكن من غير طائل. ارتياح الأشخاص عديمي الكفاءة الهادئ يَقْلِبُ مَعَالِمِي رأساً على عقب.

هو شخصٌ طويلٌ ونحيفٌ، ذو شَعْر أجعد مُكَوَّر، كله حلقات قمحية اللون، ذو عينَيْن شقراوَيْن ومتَّقِدَتَيْن. يقول عن نفسه إنه ابنُ أُمِّهِ–أمٌ من «ندروما»، أحد المَعَاقِل التقليدية–، في حين سينتهي به الأمرُ بأن تُزَوِّجَهُ أُمُّهُ مثل معظم الأصدقاء. يجب الاعتراف بأنّ نهاية سنوات الستينات وبداية سنوات السبعينات، كثيرٌ من أصدقائنا لَمْ يَكونوا يَتَبَنَّوْنَ الكلام الثَّورِي – فقط الكلام – سوى من أجل

إغوائنا. أمّا فيما يخصّ كُلَّ الأفعال التي تخصّ حيَاتَهُم، فقد كانوا يلتَحِقون بالحَظيرة المُحَافِظَة، فَهُمْ ليسوا مُكْرَهِين على مواجهة المستحيل. مَاذَا يَهُمُّ، أُبْصِرُ هذا وأقولُ لنفسي: «أين هو المُشْكِلُ ما دامَ أن مسألة الزواج ليست في مُخَطَّطَاتِكِ؟ صَرَامَتِهِ؟ تحصينات!» أَغْرَقُ في ذَهَب عَيْنَيه بِمُجَرَّدِ ما أَلْمَحُهُ. لقد ضِعْتُ بِالتِحَامِي بِجَسَدِهِ، وأَتَخَيَّلُ عَالَماً برّاقاً قبل النوم أَتَمَنَّى تَسَلُّقَ قِمَمِهِ. ولكنّنا لا نستَطيعُ سوى أنْ نَتَدَحْرَجَ مِنْ أعلى هذِهِ القِمَم. أعرفُ هذا. عندي كلّ مصائب الوعي. وكذلك جُلَلَهُ المُزَرْكَشَة. إذاً فَعَلَيَّ أنْ أكونَ قادِرَةً على أن أَحْرِصَ على ألاَّ أَجِد نفسي في الأسفل. سَأُعَذِّبُ نفسي كي أُجَرِّبَهُ. أقول لنفسي هذا، وأنَا دائماً موجودةٌ في مكان آخر. ولكن مع الإحساس الحادّ بِأنّني غيرُ مُشْبَعَة.

الطريقُ من أجل نزع السلاح ومن أجل إدراك الحبّ طويلٌ.

فاقدة للبوصلة بين هذه الرغبة المُنْكَبَّة على صنع الحَوَاسّ والجِلد وبين أعصابي المخلوعة على توجّساتها، أتفادى نفسي بِتَحَدٍّ يَرِنُّ كاستدعاء: «لا حاجة للسرير، لا حاجة للنوم، لا. مَعَ هذا الشخص أُرِيدُ النَّشْوَة واقفةً.»

هنا

تناولنا «ماتيلد» وأنا، بالحديث، خلال طعام العشاء، أصغر إخواني المسجون هناك. بطبيعة الحال يوجد اختلاف سريع: ففي اللحظة نفسها توجد التهديدات التي تُلاحِقني هنا وكذلك الحماية البوليسية من أجلي، أنا أكبر إخوتي. المناسبةُ عاديةٌ بِشكلٍ رهيب. والانكسارات التي تخترق العائلات تحمِل، منذ فترة طويلة، بُذورَ تَفَكُّكِ البلد.

أَلْتَجِئُ إلى سريري بهذا الهمّ في الرّأس. أتخيل جيداً الأَلَم والقَلَق الذي يَسْكُنُ كثيراً من الآباء بِسَبَب أبنائهم الذين أُلقِيَ بِهِم في السُّجُون الانفرادية. بالنسبة لي، هُمْ لا يَعرِفونَ عنها شيئاً. وعنّي، لا يَعرِفُونَ شيئاً. مَا زالُوا يَتَذَكَّرُونَ قَسَمَاتي. فَهُم يَرَوْنَنِي أحياناً على شاشَةِ التلفزيون. أُوجَدُ منذ فترة طويلة في وضعية يتعذر إصلاحُها مع هذا الإحساس والتَصَوُّر الذي تمثله كلمة «عائلة». كلمة قادمة من المستحيل. قادمة من المستحيل أكثر مما هي قادمة من الغياب. فالغياب يمكنه أن يقتَرِحَ عِلاَجَهُ الخاصّ ألاَ وهو العودةُ، المَوْعِد واللقاء. ولكنْ كيف يُمكن تدبير ترياق لِما هو غير موجود ولِمَا تَستحيل مُمارَسَتُهُ؟

أعرفُ أنني لستُ الوحيدةَ في مثل هذه الحالة. أتساءلُ أحياناً عن عدَدِنَا نحن الفتيات اللواتي وُلِدْنَ في روح الطَّلَب - وفي الفقر، وخصوصاً في الفقر. فالفقرُ هو الذي يَعْرِضُ ويَنْفَجِرُ. الفتياتُ البورجوازياتُ هنَّ أقلُّ اضطراراً إلى هذه القفزة الكبيرة في الفراغ - وفي وضعِ أقطارٍ ودُوَلٍ وبِحَارٍ وعُقُود من الصمت وأجيالٍ من التاريخ بينَهُنَّ وبين آبائِهِنَّ.

ما هو عددُ هؤلاء المبتورات من الحرية؟ هل هَذا العددُ أكبرُ أو مُوازٍ لِلعَدَد - المرتفع للأسف - لِلَّواتي انتحَرْنَ عن عجز في الاختيار إزاء التناقض «الكورنيلي»، ألاَ وهُوَ المَطْهَرُ العائليُّ وأَمْنُهُ ورَفاهيته وتَلازُمات تضحياته. أو القطيعة والطَّيَرَان. نشوتها وأخطارها. النجاحات التي أحتَفِل بها كَيَتيمة. الآلام التي أهْضمُها من غير دموع. لأنّ البكاء يستدعي العزاءَ. لأننا نحتَفِظُ به في الذاكرة- في جَسَدِنَا- مَسْرح الأحزان في الكَنَف الأنثويّ. في الاعتراف، في عطف الأجداد. في تَقَاسُم التَأَوُّهَات والإراقة. قَبْلَ الضحكات يُوجَد التواطؤ والسكون العامّ.

هذه العودة إلى التخلي التي نمحوها حتّى في الأسى.

كثيراً ما أُفكِّر في هذا. كَمْ سَيكُونُ جَيِّدَاً هذا الفيضُ من العاطفة ومن التعاطف من دون سَواطِيرِهِ وقُيُودِهِ! لقد حُرِمْتُ منها عَبَثاً، بِشَكل دائم، لا أَعرِفُ عنه لاَ النوع الساخر ولا الخطر، وَظَلَلْتُ هادئة فيما يَخُصُّ حقيقَتَهُ: سجنٌ مغلق من صُدُور مُرَحِّبَة وكريمة وغياب الدفء البشري وغياب الاتحاد يظلُّ، مع ذلك، كبيراً. والمُفَارقةُ أن هذا ليسَ نَدَماً. ولكنه، فقط، مَنفَذٌ لِحَوَل الأفكار. الحَوَلُ يختلف عن الذكريات. أثورُ بِسُرْعة. أَلْوِي عُنُقَهُ. أُعَنِّفُ

دُرُوسِي. أُشْهِرُ فيها شُقوقي مثل ميداليات الحرب. أَدَّعِي أنَّها هي التي تساعد على ارتقاء قِمَّةِ الفرحِ واللَّذَّة. وأدّعي بأنَّ بهاء كلِّ مغامرة مَدينٌ لها.

كان بإمكان العنف وانعدام التسامح أن يقوداني إلى نُزوعٍ فرديّ أهوج. ولكنّني من شدّة ما تَلَقَّيْتُ مِنْ عِقَاب أصبحتُ عصيَّةً على الخضوع للصفاقة أو اللاَّمُبَالاة. إن اختيار مهنة التطبيب، هذا الالتحام بين جسد وآخر، ليس صُدْفةً. ثم جاءت لغةٌ أجنبيةٌ عابِرَةٌ والتقَطَتْنِي منذ طفولتي كي تجعلني أَحْتَكُّ بالغَيْرِيَّة. إنها لغةُ الآخَر التي أصبحتْ حميمةً. إنها هي التي تَتَدَارَكُ نَقَائِصَ لغة الطفولة. هي التي وَاصَلَتْ تغذيتي وهَذْيِي وتنويري حين تَوَقَّفَتْ حتّى انتقاداتها. حين رحلت الجَدّةُ. هي التي تختلج، الآنَ، في كِتاباتِي. من ملجأ إلى مَعْلَم، كُتُبُ الآخَرين سَكَنَتْ وحدتي. لها قُدرةُ نِضالاتي. بَثَّت أحلاماً في ثياب البؤس. حَوَّلَت حِدَّتي إلى إصرار وعناد. إلى مُقاوَمَة. لقد وضعتني هذه الكتبُ على جانبٍ، بشكل كليّ، في طريق الكِتَابَة. كتابتي، في الوقت الراهن، تحمل حياد ذاكرتي وأقصى تشنُّجَاتِي. الكتابةُ تفرض نفسَهَا في آخِر حريّة لِمن لا عائلة له. إنها قسمتي كمُغْتَرِبَة، وتسلُّل من كُلّ سجن. ولكن من أجل تتبع ما هو ناقِصٌ، فإنها (أي الكتابة) تنسج علاقة قوية مع كلّ الأنصار، وحرفيي الكِتَاب. شيءٌ مَا يُمْسِكُ حبل المَرْكب.

انتظرتُ أربعة عشر عاماً قبلَ أنْ أُعْلِنَ لأبي أنني أتَقَاسَمُ حياتي مع رجل فرنسي. انتظرتُ أنْ تتركَ أخواتي الصغيرات المنزِلَ العائلي. طيشي السّابِقُ كان يأخذ مأْخَذَ مثالٍ للخطَر، ولا شيءَ في

الدنيا كان سيَجْعَلُنِي أُعَرِّضُ دراسات أخواتي للخَطَر. وانتهى بِهِنَّ الأمرُ بأنْ تركن الدراسة من تلقاء أنْفُسِهِنَّ في المرحلة الثانوية.

في سنة 1989، وحينَ تَزَوَّجت صُغرى أخواتي، هاتفتُ عمي في مدينة «بَشّار» أخيراً. فكان مغتبطاً جداً حين عرف بِأنّي لَسْتُ وحيدةً. نَعَمْ سيَكونُ سعيداً بأن يستقْبِلَني وبأن يَتَعَرَّفَ على زوجي. وسيذهبُ من يوم الخميس إلى قريتي ومسقط رأسي «قنادسة» من أجل إخطار أبي. وسيُهاتِفُني لدى عودته يومَ الجمعة مساءً. مَرَّت ثلاثةُ أسابيع دون أن يَصِلَنِي منهُ خَبَرٌ. من المؤكَّد أنّ هذا الصمتَ هوَ جوابٌ في حَدِّ ذاتِهِ. ولكني أود أن أعرف كلَّ شيء. كلَّ شيء إلى حدّ شَراسَةِ التفاصيل. حينَهَا قمتُ أنا بِمُهاتَفَتِهِ للمرة الثانية:

– لقد منحكِ أبوكِ البَرَكَة. ولكنه يَوَدُّ أن يراكِ وحدَكِ.

– وأنتَ؟

– ولكنّي سأَنَالُ لَعْنَتَهُ إذا ما استَقْبَلْتُ الرَّجُلَ الفرنسيّ.

– لنْ آتي إذا ما لم تَقبلوني كما أنا ومع من أتَقَاسَمُ الحياة.

– هذا ليس ممكناً... أنا لا أستطيعُ أن أتَنَصَّلَ من أخي.

– حسناً. وداعاً.

وداعاً؟ وانغلق الهاتفُ عشر سنوات إضافية من انعدام الاتصال. انصرفتُ عنه بابتسامة متكلِّفة. بَرَكَةُ وَالِدِي ليست سوى المجاز العاجز للفضيحة. لم أكُن مخطئة في هذا. فقد أَقْدَمْتُ هنا على إنهاء ما بَدَأَهُ رحيلي من البلد. ولكنْ ما الذي تَمَنَّيْتُهُ إذاً؟

لم تَبْدُ منيّ، في تلك اللحظة، بَوادِرُ معاناة. بل إنني ضحكتُ. الحنينُ لهُ حَدٌّ لا يمكن اختزالُهُ، وهو الواقعُ. وَاقِعِي، أنا، هو أنّ

البُعَادَ يترُكُ لي، على الأقلّ، وَهْمَ أنَّهُ كانت لي عائلةٌ. أحياناً. قبل استحالات حُرِّيتي. لم يكن الفراغُ أبداً بِمِثْل هذه القسوة إلاّ حين نكون جنباً إلى جنب من دون كلمةٍ شخصيّة. كل ما نقوله عن ذَواتِنَا يَتَسبب في فضائح، ولسْنَا أبداً بِمَعزلٍ عن الكلّ. الحضورُ الجسديُ لا ينفع إلاّ في الإشارة وتَنْشيط كلّ أشكال العَوَز، والضّعْف. تُسْقِطُ الحُجَجَ والذَّرائِعَ الأخيرة. تحكُّ كلَّ الانكسارات.

أَعْرِفُ هذا. عرفته هناكَ. وقد جَرَّبْتُ هذا، هُنَا. لأنه خلال أربع عشرة سنة قدِمَتْ أُمّي ثلاث مرّات إلى فِرنسا. قَدِمَتْ وَحدهَا، وليس معها أحدٌ آخَر. «مُجَرَّد أسبوع، ثمّ إنها تأتي مِنْ أجلِ جهاز العُرْس»-على نفَقَتِي الشخصية بطبيعةِ الحال-فتيات أُخرَيَات يَتَزَوَّجْن تحت سوْطِهَا في صحرائِهِنّ. فَلاَ العددُ الكبيرُ للتسوّقات بين «مارسيليا» و«مونبولييي» ولا بَريقُ ووَمَضَانُ القماش الذي اشتريناه من «كور بيلسونس» ولا حتى الأموال التي كنتُ أبْعَثُ بها لهم، من وقتٍ لآخَر، منذُ أن بدأتُ أشتَغِلُ كطبيبةٍ، استطاعَتْ أن تقتلعَ منها أقلَّ سؤال. لم يَنْدُرْ مني أدنى قلق لِكون ابنتها البِكر لم تُنْجِبْ بعد! فهي لنْ تتخيَّلَ وتَتَقَبَّلَ أبداً فكرةَ امرأة ترفض الإنجابَ. فَضلاً عن أنَّ عَدَمَ الإنجاب، من وِجهة نَظَرِهَا- وهي ليست وحدهَا-، يُمَثِّل الكارِثَةَ الأكثرَ رُعباً مَهْمَا كانتِ الأسبابُ. غير أنها ظلّتْ صامِتةً حول هذه القضية أيضاً. اكتَفَت بِتَخْزينِ تبريقات وأقمشة بَرَّاقة لِبَنَاتِهَا وَهِيَ تنظُرُ إليّ وتفحَصُنِي بِعَيْنٍ حادّة لـ. . . . عين مَنْ تحديداً؟ وحتّى بالنسبة للنّساء الأجنبيات فإنّ أولَّ سؤال تطرحُهُ نساءُ الهُنَاك: «كَمْ ابناً لك؟» كمْ ابناً لك؟ مُعَادَلَة سحريّة تَقْطَعُ مع التَحَفُّظَات، وتزيل تجاعيد الوُجوهَ الأكثر عبوساً. وبصفةٍ فورية يُتْبِعْنَهُ بهذه الجملة:

«يحفظهم الله!» المحادثة يمكن حينَها أنْ تبدأ: «من أينَ قدمتِ؟ وَمَنْ هُمْ أهلُكِ؟»

لا أُنكِرُ أنّ رفضي للتقاليد عَنَّفَ أمّي. ولكن فيما يخصّ العنف، فقد تَلَقَّيت أكثر مما أستحقّ. وهذا على الأقلّ علّمني ألا أُحِسّ قط بالذَّنبِ... البعادُ لا يعود، فقط، إلى رحيلي عن الجزائر، بل إنه يأتي من بَعيد. لقد كنتُ رِهَانَ تَنَافُسٍ بينها وبين جدتي. لقد كنتُ، في تلك الفترة، في الانحراف لسببٍ واحدٍ وهو إعجابي بجدتي. لقد وضعتُ أجسادَ النصوص بينها وبيني بِمُجَرَّد تعلُّمِي للقراءة. وقدْ خَلَّفَ الصمتُ غَضَبَ الطفولة وبداية المراهَقَة. كانت صرخاتُ التَمَزُّق بصدد الانبثاق. ثمّ كَبرت المُبَاعَدة أكثر فأكثر. حين تُراقِبُني يأتيني الانطباعُ بأنها تَرَى امرأة من كوكب المريخ، بسبب القلق البادي في عينيها، هذا القلق الذي يُزْلِجُ انعدامَ التفهم.

لَقَدْ خبّأتُ، في الواقع، وبشكل كليّ، مأساة تعودُ إلى نُعُومَة أظفاري. إنّهُ النّسيَانُ الأصليُّ، المَسْحُ المُؤَسّسُ. إنَّهُ ارتداديّتِي، كما سيقول «بوريس كيرولنيك». إنّها مصدرُ كلِّ شيء. مَصْدرُ علاقتي مع أُمّي. أرَقِي. مصدر أهوائي وأشواقي التي سَتَتَشَكّلُ. مَصْدَرُ غياب رغبتي في الإنجاب. بَلْ وحتى المهنة التي اختَرْتُهَا، أي التطبيب. بقائي على قيد الحياة أو على الأقلّ نزاهتي الذهنيّة كانا، مِنْ غير شكّ، مُقابِل هذا الثمن. تَطَلَّبَ مني الأمرُ تأليف عدة كُتُب، من بينها واحد حول فقدان الذاكرة، «نْزيد»، كي أَصِلَ إلى نَبْشِهَا. سنوات من الكتابة مثل تنقيب أركيولوجي طويل. الثيمات المُعاوِدَة حول الأُمَّهَات المجنونات أو الميتات. كان عليَّ أن أَنْتَظِرَ تأليف هذا

الكِتَاب، سفر الكتابة إلى أقصى الأَرَق كي أكتَشِفَهُ في النهاية. ولكنّ هذا كتابٌ آخَرُ!

بعد شراء آخِر قطعة من جهاز العُرْس، اقترحتُ على أُمّي وأنا أصطحبها إلى المطار:

- الآنَ لن أستطيع إِلحاقَ الضّرر بِأَحَدٍ. أريد أن يَعْرِفَ وَالِدِي هذه الأشياء. أُرِيدُ أن تقولي هذا.

- لا أستطيعُ. سَيُطَلِّقُنِي! سَيُلُومُنِي إلى الأبد بسبب مجيئي عندكِ! سَيَمُوت...

دموع. رافَقْتُهَا إلى الطائرة. انتظرتُ عدةَ أيام قبل أن أُهَاتِفَ خَالِي.

وأخيراً لم يَتَسَبَّبْ زواجي من رجلٍ فرنسيّ في مقتل أحد. ولم يتسبب هذا الزواج، كذلك، في طَلاق والِدَيَّ. لنْ أَعْرِفَ شيئاً عن شتائِمِهِمَا ولا عن بُغضِهِمَا. حياتي هي التي وَجَدَتْ نفسَهَا مطرودَةً، مرّةً أخرى: «فليذهبوا جميعاً إلى الجحيم! لنْ أَرَاهُم أبداً.» وتركتُ العنانَ لِضحكةٍ لاَذِعَة، وهو ما أكون أحياناً قادرةً على اجتراحه. مثل مِثْقَبٍ في قَساوَتِي. أَلَيْس الاحتدادُ هو السلاح الطائش لِلحِيرَة؟

من حينها تَوَقَّفْتُ عن إرسال المال لَهُمْ. تكسيرُ الرباط الوحيد الخسيس، مرة أخرى، طريقةٌ لِتَحَمُّلِ هذا الشرط كامرأةٍ بدون عائلة، بِصِفَةٍ كلية. طريقةٌ لاقتلاع ذاتي مِنْ سَراب لحظة زمنية. طريقةٌ لاستسلامي، من جديد، لِمَطْهر الكتابة من غير وثاق.

بعد ثلاث سنوات، في سنة 1992، كرّست الصحافة الجزائريّةُ

نجاحَ كتابي الثاني: «قرنُ الجراد». وهو ما لم يحدُثْ في فرنسا بِسببِ إفلاس نَاشِرِي. ولن أحصُلَ على سنتيم واحد، لا من حقوقي فيما يَخُصّ الكِتابَ الأول، «الرجال الذين يمشون» ولا من حسابي فيما يَخُصّ الكِتَاب الثاني. لا يهمّ فالمعاناة المُقْتَسَمَة كانت كبيرة جداً. كما أنّ أصداءَ الصحافة الجزائرية، التي بذلتُ جُهْدِي لإرسال نُسَخ من رواياتي إليها، كانت تشجيعاً كبيراً. لأنّ الصحافة الفرنسية، هنا، مثلها مثل معظم الناشرين الذين يَتِمُّ وصفُهُم باللامعين لا يُعيرون أدنى انتباه لكتابات الجزائريين. فكيف بكتابات الجزائريات. فضلاً عن أنه، هنا، يتوجب انتظارُ انفجارِ التطرف والأحداث المُؤَثِّرَة تحديداً. وسيكون من السُّهولة المُبَالَغ فيها تحميلُ مسؤولية القصة إلى جهل واحتقار الفرنسيين أيضاً.

الشهرة في الجزائر، وأكثر من أي مكان آخَر، مُرادِفَةٌ للمال؟ flouze. أموال كثيرة، كثيرة! لهذا السبب فلستُ مندهشةً من اتّصالات أخي الهاتفية وكذلك من اتّصالات أختي بعد الوقع الإعلاميّ في الجزائر. فهما لم يهاتفاني من قبلُ أبداً. أحدهما يطلب مني أن أشتري له سيارة لأنّ «الأمرَ أصبحَ ضرورة حيويةً». والأخرى تريد أن أساعدها على افتتاح محلّ للتجارة في «وهران»: «لأنّ كلّ الناس يريدون القيام بالاستيراد والتصدير. هذا هو المستَقْبَلُ. ثمّ إنني أُوشِكُ أن أُطَلِّقَ زوجي.» هيا انظروا، حتى المُجافاة لا تُعْفِي من المسؤولية. خلال هذه الفترة، لا أقول إنني كنتُ أسبح في الأموال، لأنّ الكتابَةَ مثلها مثل التطبيب في عيادة تَفْتَرِس وقتي دون أن تُدِرَّ عليَّ شيئاً إلاّ القليل من الرضى ومن الاحترام. من المُؤَكَّد أنني بالإضافة إلى مائة وخمسة فرنكات، ثمن الاستشارة الطبية التي

تمتَدُّ إلى ما لا نهاية إلى عمل اجتماعي من كلّ الأنواع، أربح ما هو أكثرَ من المال. ولكنّي لا أستطيعُ أن أعيش.

والآنَ تأتيني التهديداتُ بالموت من هذا الجانب.

في الغرفة المُجاوِرَة اضطرت «ماتيلد» للخلود إلى النّوم. لم أعُدْ أسمع أيّ صوت. تمدّدتُ على سريري، وطفقتُ أقرأ الجرائد. صحيفة جزائريّةٌ تحدَّثَتْ عن محاولة اغتيال في مدينة «بشار». حتّى في هذه المنطقة، في هذا المكان الحقير من العالَم. ولكنّ إعادة التَذَكُّر الطويل للقَطائِع المتتالية مع عائلتي، في هذا المساء، حلَّ مَحَلَّ كثيرٍ من الضمانات ضدّ التوجُّس والخوف.. أَعُدُّ السنوات، أَزِنُ الصَّمْت بل وأَتَوَسَّلُ حتَّى إلى ما يعجِز اللسان عن وصفه كي أُطَمْئِنَ نفسي. كُلُّ هذا كانَ يَتَوَجَّبُ عليه أن يحمي عائلتي من كِتاباتي ومِنْ مَوَاقِفِي. ذَهَبَ بي الأمرُ إلى حدّ المُراهَنَة على أنّ الأصوليين–الذين جَنَّدُوا أصغر إخواني– يُشكِّلُونَ، بالتأكيد، أَفْضَلَ حِمايَةٍ...

بعد مماطلات عديدة وَجَدت الشرطةُ نفسَهَا مُرغَمَةً على قبول قراري بإعادة فتح عيادتي. لِتَعَذُّر التَوَصُّلِ إلى ثَنْيِي عن هذه الرغبة، حاولتْ في البداية أن تَفرِضَ حضوراً لأفراد الشرطة في قاعة الانتظار: «هذا لا معنى له، ما دام أنّكُم لا تُريدون أن يَعْلَمَ أَحَدٌ بحضوركم. فإذا فَعلتُم ما تُريدون فَكُونوا على يقين بأنّ الحيّ سَيَكون على عِلْم بِكلّ القضيّة في السّاعة التي تلي. ولن أَرى أيّاً مِنْ مَرْضاي.» إنها بِالكاد مُبالَغَةٌ. بعد مُقَارعَة حُجَجِنَا انْتَهَيْنَا إلى اتفاقِ حولَ حِرَاسةٍ خارجية خفيّة. فَلْيَكُن. ولكن فيما يخصّ موضوع

عودتي إلى منزلي، فَقَدْ رفضوا حتى مناقشته.

أضع الصحفَ في جيبِ السرير، وأُفكّر في بيتي. فَثَمَّةَ عامِلُ جِدادَة منهمك في صنع شبابيك. وسيذهب لِوَضعها حالَ انتهائه من صنعها، فقد تركتُ له مجموعة مفاتيحي. والشرطة على علم بهذا. إنها تعرفُ كلَّ شيء. أثناء إحدى المَرّات النادرة التي خرجت فيها، اشتريتُ ثلاث سجاجيد إيرانية. هذا الجنون من طبائعي. فأنا أتصرف دائما على هذا الشكل. في اللحظات الحَرِجَة أُغْدِقُ على نفسي الهدايا. جاءتنا، «ماتيلد» وأنا، نوبةُ ضحك. ثم ذهَبْنَا بعدها إلى السينما وتناول العشاء في الخارج.

اشتغلتُ كثيراً على كتابي «أحلامٌ وقَتَلَةٌ». وأوشِكُ على الانتهاء من كتابته.

أَتَمَدَّد على السرير، وأصيخ بِسَمعي إلى الغرفة المُجاوِرَة، وأكتَشِفُ أنه لولا هذه المُنَاسَبَة الخاصة جدا، ما كنتُ لأَعِيشَ أبداً مع «ماتيلد»، هنا. وعلى الرغم من أن نفسي تُنَازِعُني أحياناً إلى العودة إلى منزلي، الذي لا تَفصِلُني عنه سوى أربعة أو خمسة كيلومترات، فأنا أستمتع بنعيم إقامتي عند صديقتي. فَقد كانت دائمةَ الحُضور في كلّ المَشَاكِل التي صَادَفَتْنِي... فَكِلانا ذات طبع حادّ وكامل، ولاَحَظْنَا بأنّ إحدانا تُراقِبُ، الآنَ، تَدَفُّق وتجاوزات الأخرى بابتسامةٍ حنونة، وأحياناً منتشية: «ذات يوم سيحدُثُ لي أن أَقْذِفَ في وجهِكِ كتاباً، أليس كذلك؟» أعرف هذا بِشَكلٍ حقيقيّ. تَعَرَّفْتُ على «ماتيلد» في اليوم الأول الذي وَطِئَت فيه قَدَماي قِسْم أبحاث الكلى وأمراضها في «مونبوليي». كانت «ماتيلد» قد أصبحتْ أحد أعمدة زراعة الكلى منذ سنوات. أحببتُ، دفعة واحدة، صراحَتَهَا وكلامها

الجهوري وعدم احترامها للصفقات التي تُعْقَدُ في المستشفيات - التي تستحيلُ معايَشَتُها في الواقع-، وكذلك إنكارُها للذّات الذي لم يكن يَكْتَرِثُ بأدنى مخطط للأقدمية المِهَنية. بَعْدَ أن تَعِبَتْ من أنواع الجشع ومن حُروب طوائف وعشائر وقلة الحَزم، قرّرتْ ذات يوم أن تجتاز مباراة طَبيبة مُراقِبَة للضمان الاجتماعي بدل أن تُطالِبَ باعتراف كبير بعملها ومزاياها. التحقتْ بالقسم الذي يَفْحَص ويَحْكُم على أفعال زُمَلائِها قبل أن تقوم بِمُعالجَة المرضى. إنها امرأة قادرةٌ على كلّ الأشياء الغريبة.

التقطتُ كأس ماءٍ كانت موضوعة بالقرب مني وشربتُها: «إنّ «ماتيلد» هي الأختُ التي قمتِ باختيارها.» نعم، إنها الأخت! قفزةٌ ألقتْ بي من السرير. تسلَّقْتُ الأدراج من دون إثارة أي صوت، وذهبتُ لملء كأس الماء قبل أن أعود على عقبي على أخمص قدَمَيّ. نومُ «ماتيلد» في الغرفة المُجاوِرَة، كم هو جَيّدٌ في هذا الفراغ! في هذا الزلزال. الغرفة المُجاوِرَة تَحصُل، هنا، على معنىً وعلى مَقْدِرَة يَمْنَحان السَّعَة للتَنَفُّس وصوتاً قوياً للعاطفة.



وهران

أَتَدَبَّرُ أمري دائماً كي أَقْطُنَ، وحدي، في الحيّ الجامعي في مدينة «وهران». وقد تمّ تدبير الغُرَف بحيث تستقبل فَرْدَيْن اثْنَيْن، ولهذا يتَوَجَّبُ دفع الجزء الآخَر أيضاً من أجل الاستئثار بهذا الامتياز الذي لا مثيلَ لهُ. إلاّ أنّ المِنْحَة الدراسية بكاملها تَنْفُدُ إذا ما أَضَفْنَا إليها ثَمَنَ بطاقات المَطْعَم. ولكنّ الأكلَ من الدناءة بحيث لا يصعب عليّ أن أتخلى عن عدة وجبات. إنّ قِلّةَ الشهوة للطعام، في الواقع، لم تَتَخَلَّ عنّي بصفة كلية. فضلاً عن أنّ دروس التشريح كانت تُسَبِّبُ لي الغثيان. وكان مَنْظَرُ قِطعة اللحم الضاربة إلى الرّمادي على أطباق زملائي يكفي لِيَمْلأ مِنْخَارَيَّ برائحة الفورمول. هذه العصارة الحادّة التي ننقع فيها الجُثَث في المُخْتَبَرات.

توجد كلّ هذه الحالات بين الفتيات الأخريات. فبعضُهُنّ يَتَقاسَمْنَ السَّكَنَ مع عُشّاقِهِنّ. والبعض الآخَر مع صديقات دِرَاسة أو صديقات عَزْبَدَة وقصوف. والبعض مع أخواتهنّ. إنّ إمكانيات الصراع والغيرة والأهواء وتقديم السَّنَد موجودٌ. كنا نُشَكِّلُ عالَماً أصغر، في غليان بصراعاته الداخلية وشتائمه الكبيرة. كُنّا نَعْتَبِر أنفُسَنَا أبطالَ جزائر اليومِ. ولم يكن لدينا الصبرُ لانتظار جزائر الغد. لأنه

كان ينتابنا هَلَعٌ شديدٌ من أن نُخَيِّبَ الآمال. كثيرٌ من الأشباح كانت تَتَرَصَّد على مقربة من أبوابنا.

الأحياء الجامعية في مدينتي «الجزائر» و«قسنطينة» كانت قد سقَطَتْ تحت نَيْرِ الحركات الإسلامية. وتمّ منع الاختلاط بين الجِنسَيْن فيها. أما في مدينة «وهران» فقد صمَدنا، عبر القوة، منذ ثلاث سنوات. ولم نتركْ أيَّ خيار لا للإدارة ولا للحكومة. كنا نأتي إلى الأحياء الجامعية شهراً قبل الدخول الجامعيّ في مجموعات كوماندوس من أجل احتلال المَقَرّات. الموظّفون كانوا يبتعدون، على الفور، من أمام صفوفنا. أما الجيش فلم يُكَلِّف نفسَهُ عناء التدخل. لقد كانت ما تزال تطارده سابقة... كانت إحدى اللجان المُدَرَّبَة تهتمّ بتوزيع الغُرَف الجامعية والأَسِرَّة وجمع الأموال. ووسط حشود الطلبة والضحكات والتَبَجُّحَات كُنّا نَتَفَاوَضُ حول الغرف من أجل الحصول على جناحٍ في طابَقٍ بين الأصدقاء. استراتيجية ضرورية لِسَير السنة الجامعيَة. كُنّا نحتاج إلى أنْ نَظَلَّ مجتَمِعِين. من أجل الولائم والمآدب التي كانت تقتصر على قليلٍ من النبيذ ومن أشياء زهيدة. كانت النقاشات الصاخبة، وأمام عجزها عن أن تصنعَ لَنَا التاريخَ من جديد، تذهبُ بنا إلى صباح مُشعّ. كنّا معاً من أجل التصدّي للمشاجرات التي يمكن أن تحدث لنا مع صغار الأوغاد أو مع الأُصُوليين.

ما إن انتهت التوتُّرَات وتَوَجُّسَات اللحظات الأولى، حتى عمّ ابتهاجٌ كبيرٌ احتفالاً بهذا الانتصار. استمتَعْنَا، بابتهاج، بهذه اللحظات في بلدٍ كان مُهَدَّداً بالاختناق. وكَمْ كان هذا الشَّهْرُ من الاعتصام قبل مُعاوَدَة الدّراسة عِيداً. عيداً للسّرير وللمكان. عيداً

للسَّرير وأَوَلِيّة الحرية التي تعني التحكُّمَ والتمتّع بأجسادنا دُون مُحَرَّمَات. تكسير التابوهات التي تَتَرَصَّدُنَا حال خروجنا من الحيّ الجامعي.

بسبب تكاثر الطلبة، تمّ بناءُ حيّ جامعي آخَر مُخَصَّص فقط للطلبة الذكور الذين يرتادون الجامعة. هؤلاء الطلبة كانوا يُطلِقُون علينا صفة القدماء. وإذا كان بعضٌ منهم ينظرون من زوايا أعينهم باشتهاء وطمع إلى اختلاطنا المندفع وغير المُحْتَشِم، فإنّ معظم الطلبة لم يَجِدوا أنفسَهُمْ مَعْنِيِّينَ بِمَطَالِبِنَا. فقد كُنَّا بالنسبة لهم من زمن آخَر. مُثيرين للشبهة. كي لا نقول إننا كُنّا متهتِّكِين وخليعِين.

كان الانفجارُ الديموغرافي يُساهِمُ، وعلى كلّ الصعد، في زعزعة المُكْتَسَبَات التي كانت ما تَزَالُ كثيرة الهشاشة. هذا هو دمارُ السريرِ الشديدُ! إنه يُتْلِفُ حتى العائلات. العائلات التي تتكاثر بينَ حيطان ظلت غير قابلة للامتداد شأنها شأن الإيرادات، فإنه لا يمكنها أنْ تُضَحّي كلها مجتمعةً بالنّوم. خصوصاً في المدن الكبرى حيث تُحَوِّلُ الهجرةُ القروية الشوارعَ إلى فيضانات بشرية. ومثل كلّ حالات وأشكال الحاجة والنقص فإنه يَتَوَجَّبُ الانتظامُ في طوابير من أجل النَّوْم. كلّ هذا يُقطِّعُ أطرافَ الجسم العائليّ، الذي يجد نفسَهُ وقد أُصِيبَ في طُقُوسِهِ، مضطرّاً إلى العيْش وإلى النوم عبر أطرافٍ مختلفة التوقيت. إنّ الاختِلاطَ والحرمانَ يدفعان إلى زِنَى المَحَارِمِ.

لهذا السبب نجد الكثير من الجزائريين وهم يحلمون ويَرَوْنَ كوابيسَ وَهُمْ واقِفون. إنّ هذه الأشياء تدفعهم إلى الجنون. النومُ الممنوعُ هو نقيضُ الأَرَق، ويقودُ إلى سرعة الانفعال ثمّ إلى الموت.

لقد تمّت دراسة هذه الأشياء لدى القِطَط، وهذا ما قرأتُ عنه. آه، لو كان النومُ، فقط، هو ما يتعرّض للمنع! فكُلُّ شيءٍ يُساهِمُ في منع الحياة. وكما لو أنّ هذا لا يكفي، فإنّ النّاسَ يمنعون أنفسهم بأنفسهم أيضاً. حين أُبصِرُهُمْ جَفِلِينَ في الشوارع، أقول لنفسي: لن تكون الأمورُ بِخَير.

يجب أن أكتبَ عن هذا النضال. عن هذه الأسِرّة الي تُشبِهُ أفراخ عُشّ في الحيّ الجامعيّ، وعن غَرَابَات الطَّلَبَة وعن إنجازَاتِهِم وعن مَلاَحِمِهِمْ الجميلة أحياناً والمُخَيِّبَة للآمَال في مُعْظَم الأحيان. يجب الكتابة عن زُمَر الشرطة التي تُطارِدُنَا في المساء في المدينة، والتي تصطحبنا إلى مَراكِزِهَا. هذه الشرطة التي تُلْصِقَ بنا، في غَمرة تُهَمِهَا، تهمة الدعارة، بسبب تَوَاجُدِنَا مع طلبة ذكور. الكتابة عن مُوَاجهاتِنَا في مَرَاكِز الشرطة الحقيرة في مدينة «وهران». الكتابة عن انحراف وزَيَغَان نظام «بومدين». الكتابة عن المُمَرّضات في قِسْم الولادات. الوِلادات المتَسَلْسِلة، ومَشَاهِدهَا الفيلينية[16]. الفتيات الصغيراتُ المَرعوبات، اللواتي يَتِمُّ إحضارُهُنَّ إلينا في ثياب عُرْسِهِنَّ. كنا مجموعة من العاملات في المستشفى اللّوَاتِي قَرّرْن ألاّ نَفْحَصُهُنَّ، مكتفياتٍ بِمَنْحِهِنَّ شهادات تُثْبِتُ أنهنّ فَقَدْنَ للتوّ بكَارَتَهُنَّ. شهادات مُزَوّرَة من أجل قضايا عادلة. في الخارج، يبدأ الزوجُ في الزعيق مثلَ حِمَار يتعرّض للذبح، في الحال: «سأَقْضِي عليكِ، أيتها المومس القَذِرَة!...»

(16) نسبة إلى المخرج السينمائي الإيطالي الكبير «فيليني».

يَجِبُ أن أكتبَ. أُمَنّي نفسي بهذا، بِشَكلٍ دائِم. ولكنّي أُوجَد في المَغْمَغَة بحيث لا أملك وقتاً للكِتَابة.

ساعات دراسة الطبّ طويلةٌ جدّاً، وهو ما جَعَلَنِي أَشْهَدُ تَخلّي العديدِ من طلبة جامعات أخرى عن مواصلة الدِّرَاسَة مِنَ السّنة الثالثة، فضلاً عن اندماجهم في الحياة النَّاشِطَة. شاهدتُ استِيلاءَهُم على جزءٍ مِنَ السلطة. في كثيرٍ مِنَ الأحيان شاهدتُ تَخلّيهِم عن روح الانتقاد. شاهَدْتُ بِدايَات التواطؤات... كنتُ أعيشُ هذا مِثْلَ خيانة. خِيانَةٌ أكبر بكثيرٍ من كلّ خيانات الحبّ. أَحتَفِظُ بِعُنْف مُرْهَف، مخدوشٍ على كلّ كلمة. ذات مرة تَسَبَّبَ أحد الناس المُنَكّدِين في إغضابي، والذي بعد أن سدَّ الطريقَ في وَجْهي، قَرَصَ نهدي، سَدَّدْتُ له، في قفزةٍ، وخلال تراخٍ في هَيَجَانِهِ، لَطْمَتَيْن في الشارع أمام الجمهور. كما حَدَثَ هناك، في الصحراء، ذاتَ مساء من فاتح نوفمبر... أعرفُ ما الذي كَلَّفَنِي إياه. لا أجهلُ وَابِلَ العنف الذي يمكنني أن أَتَسَبَّبَ فيه من خلال رُدود أفعالي بهذه الطريقة. هي رُدُودُ أفعال تَتَجاوَزُنِي. فأنا أُفَضِّلُ أن أَمُوت على أن أَتْرُكَ الانطباع لهؤلاء الأوغاد بأنهم يستطيعون أن يفعلُوا كلَّ شيء دون عِقاب. ولكن، ويا للعجب، فإنّ هذا ليس آتٍ فقط من عدم الأهليّة. فَرَدُّ الإهانة وكذلك لطمُ وجه المعتدي هو لَمَعَانٌ كبير! عاصفةُ فَرَح تعبر الجَسَد وتَتْرُك نَارَهَا، خلال فترة طويلة، في باطِنِ اليد. هذه المرة لم يُنْقِذْني من التعرّض للضرب المبرِّح سوى عبور أحد الأصدقاء الوهرانِيِّين.

أَظَلُّ مليئةً بالشكاسة، وأُقَابِلُ كل عمل سافل بقبضةِ يَدٍ ساخرة مرفوعةٍ كَرَايَةٍ. أصدقائي خائفون عليَّ. ولكن في بعض الفترات

النادرة أَتَوَهَّمُ أنني أُوجَد في لُجَّة تَقَاسُمِ الصراعِ نفسه. ليست لديَ أَيَّةُ رغبةٍ في تَفْوِيتِ هذا.

غير أنّ الاختناق وسوء الاستعمال والعشوائية وغريزة الخَطَر وتِكْرَار الأشياء المستحيلة وإفلاس الحُبّ انتهت بأن جَعَلَتْنِي أَفِرُّ بِجِلدي.



هنا

أُحَاوِلُ إقناعَ نفسِي بضرورةِ الكِتَابَةِ عنْ أَسِرَّةِ الحُبّ أيْضاً. هُنَاكَ. الكِتابةُ عن الحبّ كي أتَطَرَّق، فقط، إلى موضوع الظُّلْم والتجاوزات. كي لا أَقَعَ في المَانَوِية. لم أَصِلْ إلى هذا إلاّ مرة واحدة. حدث في كتابي: «قرنُ الجراد». بالرغم من أن الأمرَ يَتَعلّقُ بِقِصَّة تَتَنَاوَل زَمَناً سابِقاً على زَمَنِي. في كلّ الروايات الأخرى يَتَكَسَّرُ الحُبُّ. إذا ما انهمكنا في هذه الحقبة، فإننا نَشْهَدُ، بشكل دائم، انتصارَ التمرُّد ومَشَاعِرِ الفوضى. التكرارُ هو الحافز وهو قَدَرُ المَضْدُومين. يجب أن يخرج هذا عبر اجترارات متوالية. كما لو أنّه يَتَوَجَّبُ إشباعُ الآخَرين كي نستطيع أن نتخلّص منها... غير أني عِشْتُ غراميّات كبيرة في الجزائر. غراميات مقموعة، بالضرورة.

عيادتي ليست بعيدة عن مكان إقامة «ماتيلد»، وأستطيع أن أذهبَ إليها سيراً على الأقدام. أشرعُ الآن في تفحُّصِ قَسَمَاتِ مَرْضَاي، وفي تَخَيُّل أي طرف ينتمون إليه، وفي استقصاء آرائِهِم. البعض منهم ذو تَوَجُّهات إسلامية، وهذا ما أعْرِفُهُ. أَسْتَنْتِجُ من هذا أنهم إذا كانوا يصرون على المجيء إلى عيادتي، فَلأنَّ الاحترامَ

والثِّقَةَ تَفوَّقَتْ على مُعَارَضَتِهِمْ لي. ومُخَالَفَتهم لِرَأي المَقَاطَعَة الذي تمّ النُّطْقُ بِهِ ضدّي هو دليلٌ لا يُمْكِنُ دَحْضُهُ. فَأَيَّةُ مجموعةٍ مَهْمَا تكن لا يمكنها أن تُشَكِّلَ كتلةً واحدةً. وأنا أُرَكِّزُ انتباهي على الفَرْدِ، وعلى ما يوجد في بَطْنِهِ، وعلى ما يُقْلِقُهُ. لا أَنْتَبِهُ للطوائف وللجماعات السياسية. أصدقائي، وخصوصاً الجزائريون منهم، يصرخون مُنَدِّدين بِعَمَايَ وبِمَوْقِفِي الانتحاريّ: «يمكنكِ أن تَحْظَيْ بِكُلّ ما يمكن من الشرطة، خارجَ العيادة، ولكن بمجرد أن تَجْتَازِي باب قاعة الانتظار حتى تصبحي فأرة! لن تستطيعي حينها حتى الفرار. من الجهة الأخرى تحميكِ شبابيك. ولكنهم يستطيعون أن يذبحوكِ دون أن يَنْتَبِهَ إليهم أحدٌ!» «ماتيلد» وَحْدَهَا من قَاوَمَت حالة الذُّهَان. مثلي.

ذات ما بعد ظهيرة، مزّقَ مُراهِقٌ فرنسيٌّ وَرِيدَهُ أمام باب العمارة المُجاوِرَة للعِمارة التي تَتَوَاجَد فيها عيادتي. فقد رفضت صديقتُهُ أن تفتَحَ له البابَ، ولم تَعُدْ تودّ أن تراهُ. كان عُرْضَةً للكثير من الصراعات وللكثير من الاضطرابات. جاء بعضُ الصغار من أبناء الجيل الثاني القاطنين في الشارع ليخبروني بما حدث. اكتشفتُ الشابّ وهو ملقى على الأرض وقد بَهَرَهُ مَنْظَرُ دَمِهِ وهو يَنْتَشِرُ على السِّماط في عتبة قاعة الانتظار في عيادتي. الأمرُ ليسَ صدفةً، من غير شكّ. الأمر لا يهمّ، فالحَزَّة عميقةٌ، وعليَّ أن أكبسها، لفترة طويلة، قبل أن أستطيعَ تطهيرَ الجُرْحِ ووضعَ نِقَاطِ الدَّرْزِ. ثمّ أَهْتِفُ بعدَهَا للمستشفى، فالأمرُ يَتَطَلَّبُ مُرَاقَبَةً ودَعْماً سيكولوجياً. لا أحتاجُ إلى خدمات «قِسْم الدعم الطبيّ المستعجل»، وحضورُ رِجَال المَطافِئِ يكفي لنقل المريض إلى المستشفى. كانوا قد وصلوا للتوّ،

وكنتُ منهمكة في الحديث إليهم حين تَنَاهَتْ إلى سمعي صرَخَاتٌ وعويلٌ. اندفع كلّ الحضور إلى الخارج. كان مصدر الصراخ آتٍ من صديقةٍ جزائريّة، «فريدة» كانت متكزّزة وتصرخ كما لو أنّ بها مَسٌّ. جاءتْ لتبحث عنّي، لأنها كانت ستتعشى معي عند «ماتيلد». لما رأت «فريدة» بَحْرَ الدمّ وشاحنة رجال المطافئ الصغيرة أمام باب عيادتي والفضوليين الذين يودون معرفة ما حدث، تَصَوَّرتْ، بِسُرعةٍ، بأنه تمّ اغتيالي. حين لمَحَتْنِي، وكان نظرُهَا مُعَكَّراً، صدرت عنها حشرجةٌ: «ها!ها!» عرفتُ فوراً ما دار في رأسها، وما سيحْدُثُ جَعَلَنِي أقفز وأستقبلها بين ذِرَاعَيَّ. كانت سَتَهْوي. بعد هنيهة استرخاء، انْفَجَرَتْ «فريدة» في البكاء:

– عليكِ اللعنة! عليكِ اللعنة! إلى متى ستجعليننا نعاني هذه الأشياء؟ قولي إلام؟ إلى أن يصبح هذا الكابوسُ حقيقةً؟!

أغلقتُ عيادتي، ورافقتُ «فريدة» في وضعية المصدومة إلى منزل «ماتيلد». وحتى هذه الأخيرة كان ضَحِكُها، هذه الليلة، مُتَشَنِّجاً، لدى سماعها ما جَرَى. ولقد تجرَّأْتُ، مع ذلك، على أن أحكي كلَّ شيء بِسُخريةٍ. لم تكن الظروف مناسبةً، فالأخبار القادمة من الجزائر واصَلَتْ صَدْمَنَا، فقد تمّ اغتيالُ أصدقاء ومَعَارِف فقط لأنهم كانوا كُتَاباً ومُبْدِعين. من أجل أن نرفع معنوياتنا قمنا بِمُهَاتَفَة «فاطمة» و«وديع» في مدينة «وهران». وهما زوجان من أصدقائنا الحَميمين، ومن المُقبِلين على مَبَاهِجِ الحياة بمَرَح. وهما من الذين كانوا حاضرين في كلّ أشكال المُقَاوَمَة في الحيّ الجامعي. والآن في المدينةِ المُحَاصَرَة. هَؤُلاء الذين كانوا يقولون لنا دائماً: «متى سَتَأْتُونَ؟ سننتظركم من أجل أجواء الفرح والصخب! طيّب،

سَنُوَاصِلُ هذه الحياة المَرِحَة حتى تَلْحَقُوا بنا!» حتى هؤلاء أصبح لَهُمْ هَمْسٌ منطقيٌ:

– «مليكة» لا تضعي قَدَمَيْكِ هنا! انتظري ضوءَنَا الأخضر. هل أنتِ مُوافِقَةٌ؟

هم يجهلون أيَّ طريقةٍ تَرِنُّ بها في أعماقي كَلِمَاتُهُمْ، هذه الليلة. هذه الليلة يَخْدِشُنِي خوفُ الآخرين. أُفكِّر في «جاعوت» وفي «علولة» وفي «ميموني» وفي أُناسٍ مجهولين... من المؤكّد أنني لا أستطيع أن أنامَ.

مجهولون قاموا بِبَصْقِ شَتائِمَ في المُجَاوِبِ الآلي. التهديدُ لا يوجد إلاّ في لهجة الكلام. زعيقٌ أَصَمّ. أقفز في مكاني وأُعِيدُ الاستماع إلى الخِطاب. الصوت مختلفٌ عن الأصوات السابقة. هذه المرة، يَتَعَلق الأمرُ بِرَجُل ناضج، ويتحدث باللغة العربية. هل هو ثَمِلٌ بشكل مقبول؟ أم هو مُجَرّدُ تشويش؟ أعتَقِد أنني أعرف هذه النَّبْرَة الثَّمِلَة. بِذُهولٍ أَبْعَدتُ اسم الشخص الذي حَضَرَ إلى ذِهْني. فهذا الأخيرُ ليس له ما يربطه بالإجرام، ولن يكون فريسةً ضائعة سهلة التجنيد. يتعلق الأمرُ بأحد الجامعيين تَحَدَّث دائماً، بمديح، عن أعمالي! رَنَّة الهاتِف جعلتني أقفز من مكاني. إنها الشرطة. هي تعرفُ. «ولكنّ المُرَحِّلِ الهاتفيّ تَعَرَّضَ للانفصال، تحديداً في تلك اللحظة.» فلم تستطع الشرطةُ أنْ تُحَدِّدَ مكانَ المُكَالَمَة. كنتُ منذهلةً بحيث إنني صَدَّقْتُ هذا الأمرَ المُسْتَهْجَن. طلبتْ مني الشرطةُ تسليمَهَا الخطاب المُسَجّلَ وترجمته الفرنسيّة. سَلّمته لهم قبل أن أَفْهَمَ: من الواضح أنَّ الشرطة لن تبوح بأي شيء. كلّ هذا ليس إلاّ

مسرحِيّة. فَتَحْقِيقُ الشُّرْطَة يَتَجَاوز بكثير مسألة تأمينِ سلامَتي، وأشعرُ بالألَم بسبب قبولي الأمر. لم أتَحَدَّثْ إليهم عن الصوت الذي يطاردني. لن أتحدّثَ إليهم. ليس الآنَ على الأقلّ. فالشرطة، هي أيضاً لا تُطَمْئِنُنِي.

لاَحِقاً، بعد بضعة أيام، ولدى أوّل رنة في قاعة الانتظار، وَجَدْتُ نفسي وجهاً لِوَجْهِ أمام شخصٍ مجهول. كان رَجُلاً ضخماً وأَسْمَرَ ومُلْتَحٍ. أحسستُ بنفسي صغيرةً أمامَهُ. كان يبدو عليه أنه محموم. بعد توقف دام ثانيةً، تَمَاسَكْتُ وابْتَسمتُ وطلبتُ منه أن يتبَعَنِي. هَوى، حالاً، على المَقْعَد أمامي، وهو يُقَطِّبُ وجهَهُ. كان في أسوأ حالٍ. رنّات أخرى في قاعة الانتظار كانت تَصِلُ أسماعُهَا عندي وتُساعِدُنِي على الصمود. أَلْحَحْتُ كي أُقْنِعَ هذا الماستودونت الضخم- والذي كان مريضاً حقيقةً - بِقَبول تَوَقُّفٍ عن العمل. عَبَسَ كَما لو كان أمامَ عُقُوبَةٍ. خلال مرافقته اعتذرْتُ من المرضى المُنْتَظِرين، طلبتُ منهم أن يسمحوا لي بلحظة، وذهبتُ لأَهْوِي على مَقْعَدي: أحسستُ بالعار من ارتياحي. أحسستُ، بِبَسَاطة، بالعار: «كيفَ يُمكِنُكِ أنْ تَتَصَرَّفِي إزاء هذا؟ إنّ هذا يُدْعَى جُنْحَة الوجه القذر! فَهَلْ نَسيتِ وَجْهَكِ؟»

أُحِسُّ بالانهيار. أَنْهَارُ بشكل كامل، بسبب كثير من الأسباب. فَعِيَادتي مَأزِقٌ. أعرِفُ هذا منذُ فترة طويلة. عيادتي مُقاوَلَةٌ ضخمةٌ. وتستدعي حياةً بِأَكْمَلِهَا. تَتَطَلَّبُ التزاماً كُلّياً. ولا تستطيع، أبداً، أن تَتَعَايَشَ مع ضروراتٍ مطلقة مُشابِهة لضرورات الكِتَابَة. يَستلْزِمُ الأمرُ

جَسَدَيْن وإرَادَتَيْن مُخْتَلِفَتَيْن كَيْ أُرْضِيهِمَا: «لا يُمْكِنُ تثبيتُ لوحة إعلامية لطبيب، في هذه الحالة الخاصّة، حين يكون غائباً طول الوقت!»

في الحقيقة، لا تعمل الفضيحةُ وَشَكُّ اليوم سوى على التسريع بِاتخاذ قَرارٍ كنتُ مُرْغَمةً على فعله إما عاجلاً وإمّا آجلا. ولكنه ليس سبباً في أن أُحِسّ بالألَم في كل مكان.

أَنهَيتُ للتوّ كتابي «أحلامٌ وَقَتَلَة». كلُّ العنف والألَم، الكظيم والمكبوت انبثق في هذا النصّ الهجائيّ. أنا أخشى دائماً الانهيار الذي يَلِي نهايةَ رِوَايةٍ مَا. انهيار عصبيّ لِفَترة ما بعد وَضْعِ الحَمْل. في هذه الحالة، يبعث بي هذا الانهيار، دون حيوية ونشاط، إلى بلوى الافتراق وإلى تنكيداته... فقد حاول «جون-لويس» جهدَهُ من أجل ألاّ يَتِمّ الطلاقُ. كنا قد تَزَوَّجْنَا بعد سنة من وُصُولي إلى فرنسا. وهذا يعود إلى سبعة عشر عاماً. ولكنني أكرهُ كلمة «زوج». ولا أستعملها في حديثي أبداً، مفضلة استعمال كلمة «صاحب».

حين وصولي إلى فرنسا، كنتُ معارضة بشكلٍ قاطع لِكُلّ فكرة عن الزواج. ولكن القوانين الأكثر صرامة تجاه الهجرة أَرْغَمَتْنِي على الزواج. في سنتي الأولى في فرنسا كانت وثيقة «إعلان المُساكَنَة من غير زواج» كافيةً لِحُصولي على وَصْلِ إيداع ملفّ الإقامة الذي يُتيحُ التحرُّك الحرّ في انتظار تسليم بِطَاقة الإقامة. ولم أَكُنْ قد حصلتُ عليها بعدُ بسبب توجيهات صارمة كان قد تمّ إعلانها رسمياً. وفيما يخصُّ المُسْتَنَد الثُبوتيّ فقد أصبح لاغياً. إنّ عِشْقَ رَجُلٍ والرغبة في العيش معه لم يَعُودا يَجعلان الإقامة شرعيَّةً في فرنسا. يَجِبُ القول إنّ وضعيتي القانونية كانت مُتَخَلْخِلَة شيئاً ما: فقد كنتُ مُسَجَّلَةً في

جامعة «وهران» وكنتُ أُنهي دراساتي في الطبّ في فرنسا. ولم أَستَطِعْ، أيضاً الاستفادة من مستحقات شُغلٍ مَا. وكان مُرَتَّبِي باعتباري طبيبة تشتغل في الليل يدفع إليّ بصفة غير قانونية. كانت وضعية المقيمة بصفة غير قانونية عالقة بأنفي. وكي أتخلّص منها، فإنه يتوجب عليّ، من الآن فَصَاعِداً، إمّا أن أُبرز رصيدا بنكيا بصفة أجنَبيّة مُزَوَّداً بمبلغ ماليّ باهظ وبالعملة الأجنبية، وإمّا أن أتزَوَّج.

ما كان الحلّ الثاني إلاّ لِيُرْضِي «جون-لويس». بِسَبب خشيَتِهِ من أنَّ العدَدَ الكبيرَ من العوائق التي أَتَمَاسَكُ بالخناق معها في «باريس» تتغلّب على حماسي، فقد صَمَّمَ على إقناعي، منذ البداية، بالزواج به: «وثيقةُ الزواج ليست سوى ورقة! فنحن نعيشُ معاً منذُ فترةٍ طويلةٍ، أَلَيْسَ كذلك؟ سَتَسْمَح لكِ فقط بأن تعيشي في وضعية قانونية هنا. وفيما يَخُصُّنِي لنْ أَشْعُرَ بالفزع والقلق من أن تَحْدُثَ لكِ مَشَاكِل، ومِنْ أن يَتِمَّ طَرْدُكِ!» غير أنه حتّى إذا اضطررتُ إلى قَبول هذا الحلّ، فإنّ كوني أحتاجُ إلى شهادة ازدياد تحمل إشارة «وثيقة لِغَرَض الزواج» يُوقِفُنِي عند حدّي. وإذا ما طلبتُ هذه الوثيقة من بلدية قريتي، فإنّه سيتم إخبار وَالِدَيّ، حالاً. وأَستَطِيعُ أن أتَخَيَّلَ صَرَخات الاستنكار. لم يَكُنِ المُشكِلُ محصوراً في هذا، فالانعكاساتُ على أَخَواتي اللواتي ما زِلْنَ يَعِشْنَ في كَنَفِ العائلة تَجْعَلُ مشروعي مُوجِباً للفَسْخ. قَرَّرْنَا حِينَهَا، «جون-لويس» وأنا، الذَّهَابَ لقضاء نهايةِ أسبوعٍ في «أمستردام» ومعنا المبلغ الماليّ المطلوب حسب القانون الفرنسي، وطلب تصريح بالعملة الأجنبية على الحدود، عند عودتنا. كان سيُقْرِضُنِي هذا المبلَغ.

في الوقت نفسه، وفي الجزائر، تزوَّجَت أختي الصغرى زواجاً

رسمياً. وكي يتمّ الزواجُ سَلَّمَتْهَا بلدية «قنادسة»، في البداية، شهادةَ باسمي، فقامت بإرسالها إليَّ: «من أجل الضحك! أنا التي كنتُ أمامهم، ولكنْ بعنادٍ، فَأَوَّلُ زَواجٍ في العائلة لا يمكن أن يكون إلاّ زواجُكِ أنتِ.»

«جون-لويس» الذي كان يعوم في الفرح، صرخ متعجّباً: والآن، لم يَعُدْ من عائق أمام زواجِنا. ثمّ إنّ هذا علامةٌ. - لا، ما تزالُ ثمّةَ عُقدةُ تسجيل الزواج... -نعم، نعم، إنها قضية من اختصاصي. سأكتبُ إلى عمدة الدائرة الخامسة. انتهى بنا الأمرُ إلى الحصول من عمدة هذه الدائرة على أن لا يَتِمَّ إخبار بلدية «قنادسة» في الجزائر بزواجنا. كان هذا هو شَرْطِي الوحيدُ، والمتمثل في ألا أَخْلُقَ مَشاكِلَ لأَخواتي هناكَ. فإحدى الجزائريات المقيمات في كندا، وبسبب زواجِهَا من أحد السكان المحليين، تمّ اختطافُهَا وترحيلُها إلى الجزائر من قِبَل إخوانها. هذا الحادثُ العاديّ ساعَدَنَا على إقناعهم بحجم المَتَاعِب والضَّرَر الذي يمكنني أن أتعرَّض له بسبب ذلك.

في اليوم المعلوم رافَقَنَا فقط شاهِدان، جزائرية وفرنسيّ. وقد كنّا، منذ ثلاثة أسابيع، شاهِدَيْهِمَا، في الشروط نفسها. نهايةُ خطبة العُمْدَة كانت مُوَجَّهَةً إلَيَّ: «هل تعرفينَ أنّكِ إذا طلبتِ الجنسية الفرنسيّة في الخمسة عشر يوماً التي تَلِي زواجَكِ، فإنّكِ ستَحْصُلين عليها بصفة أوتوماتيكية. فأنتِ ولدتِ قبل الاستقلال، والأمر لا يتعلق سوى باسترجاع الجنسية.»

أضحكني تعبيرُ «استرجاع الجنسية». فقد كانتْ، حينَهَا، لديَّ قابلية واستعدادٌ لأنْ أَفْقِدَ جنسيتي بَدَل أن أتبَنّى جنسية أخرى. ففي

كلمة جنسية نَجِدُ بشكل خاصّ كلمة قوميّة[17]. لم أكُنْ أستَشِفُّ فيها سوى تشَابُك واختلاط الواجبات من غير حقوق. خدعةٌ من أجل مُصادَرَة الحريّات والاستعداد للحرب وللأحقاد؟ فالأناشيد الوطنية تزعق في أُذُنَيّ مُعْلِنَةً انتصارَ الطائفيين والمتعصبين على العُقُول النيّرة. أجَبْتُهُ: «لا أعرفُ في أيّ مكانٍ سأرغب بالإقامة بعد الانتهاء من دراساتي...» كان جوابي يُعَبِّرُ عن الحقيقة. لذلك لم أُقَدِّمْ طلباً للحُصُول على الجنسية الفرنسية. وبعد فترة طويلة، علمتُ، هنا في «مونبوليي»، أنه بإمكاني الحصول على الجنسيتَيْن معاً في الوقت نفسه. هذا المنظورُ وَضَعَ حدّاً لتحفظاتي: «فَمِنَ الأفضلِ أن تكونَ لديّ جنسيّتَان بَدل جنسية واحدةٍ. وعبر تاريخٍ طويلٍ من حبّ تَخَلَّلَتْهُ صراعات، فإنّ هاتين الجِنْسِيَتَيْن ستمسحان، بشكلٍ مُتَبَادَلٍ، عُيوبَهُمَا.»

بعد سبع عشرة سنة، ورغم أنني مُصَفَّحَةٌ بِجِنْسِيَتَيْن اثْنَتَيْن، فها أَنَذَا أكثر ضياعاً من قبلُ ومن دونِ حُبٍّ.

من المُؤَكَّد أنني سأعود إلى تخصصي الطبيّ وأشتغل بطريقةٍ غير مُنْتَظِمَة وغير مُحَدَّدة. ومُباشَرَة من يوم الغد، سوف أهتمُّ بِطَلبات الأطباء الباحثين عن الاستقرار، هُنَا.

قضيتُ، عدّةَ مرّات، فترَةً ما بعد الظهيرة مع زَميلَيْن شابّيْن، في انتظارِ قَرَارِهِمَا. الطبيبُ الأول كما الثاني، فَهِمَا أنّ تعلّقَ المرضى بِشَخْصِي هو تعلّقٌ من طبيعةٍ مختلفة عما هو معتادٌ. يتعلّق الأَمْرُ

(17) تحيل الكاتبة إلى العلاقة ما بين nationalité و nationalisme.

بِربَاطٍ لا يمكن نقله وتحويلُهُ مع المكان. الحُجَّةُ الثانيةُ، وهي هامّةٌ، تتلخص في أنّه إذا ما غادرتُ المكان بصفة نهائية، فإنّ المرضى، الذين لا يَتَحَدَّثون اللغة الفرنسية سيذهبون لاستشارة زميلٍ آخَر من أصل يهوديّ من شمال أفريقيا. فهو على الأقل يَعْرِفُ اللهجات العربية. عيادتُهُ غير بعيدة، توجد في شارعٍ مُوَازٍ. والأمرُ منطقيٌّ.

إذا كنتُ صعبةَ الاستبدال، فإنّ مَرْضَاي، أيضاً، لا يُمكِنُ شِراؤُهُمْ. قساوة هذه الوضعية تُخَفِّفُ، شيئاً مَا، مِنْ مَرَارة اضطراري لأَنْ أُمَنّى بِهذه الخَسَارة.

متى سأتوقف عن العَمَل؟ سأنتظرُ حتى أعود إلى بيتي. ثمّ بعدها سأذهبُ، من جديدٍ، نَحو أَسِرَّةٍ مربوطةٍ بِآلات. وسوفَ أُكَرِّسُ وقتاً أكثرَ للكتابة. هذه الفكرةُ تَمْنَحُني العَزَاءَ.

وطأةُ صمت الليل كبيرةٌ جداً. لَدَيَّ حنينٌ إلى ريح الطرمنطان. لَدَيَّ حنينٌ إلى نَزِيبِ ريح الرمال حِينَ هُبُوبِهِ. أنا في حاجة إلى الريح. في حاجة إلى هبوبه حين يبدأ صدري في الضغط، في الظّلام.



من وهران إلى باريس

وصلتُ إلى باريس، في شهر حزيران من سنة 1977، وبِحَوزَتِي مقدارٌ ضئيلٌ من المال. وهو ما استطعتُ أن أدَّخِرَهُ، وساعدتني الإرادةُ الطيّبةُ لأحد الأصدقاء على استبدال العملة الجزائرية. وإذا لم يكن الفرنكُ قويّاً، فإن البنوك الجزائرية لم تكن تسمح سوى بِمَبلَغ هزيل من العملة الأجنبية وهو ما يُساعِد على كلّ أنواع المُضَارَبَات. متسلّطون يحصلون منها على ما يتجاوز صيتَهُم. كُلّ الألاعيب ومَزَاريب الوزارات يمنحون لأنفسهم في الجزائر فَضَائِل القومية الحمائية. استبدلتُ أموالي الهزيلةَ لدى صرّافٍ فرنسي، بنسبةٍ أكثرَ مِنْ شَريفة.

أَعَارَتْني صديقة جزائرية شُقَّتَهَا في شارع «أليزيا» في الدائرة الرابعة عشرة. كانت تحظى بمنحة دراسية مُريحَة. ولم تَكُنْ تطلب مني شيئاً مُقَابِلَ هذه الإعارة. ولم أكن أدفع حتى الكهرباء ولا الماء. وفي الواقع، لم أَكُنْ أتواجد في الشقة إلاّ قليلاً. كنتُ أعيش في شوارع باريس. كنتُ أتمشى في شوارع باريس نهاراتٍ بأكملها، وأجزاء من الليل. لم أتسكّعْ من قبل في أية مدينة، وبصفةٍ أقلّ في الصحراء، مثلما تَسَكَّعْتُ فيها. فضلاً عن أنّه كان عندي الانطباعُ

بأنني أُحَلِّقُ في الجو. عندي نِعَالٌ مِنْ ريح في دَوَّامَات من أحلا
يقظة ومنْ ثُمَالَة. كنتُ أَفقِدُ بَوْصَلَتِي وأنا أَنْقُرُ على الأرصفة بير
جماعات من العاطلين عن العمل، ومن شَارِبِي الشَّمْس. كنتُ
أُراقِبُهُم وأقول لنفسي: «إنهم لا يستطيعون تَخَيُّلَ ما يُمثِّلُهُ، بالنسبا
لي، الحقُّ البسيط في تذوُّقِ جعة في الخارج! دونَ أن أتَعَرَّضَ للشت
والسباب. أو تصطحبني شرطةٌ جاهلةٌ.» أجنحةُ حُرِيتي جَعَلَتْنِي أنسى
البشاعات. كَمْ أحتاجُ إلى هذه الحرية. لِعُشَّاقِ مساءٍ وَاحِدٍ أقول:
«لستُ سوى عابرة. سَأَرْحَلُ غداً.» لا توجد لديَّ أيّة رغبةٍ في التعلّق
بِشَخصٍ مَا. الرَّجُلُ بالنِّسبة لي هو الأرضُ. هذه الأخيرة لا أُريدُ
سوى أن أَتَنَفَّسَهَا. أُريدُ أن أُفْقِدَ نفسي وَعْيَهَا في الطَّيَرَان وفي عُبُورِ
الأضواء.

تدور في رأسي فكرةٌ لـ«سيمون فيل»: «كُلُّ حَرَكَاتِ الرُّوح
الطبيعية تتحكم فيها قوانينُ مُشابِهَةٌ لِقَوَانين الوزن المادي. الخِفَّةُ،
وحدَهَا، تُشَكِّلُ الاستثناءَ.» في الثِّقْل والخِفَّة، أُوجَدُ، أنا، في حالةِ
استثناء.

لقد عشتُ للتوّ سَنَتَيْن صعبَتَيْن جِدّاً، في خِناق الشرطة وفي
السُّخط. سَنَتَيْن من دراسات ضائعة بِسَبَبِ أستاذ مُنحَرِف كان يجد لذّة
ماكرة في إنزال كلّ العذابات المُمْكِنَة بالطَّلَبَة وخصوصاً الإناث منهم.
حدث هذا بعد السنتين الأُخْرَيَيْن اللتين دفعتُ ثمنَهُما من معاملات
مدير ومفتش الثانوية السيئة. مسارُ المكائد هذا، بَدَأَ يَنْزِلُ بِثِقْلِهِ.

هذا الشخص القَذِرُ يدعى «محمودي». وهو رئيس قسم
أبحاث المعدة والأمعاء. بدأت القصة في السنة الثانية مع مادّة عِلْم

الأنسِجَة التي يقوم بِتَدرِيسِهَا. في مواجهة ثِقَل المُقَرَّر الدراسي، اتفقتُ مع صديقتي «خيرة» أن نَدَعَ مادَّتَيْن، ومن بينهما مادة علم الأنسجة، إلى شهر سبتمبر، من أجل الاستعداد بشكلٍ أفضلَ لباقي الموادّ. في يوم امتحان هذه المادّة، في شَهْر يونيو، وجدتُ أنه من غير المفيد بالنسبة لي حضورُ الامتحان، لأني لم أُلْقِ ولو نظرة واحدة على الدروس. بينما خضعتْ «خيرة» للأمر، وغادرتْ قاعَةَ الامتحان في غضون دقيقَتَيْن بعد أن أعادتْ ورقة الامتحان فارغةً.

أَظَلُّ في وهران خلال العطل الدراسية. بعد استراحةٍ مُسْتَحَقَّةٍ- نجحتُ في كل الموادّ التي اجتزتها- بدأتُ أتهيَّأُ استعداداً لشهر سبتمبر. أمّا «خيرة» فقد كانت قد غادرتْ إلى فرنسا.

في يوم الامتحان، اعترفتْ لي ضاحكةً: «لقد وصلتُ البارحة. لقد استمتعتُ كمجنونة. ولم أشتغل قطّ.

- أما أنا فقد اشتغلتُ كمجنونةٍ. إجلِسِي خلفِي. المَقاعِد المُدَرَّجَة غاطسةٌ. وتستطيعين أن تَرَيْ ما تشائين. وسَأَحْرِصُ على وضع وَرَقَة الامتحان بِشكلٍ واضح من جهة اليمين.»

تَصَرَّفْنا على هذه الطريقة. كانت «خيرة» محظوظةً، فبعد أن وزَّعَ علينا المُسَاعِدُ المكلَّفُ بالحراسة أوراق الامتحان، جَلَسَ على كرسي وغرق في قراءة إحدى المجلات. ولما كنتُ أنتهي من كلّ صفحة كنتُ أَنْتَظِر أن تهمس لي «خيرة»: «جيّد، تستطيعين أنْ تقلبي الصفحة.» من أجل مواصلة تسويد الجانِبِ الآخَر من الورقة. بعد خمسة عشر يوماً، وبعد أن تمّ نشر النتائج، حصلت «خيرة» على نقطة سبعة عشرعلى عشرين، بينما لَمْ يَرِد اسمي حتى بين الراسبين. رَفَضَ الأستاذ النذل ignoble استقبالي، ورفض كذلك إعطائي تفسيراً

مَا. وحين كنتُ أقترب منه في الخارج كان يقول لي باحتقار: «لا أعرفكِ. أنتِ غيرُ موجودةٍ!» وفي نهاية كلّ ستة أشهر، خلال سَنَتَيْن، لم يَكُنْ اسمي يَرِدُ إلاّ على قائمة الذين يَتَوَجّبُ عليهم دائِماً حضور هذه المادة، ولكن اسمي لَمْ يَرِدْ أبداً في القائمة التي تُبرِزُ النتائج.

شائِعاتٌ كثيرةٌ كانت تدورُ بخصوص هذا الشخص المرذول: «حين يَتَرَصَّدُ شخصاً ما، يتوجب على هذا الأخير أن تَكونَ له مَعَارِفُ وسَنَدٌ كي يَأْمُلَ في الخروج سَالِماً. فضلاً عن كونه مُسْتَعِدّاً لأيّ ابتزازٍ وتَوَاطُؤ. كان قد وَضَعَ في رأسه فكرةَ السعي إلى مَنصِبٍ سياسيّ رفيع. كانت له دعابةٌ إضافية من أجل الطالبات، وهي حقُّ التفخيذ، أو رؤيَتِهِنَّ، على الأقلّ، وهنّ يبكينَ ويخضَعْنَ لِطَيْشِه. وأما اللواتي كُنَّ يُقاوِمْنَ فقد كان يُسَمِّمُهُنَّ حتى النهاية. كان يَتَسَلّى بِكَسْر الرؤوس المُشاكِسَة.»

في نهاية السنة الثانية من هذه المعاملة، وجدنا أنفُسَنَا نُشَكِّلُ مجموعة من الضحايا. كُلُّ تَظاهُرَاتِنَا وكلّ شكاياتِنَا ظلت دون جدوى، وبالتالي فعليّ أن أجتازَ هذا الامتحان، للمرة الخامِسَة. أصيحُ في كل مكان بأني أكثرُ منه تَمَكُّناً في هذه المادّة! ذات مرّة صرَخْتُ لدى مُرورِهِ بأنّي سأقضي عليه عاجلاً أم آجلاً. كانت نبرةُ الغضب باديةً في صراخي إلى درجة أنه جفل مني، استدار نحوي ثمّ أُسرِع في الهرب. في الدورة التالية وَرَدَ اسمي على قائمة الذين سيجتازون الامتحان الشفوي بعد النجاح في الامتحان الكتابي. كان تقدماً يصعبُ إنكارُهُ.

اجتمع الطلبة أمام مكتبه، وبدأوا يتشاورون ويريدون مقاطعته

للمرة الألف. . . اندفعتُ أمام درجات القسم الذي يوجد به، مفترضةً أنه يستمع إلى مُداوراتِنا خلف باب المكتب وشَدَّدْتُ على القول: «لا توجد عدالة من أجل الفقراء والذين لا سَنَدَ لهم في هذا البَلَد. إنه يَسْخَرُ منذ سنوات من كلّ الإجراءات التي قمنا بها ضدّه. لم تتدخل أية جهة لِوَضع حدّ لهذه الأمور. إذاً سَنَدْخُل معاً، وسنُشْبِعُهُ ضرباً لن ينساه في حياتِهِ أبداً، ونجعله يبصق كلَّ رذائِلِهِ وكلّ رغبة لديه في مواصلة لعبة القتل!» الترددات والثرثرات غير الفَعَّالة هي أكثر ما أستطيعُ أن أتحَمَّلَهُ: «أنتم جُبَنَاءُ. أما أنا فَسَأَدْخُلُ. إذا لم يمنحني نقطة النجاح فسوف أقتلُهُ! وهكذا، على الأقلّ، سَوْفَ أُخَلِّصُ الجامعة من هذه القَذارة!»

أَدْخلُ، ويداي في جَيْبَي معطفي. يدي اليمنى منغلقةٌ على حصاة كبيرة عثرتُ عليها، البارحة، على الشاطئ. عند ظهوري على عَتَبَة مكتَبِهِ، صاح بي: «أُغْرُبِي عن وجهي، سأمنحكِ نقطة أحد عشر على عشرين. وقُولِي للبُلَهَاءِ الموجودِين في الخارج بأنه ليس عندي وَقْتٌ لأُضَيِّعَهُ.» أُوَاصِلُ تقدُّمي بِخُطوة: «أريد أن أرى نقطتي، مكتوبةً» وَضعَ الأستاذُ النقطة في القائمة التي كانت موجودةً أمامه. «ها أنتِ قدْ رأيتِ، أُغْرُبِي عنّي! - مَنْ يَضْمَنُ لي أنّكَ لن تُغَيِّر هذا يوم ظهور النتائج؟ - أنا أضمن لكِ ذلك، لأنني لا أُريدُ أن أرى وَجْهَكِ قطّ. - وأنا كذلك. هذا يُوافِقُنِي!» أُغادِرُ مكتَبَهُ إلى الوراء تحدوني رَغْبةٌ جَارِفَةٌ في أن أقذف بالحصاة في وَجْه هذا الفاسد، بالرَّغم من كُلّ شيء. ما زلتُ أحتفظُ بهذا الحِرمان!

هيَّأْتُ رحيلي إلى كندا. إذ عليّ أن أذهب في شهر يناير القادم.

فقد قرّر زوجان كنديان يشتغلان في الغاز في «أرزو» إعارتي شُقَّةً هناك. ومن بين أهمّ الأَسَاتِذَة في الطبّ، هناكَ، يُوجَدُ وَاحِدٌ من عائلتهم. أنا أيضاً سيكون عندي سَنَدٌ، في مكان آخَر. فقط من أجلي. في صحراء من ثلج. في بلد الشُّقْر. هذا سَيُغَيِّرُ كلَّ السواد الخَشِن الذي أتخَبَّطُ فِيهِ.

اشتغلت طوال شهر أيلول (سبتمبر) في باريس في إحدى المستشفيات الكبيرة، على أمل أنْ أُوَفِّرَ لنفسي سفراً في شهر أغسطس. أحيانا أتلقى تعليماتٍ تخصُّ عملي الليلي، ومن بينها هذا التحذيرُ: «انتبهي، في جناح كذا يوجد ثلاثة عَرَب. - هل رأيت رأسي؟ - أنتِ مختلفةٌ!»

خلال شهر أيلول (سبتمبر) سألتقي «جون-لويس». «جون-لويس» ليس مثل الآخَرين. لا أستطيع أن أقولَ له: «إني عابِرَةٌ.» لقد عاش في الجزائر، ولدينا أصدقاءُ مُشْتَرَكُون بالرغم من أننا لم نَلْتَقِ أبداً مِنْ قبلُ.

كنتُ أتغدّى مع إحدى الصديقات في منطقة «لوماري»، في باريس، حين قرَّرَ القَدَرُ أن يَمُرَّ مِنْ هُنَا. كانَ قَدْ عادَ للتوّ مِن جَولةٍ في زورقٍ في البحر المتوسط دامَتْ شهراً. كانِ يَتَدَبَّرُ أمرَهُ كي يَأْخُذَ إجازةً من جديد ويَأْخُذُنِي معه في جولة. النمسا، من «طِيرُول» إلى «فيينا». يوغوسلافيا. «تريستي» و«البندقية». شواطئ البحيرة الكبرى. وطوال فترة الرِّحْلة كان يتحدَّثُ لي عن الزَّوْرَق وعن البحر. في هذا الحوار العاشِق تَبَيَّنْتُ أخيراً إمكانيّة أن أعيش فضاءات لانهائية بدلاً من العيش في الهاوية والعزلة. بدأتُ أَحْلُمُ بالعبور والرحلات البحرية.

عند عودتنا إلى باريس في شهر أيلول (سبتمبر)، لم نَعُدْ نستطيع أن نَفْتَرِقَ. فيما يخصّ مشروع السفر إلى كندا، صحرائي البيضاء، فقد سقط في النسيان. توثُّبنا تَرَكَّزَ على الحالة الاستعجالية لإيجاد حلٍّ يَسْمح لي بِمُواصَلَة دراساتي في باريس. إصلاح التعليم في الجزائر يَرْمِي إلى وَضْع حدٍّ لِنَزيف الأَدْمِغَة، دون تحقيق أيِّ نجاحٍ فعليٍّ. هذا الإصلاح سيجْعَلُ من المستحيل عليّ أن أتَسَجَّلَ في الجامعة الفرنسية ما عدا مرحلة التخَصُّص. يَتَوَجَّبُ عليَّ، إذاً، أن أَنْتَظِرَ نهاية دراسَاتِي في الطبّ، وبالأحرى أنْ أَنْتَظِرَ نِهَاية العالَم.

الشخص المسؤول في كلية الطبّ في باريس، عن تمارين الطلبة الداخليين في المستشفيات، كانت امرأة. عرضتُ عليها مشكلتي. أصغتْ إليّ بانتباه وقالت مُتَعاطِفَةً: «في كل الأحوال توجد سابقةٌ. ابنُ رئيسِ جامِعَتِكِ سيُتابع دِراساتِهِ وتدريبَهُ هنا، وسَيَظَلُّ مُسَجَّلاً هناكَ في الجزائر. - آه، منذ متى؟ - إبتداءً من بداية هذا العام الجامعي. - صحيح، ولكنّ أبي ليسَ رئيساً للجامعة. ما الذي أستطيع أن أفعلَهُ؟ كيف يجب عليَّ أن أتَصَرَّفَ؟» فَكَّرَت خلال هنيهات، جَذَبَتْ من أحد الأدراج قائمة بأسماء أساتذة الطبّ وأشّرتْ على الأساتذة الذين يمكنهم قبول مساعدتي: ««ميلييكس» في البداية. فهو يدافع عن كلّ القضايا ولا يخسرها. «تيرّيس» في المقام الثاني. وهو من أَطِبَّاءِ الملك الحَسن الثاني. - ليس الأمرُ مرجعيةً، حقيقةً، بالنسبة لي!» تَبْتَسِمُ، وتُطَمْئِنُنِي: «لا، ولكنه قريبٌ مِنَ المغارِبِيّين. إنّه رَجُلٌ جيِّدٌ.» مَدَّتْ إلَيَّ القائِمةَ. كان يوجد اسمان آخَرَان. وكانت تُوجَدُ، أيضاً، عناوينُ الأقسام وهَواتِف السكرتاريا.

جِينَ خَرَجْتُ من هذا المكان، أسرعتُ إلى مَخْدَعِ هاتفيّ. «ميليكس» غائبٌ عن باريس خلال بضعة أيّام. حاصرتُ سكرتيرة «تيرّيس» وحصلتُ على مَوعد في ما بعد الظهيرة. الرّجلُ دافئٌ. حكيتُ له مَشَاكِلِي واختناقي ورغباتي. طَرَحَ عليَّ بعضَ الأسئلة حول مشواري الدراسي. بعد نصف ساعة من الحديث، قال مُخْتَتِماً: «طيّب، سنُحَاوِل، هل أنتِ موافقة؟» هززتُ رأسي مُكَزَّزَةً. تابع قائلاً: «سأكتب لكِ رسالةً بهذا الصدد.»

انتظرتُ أن تَرْقُنَ سكرتيرتَهُ الرسالةَ ويقوم بتوقيعِهَا: «إذاً حظّ سعيد. أَعْلِمِينِي بِمُجْرَيَات القضية.» في البهو، قرأتُ أخيراً رِسَالَتَهُ وكِدْتُ أَقَعُ على ظهري إذْ إن المحتوى فَاقَ توقعاتي. يَلْتَزِمُ الرجلُ الفَاضِل أمام الجامعة الجزائرية ليس فقط بِقَبُولي في قِسْمِه ولكن أيضاً بتنظيم تمريناتي القادمة. وسيختارُ رؤساء الأقسام الأخرى، ويَحْرِصَ على سير دراساتي في فرنسا. فِعْلياً أنا أحْظَى بِوَصِيّ باللون الأبيض في مدينة النُّور. كيف سيأتينا اليأسُ حين يستطيع طبيبٌ أن يُنْقِذَ طبيباً آخَرَ حتى وإن كان يَصْحَبُ الملوكَ؟!

الشَّوْطُ الثاني سَيُجْرَى في وَهران.

لَدَى وُصُولي، في نهاية الصبيحة، أخبرتُ صديقاتي بحكايتي التي تشبه حِكَاية جِنّيات، وأعلنتُ لهنَّ عن رغبتي في بذل كل مجهود من أجل الرحيل والذهاب لرؤية مسؤول التمرينات في ما بعد ظهيرة ذلك اليوم نفسه. «لا فائدة لكِ من بَذْل مجهودٍ لِلِقَائِهِ اليومَ. فهو غاضِبٌ جدّاً تجاه الطلبة. تَصَوَّرِي أنه في هذا الصباح، فقط، ومن خلال تَجَمُّعٍ عامّ، عَلِمَ بأن ابْنَ عميد الجامعة كان في فرنسا. عَلِمَ هذا عَنْ طريق الطَّلَبَة فَتَمَلَّكَتْهُ نَوبَةُ غضبٍ رهيبٍ. لقد أنهَيْنَا

تَجَمُّعَنَا، للتَوِّ مِنْ دُونِ التوصُّلِ إلى اتّفاق. سَنَشُنُّ إضراباً! مُديرُ الجامعة غائبٌ، في هذه الأوقات.»

تخلَّيْتُ عنهم فجأةً وعَدَوْتُ صوب مَكتَب هذا الرجل: «ماذا تُرِيدِينَ؟ لقد حصلت على نصيبي هذا اليوم من أفكار الطلبة الغريبة.
– سيدي، لقد أَتيتُ لرؤيتكَ من أجل شيء آخَر. أتيتُ أَطْلُبُ الإذنَ بالذهاب إلى باريس لمتابعة دراساتي.»

كان سَيُدِيرُ لي ظهرَهُ ويدخلُ إلى مكتَبِهِ، ولكنَّ كَلِمَاتي أَوْقَفَتْهُ. نَاوَلْتُهُ رِسالة «تيرّيس»: «خذ الرسالة. «تيرّيس» إنسانٌ مُقتَدِرٌ جداً.» قرأ الرسالة: «أُدْخُلِي.» جلستُ في المكتب. هشَّ في وجهي: «لا أرى أيَّ سَبَبٍ في رفض هذا لكِ، لا سيما وأنّكِ قَدَّمْتِ طلباً مع هذه الضمانة هناكَ، حين يُعْفِي فلانٌ نَفْسَهُ مِنْ كلّ شيء، فقطّ لأنه ابْنُ شخصيةٍ نافذةٍ.» طَفَقتُ أَرْتَعِشُ على الكرسيّ. أضاف: «فيما يخصّ المنحة الدراسية، سيكون الأمرُ صعباً، شيئاً مَا. ولكن لا بدّ أنه تُوجَد حيلةٌ مَا.» قفزتُ من مقعدي: «لا، يا سيدي، لا! لا أُريدُ منحة. لا أُريدُ أنْ أَدِينَ بشيء لهذا البلد.

– أنتِ مُخطئةٌ... أكتبي لي طلباً بخطّ يَدِكِ، الآن وبسرعة. خلال هذه اللحظة، سَأُمْلِي عليكِ رسالة ترخيصٍ وتنسَحِبِين بَعْدَهَا. لا يجب أن تكوني هنا حين سيعود العميدُ.

ما إن أمسكتُ برسالته في يدي، حتى أسرعتُ لِمُهَاتَفَة «جون–لويس» الذي اشتَدَّ قَلَقُهُ وهو ينتظر في باريس: «وَاوْ! سوف نذهب في جولة بَحْرِيّة!» في أفق الرحيل، اكشتفتُ: «منذُ متى لَم أرَ وَالِدَيَّ؟» لا أعرفُ. يتوجب عليَّ أن أذهب إليهما. لن أقولَ لهما إنني سأذهب إلى فرنسا. خِفَّتِي في تلك اللحظة لا تستطيع أن تُمْنَى

بِكَارِثَةٍ. قَرَّ رأيي على شراء تذكرة طائرة إلى مدينة «بشار»، التي لم أَبْقَ فيها إلاّ يوماً واحداً.

ثمّ عُدتُ إلى المستشفى مُحَمَّلَة بِمَا يجعلني أَحْتَفِلُ بِمُعْجزاتي الصغيرة وبِوَداعاتي. كان الجميعُ مُنْذَهِلينَ، وكنتُ أَوَّلَ هؤلاء المُنذهلين.

لدى عودتي إلى «بشار»، عشية سَفَري إلى باريس، قمتُ بِشِراء سَجّاد وغِطَاء رقيق جداً، مصنوعٍ من الصُّوفِ المُنْسَلَ ومن وَبَر الجَمَل. سيكون غطاءَ سريري. منحتُ لنفسي غَرَّافَة خَزَفِيّة أيضاً. لم أكن أرى، حينَهَا، الجانِبَ الهزلي من هذا الشراء. لم أكن أعرف بأنني أحمل معي الصُّوفَ وَوَبَرَ الجَمَل كي أُكَوِّرَ فيهما غرامياتي. كي أنامَ فيهما على أرضٍ أخرى. وِعاءٌ من هنا مِنْ أجل مواصلة إرْوَاءِ عَطَش لَيَالِيِّ هناكَ.



هنا

عدتُ إلى منزلي خلال منتَصَف فصل الربيع. ووضعت الشبابيك الحديدية الموجودة في كلّ المَنَافِذِ حدّاً لِتَحفّظات الشُّرْطة. وكم كانت سعادتي كبيرة بعودتي إلى منزلي من جديد. إلى سريري، ولِوَحدي. عند استيقاظي، في الصباح، وقَبْلَ أنْ أَفتَحَ عَيْنَيَّ، أُحِسُّ بِرَغْبَة الضَوء/النور تَتَصَاعَدُ في كِيَاني. أُولَى الوَمَضَات الفُسفوريّة على جَفْنَيَّ اللذين ما يزالان مُنغَلِقَيْن. إشعاع الضوء ينتشر في جسدي. أَتَمَدَّدُ وأَتَمَتَّع بِهِ. حين أفتح الستائر، تنسل الشمسُ دَاخِلَ الغرفة وتَغْمُر شَرَاشِفِي. أُفَتّش عن دِفْءِ الحديقة. شُجَيْرَات الورد تبدأ في التفتّح. أَشْعُرُ بامتلاءٍ كبير. فعزلتي عثرتْ على مَرَحِهَا، وقد تَمَّ بَرْيُهَا من جديد. وحتى الأرَقُ فإنّه لم يَعُد إلاّ شيئاً مُضافاً. لم يَعُد إلاّ شَراهةَ رَاصِدٍ. الأخطارُ ونهايتُها يَشْحَذان الإحساسَ، وَيُرَكِّزان انتباهي على بُروز اللحظة.

كانت المُصادَفَةُ مُضحِكةً، فَقد تَزَامَنَ طَلاَقِي في شهر مايو من سنة 1995 مع افتتاح «كوميديا الكِتَاب»، معرض مونبوليي. حين وصلتُ إلى جناح أصدقائي المَكْتَبِيِّين، قلتُ مُتَبَجِّحةً: «طاب نَهَارُ كوميديا الكِتَاب، لقد أَتَيتُ لأقول وداعاً لِكُوميديا الحُبّ.» كان الأمرُ

بِمَثابة تَحَدٍّ مِنْ قِبَلِ امرأة جريحة. لقد نجَحَ هذا الحبُّ في التخفيفِ مِنْ عدوانيتي ومن غلوائي، وأَعَادَنِي إلى نفسي. أكثر حرية... بعد فترة قصيرة جداً، جاءني صوتُ «جون-لويس» الكئيب على الهاتف. المتاعب ما زالتْ مستمرةً في عَمَلي. قلتُ له مُقْتَرِحَةً: «لماذا لا تأخذُ إجازة لمدة سنتَيْن وتذهب لإشباع رغبتِكَ الدائمة في دورة حول العالمَ في زورق.» أجَابَنِي بِرَنَّةٍ فيها شيءٌ من الندم: «دورتي حول العالَم في زورق أريد أن أقومَ بِهَا بِصُحْبَتِكِ!» كلمات حبّ، بما لا يقبل الجَدَل. لنْ نقومَ بِدورةٍ حَول العالَمَ، معاً، في زورق لأن رِحْلَتِي في الكِتَابَة بدَتْ لَهُ نهاية العالَم من دونه. نهايةُ العالَم هي، أيضاً، هزيمةُ كَلِمَاتِ الحُبّ...

تركتُ عيادتي في شهر حزيرانَ (يونيو)، بعد أربعة أشهر من التهديدات، ودون أن أُخْبِرَ مَرْضَايَ. أحسستُ بالألم من جراء هذا، ولكنّ الدوائِرَ المختَصَّة لم تترك لي من خيار آخَر: «فالخبرُ يمكن أن يُعَجِّلَ في التسبُّبِ بِهُجُوم ضِدَّكِ.» عند أول اتصال هاتفيّ بزملائي الاختصاصيين بأمراض الكلى، جاءتني اقتراحات كثيرة جداً. المرأة التي لا يمكن استبدالُهَا ستقوم بِمُناوَبَات. فقط ما يكفي للعيش بصفة مقبولة، وكي لا أُخْضِعَ الكتابَةَ للحاجة إلى المال.

أَجِدُ، من جديد، أُسرَة تنقية الدم وخرخَرَة مُولِّدَات مُتَرَصِّدَة. مجموعة أنابيب يدورُ الدّم بينها وبين الأجساد المُعَلَّقَة: حِبال صُرَّة مَوْصُولةٌ، بصفة مُلِحَّة، ثلاث مَرّاتٍ في الأسبوع، وإلاّ حدثت مُضاعَفات قاتلةٌ. الكليةُ الاصطناعية مُكَوَّرَة، مِثْل تعبئة ثانية وبطارية حياة، في شرنقة مُدْهِشَة من إنذارات الخطر. لدى هذا الالتقاء الجديد، أقيسُ هذه الأَسِرَّة التي كنتُ أَحِنُّ إليها. ودورها الذي ظَلَّ،

إلى حدّ اللحظة، خفياً في قراري بالعودة. هنا، في هذا المكان يوجد مكاني الحقيقيّ كَطَبيبة. جولاتي لتقديم العلاج للمُهاجِرين كان استجابةً لِحَيرة. لا يُوجَدُ منفى أكبرُ من هذه الأمراض المُزْمِنَة التي يكون فيها البقاءُ على قيد الحياة متعلِّقاً بصفة نهائية بِدِقَّةِ التقنيات الطبية. هذا التخصُّص يُنَاسِبُ مُيولي. سأكتبُ، ذات يوم، عن أوقاتي بالقرب من هذه الأَسِرَّة، وعن علاقاتي مع هذه الأجساد. عن هؤلاء المُرْغَمِين على العيش مع عَطَشٍ لا يُرْوَى، بسبب عدم قدرتهم النهائيّة على التَبَوُّل، وإلاّ فَإِنَّهُمْ يُجازِفُونَ بالتعرّض لـ «أوديما رئوية»، هذا الغرق الداخلي الرَّهيبُ.

أَتَّقِي قَدْرَ استطاعتي تأثير الحراسة البوليسية. حين صُدورِ كتابي: «أحلام وقَتَلَة»، كانت مجموعات من الشرطة تُحاصِرُ الأمكنة التي أُحَاضِرُ فيها. كنتُ أَشْعُرُ، أحياناً، وكأنّي أَتواجَدُ في الجزائر بسبب انفجار البلد في وجهي، بسبب انتشار هذه الترسانة، وبسبب وجودي، باستمرار، مُخْتَزَلَة، بسبب القُرَّاء والجمهور، إلى تحليلات سوسيولوجية وجيو-سياسية للمجتمع الجزائريّ. ولكن ما يُزْعِجُني أكثرَ من أيّ شيء هي التَنَصُّتَات الهاتفيّة. إنها تحطيمٌ كبيرٌ للحميمية. والأشدُّ وطأة عليّ هو التزامُ رِقَابة ذاتية في الوقت الذي أحتاج فِيهِ كثيراً إلى التحدث مع أصدقاء شتَّتَهُم الإرهابُ في بِقَاعِ العالَم. أُفَكِّرُ كثيراً في محنة كثيرين غيري يعيشونها، وبدرجةٍ أكثر قسوة. إن الأمرَ، بالنسبة له، جهنميٌّ.

غير أنه خلال مَعَارِض الكِتَاب، في خريف 1995، وأنا مُحَاطَة بِحُرّاس في ثياب مدنيّة، بِمُسَدَّسات في جيوبهم الداخلية، أَعيشُ

لحظات ساخرة وأحياناً، غير مألوفة. في مدينة «نانسي»، كان أحدُ هؤلاء الحرّاس أصْهَب ومُتَبَجِّحاً. في فترة ما بَعد الظَّهيرة، وبينما كنتُ منكبّةً على توقيع كُتُبِي، لَمْ يَتَوَقَّفْ عن الهمس بأفكار مثيرة للضحك خلف ظهري. وقد استفاد من هذه الوضعية زُمَلاؤُهُ والكُتَّابُ والزُّوَّارُ وكلّ الحاضرين. لقد نجح في مَحْوِ ما تَسَبَّبَ فيه هذا الحُضورُ البوليسي من تَوَتُّرٍ ومن تَوَجُّسٍ. مساءً، وفي نهاية العشاء، جَلَس إلى طاولتي وأدهشَ الكُتَّاب الآخَرين وهو يقرأ قصائد «مارينا تزفتيفا» و«أخماتوفا» و«مانديلستام»- وَهُوَ من أصلٍ بولونيّ. وختم قائلاً في جهتي: «كنتُ الحارِسَ الشخصيّ لـ«رشيد ميموني» حين جاء إلى هنا. ولكنّ جسداً مِثْلَ جَسَدِكِ أتمنى أن أَظَلّ حارِساً له لِفَترة طويلة.» فيما بعد، وهو يُرافِقُني إلى الفندق، قال لي أمام باب غرفتي، دائماً بنفس اللهجة الغَمَّازَة المُتَجَاهِلَة: «نامي مِلْءَ شوارِدِكِ. سنؤمن حِمايَتَكِ، زميلي وأنا، فنحن نَتَوَاجد في الغرفة المُجاوِرَة. فلا تَرْتَعِبِي في الليلِ إِذَا مَا سَمِعْتِ ضَجَّةً، فإني سأكونُ منهمكاً في هَدْمِ الفاصل ما بين سَريرِكِ وسريري.»

عِنْد رحيلي عن المدينة، منحني وردةً مُتنَاغِمَة مع لون فُسْتاني الأصفر.

لو كانَ كلّ أفرادِ شرطةِ هذا البلد يشبهونه، فمن الأكيد أنّ الكثيرَ من الناس كانوا سيحتاجون إلى حماية.

ولكنّ ما حدث في أحد صالونات الجنوب كان أقلّ مَرَحاً. ذات يوم أَحَدٍ، في نهاية النهار، شقَّت مجموعة من أفراد الشرطة لنفسها طريقاً بين الجمهور كي تلقي بنفسها عليّ: «لا داعي للقلق، ولكن يتوجب علينا أن نصطحبكِ معنا.» جَرُّوني إلى داخل خيمة

المعرض. تمّت المناداة على سيارة تاكسي وزَجُّوا بِي في داخلها. ورافقوني إلى الطريق السيّار، في اتجاه «مونبوليي». حينما وصلتُ، وبعد أن فتحتُ باب منزلي، قفزْتُ على الهاتف، وتحدثتُ مع المُنَظِّمين: «لقد لمحوا رجلاً مغاربياً وهو يمرُقُ بسرعة في مَعْرِضِ الكِتَاب، وكأنه يبحث عن أَحَدٍ بصفة محمومة.» إغراقٌ في الضحك. «المسكينُ، لقد استنتجنا أخيراً بأنه شخصٌ مغربيٌّ، كان يَبْحثُ عن أبنائه الذين لم يعودوا إلى البيت طوال النهار، وقد اشتغل خلال يومه في الحديقة. كان مَلْبَسُهُ مُناسِباً، وكان شيءٌ من التراب على سِرْوَالِهِ. وقد دفعه القلقُ على مصير أبنائه لِوُلوج الصالون. - هل تستطيعون طَمْأَنتي بأنه لَمْ يتعرّض للضرب؟ - لا أعرفُ. أتمنى أن لا يكون قَدْ حدث.»

حدثتْ نوادِرُ وطُرَف أخرى. إنها فكرة مبتذلة الاعتقادُ بأن الأصوليّ، في فرنسا، لا يمكن أن يكون إلاّ مُلْتَحياً أو رَجُلاً فَظّاً، على الأقلّ. وهو في كلّ الحالات هامِشِيّاً. في مرات عديدة، وأثناء معَارِض الكِتَاب، كان أمامي شبابٌ أنيقون وحليقو رؤوس يَتَبَنَّون مَظْهَراً لامُبالياً كي يَنْفُثُوا في وجهي سُمُومَهُمْ النّاقِعَة. حين بدأ الجَزَعُ ينتابُ المُحيطين بي، تَوَاروا، ببرودة دم، وانْدَسُّوا في الحشود، وتركُونَا مُقَطَّعِي الأنفاس.

هذه المتاعب لم تَتَبَدَّدْ إلاّ بَعْدَ سَنة، أي بعد ما أُطْلِقَ عليه تفكيك شبكة «قلقال». أجهلُ ما إذا كانت التهديداتُ التي صَدَرَتْ ضدّي لَهَا ما يَرْبِطُها مَعَ هذه القصة التي كانت على الأقلّ مُؤلِمَةً. مَهْمَا يَكُنْ، فبعد فترة من الزّمَن، تَلَقَّيْتُ استدعاءً مِنْ قِبَلِ قاضٍ من أجل رفع الإنابة القضائية. أطلقتُ زفير ارتياح: أُوفْ! غير

أنّ الشّرطة كانت تقوم بدوراتها مع كلّ إعادة تنشيط لخطة «فيجيبيرات».

بعد سَنَتَيْن من مُناوَبَات، عثرتُ على إيقاعي وهو ما بين سبعة وثمانية أيام كلّ شَهْرٍ في قسم عِلاج الكلى. ليس أكثر. وأمّا باقي الوقت فَأُكَرِّسُهُ لِلْكِتَابَة. أُقَاوِمُ، لِفَترةٍ طويلةٍ، فكرةَ عَملٍ ثابتٍ. وخلافاً لِمَا كُنْتُ أَحْكِيهِ لنفسي، في السّابِقِ، فإنّ فرنسا في حاجة إلى اختصاصيِّين في علاج الكلى وأبحاثها. أستطيع أن أَشْتَغِلَ بصفةٍ مُتَقَطِّعة، حَسَبَ حاجاتي واستعداداتي. غير أنني، بِفَضْل ارتيادي مُخْتلف المَرَاكِز الطبية، لم أَتَأَخَّرْ في تكوين فكرة عن الشُّرُوط البشريّة والماديّة لِكُلّ مَريض. لِهَذا السّبب خضعتُ، في نهاية المَطَاف، لإِلْحَاحَات «جون–بول أورتيز»، وهو صديقٌ من مجموعةِ تَخَرُّجِي نفسها. وهو من كاطالونيا. فقد أَنْشَأَ قِسْماً يَتَضَمَّن كُلَّ أنواع التَخصُّص في مدينة «بيربينيان». كُنَا نَتَفَاهُمُ جيداً. وقد تَعَلَّقْتُ بالمَرْضى. وحُضُوري لم يَتَجَاوَز الحَجْم الزمني المُحَدَّد مسبقاً. وقَدْ وَاصَلْتُ اختيارَ أَيّام مُزاوَلَة عَمَلي...

رَاقَنِي أنْ تكون عندي مدينةٌ مُعَيَّنَة لأيٍّ من أنشطتي. المسافَة التي تَفْصِل بينهُما ثُلاثِمئي. تَنَقُّلِي بين هَذَيْن المَكَانَيْن، «مونبوليي» و«بيربينيان»، أتاح لي إفراغ مَشَاغِل أَحَدِهِمَا من أجل استغراق أفضل، وباستِمَاتَةٍ، في المكان الآخَر. يحلو لي أن أقول إنني أقوم بانتجاع ما بين الكتابة ومهنة الطبّ. ويحلو لي الاعتقاد بأنني أحتَفِظُ في دواخلي بنمط عيش أجدادي رعاة الهِضَاب العليا. أَبِي أصبح حارساً لإحدى الآبار في الصحراء. أما بئري أنا فهي الكتابةُ وَسَطَ

بَرَاحٍ وحصى أرضٍ أخرى. حياتي دفق مَمْدودٌ بين مدينَتَيْن ونشاطَيْن وقُطْبَيْن آسِرَيْن.

حينما أكتبُ أنسى كلَّ شيء. أنسى نفسي. يمكنني قضاءُ أربعة أو خمسة أيام وأكثر دون أن أغادر بيتي، ودون أن أرى أحداً. إنّ فترة معالجة مرض الكلى تقتلعني من هذا الدَّفْن. يدفعني نحو مسؤوليات جسيمة، نحو عمل تسوده روحٌ جماعيةٌ. خصوصاً وأنه يجعلني أَتَوَاجَهُ مع الألم الجسديّ، الذي يكون أحياناً قاسٍ جداً، ومع الموت. وعلى الرغم من أنه في معظم الأحيان قاسٍ ومُضْنٍ فإنّ هذه العلاقة تلعبُ دورَ المُنْقِذِ بالنسبةِ لي. فهي تُساهِمُ، بِشَكلٍ مستمِرّ، في التخفيف من الهموم الشخصية. فَكَشْفُ حسابٍ ساعات الشغل في هذه المِهْنَة ليس له من ثبات إلاّ بالرضى بِالعَمَل الناجز.

لقد أوشكَ هاتفُ عيادتي أن يُسَمِّمَ وُجودي. فقد كان رقم الهاتف في قائمة الأَطِبّاء، فكنتُ أتعرّض لمختلف أنواع التحرّش. وكانت الطلباتُ أحياناً غريبةً أو وَقِحَة. لدى الاستماع إليها يَتَخَيَّلُ المرءُ أنني قضيتُ حياتي في النضال وفي تدخلات مختلفة وفي الاحتجاجات... وبما أنّ خطّ هاتفي الشخصي يوجد على القائمة الحمراء، فإنّ رنّة الهاتف لم تَعُدْ تُزْعِجُني قطّ. أصبحتُ أعيش معتزَلِةً على صخرتي العالية، ولا أُشارِكُ الحياة الاجتماعية في مدينة «مونبوليي». لم أُشارِكْ فيها أبداً. أنا أعيشُ على الهامش. في صمتِ وسكينَةِ منزلي. غيورةٌ من وحدتي، لا أُحِسُّ نفسي مستَعِدَّةً لِتَرْكِ أيٍّ كانَ يُشَوِّشُ عليها.

ذات مَساء من شهر نوفمبر من سنة 1996، هاتفني «وديع»

و«فاطمة» من مدينة «وهران»: «هل تستطيعين القدوم في نهاية شهر ديسمبر؟ إننا نريد أن تُرَافِقِينا إلى الصحراء، إلى «تيميمون».» لم أُفَكِّرْ ولو ثانية واحدة. العودة إلى الصحراء بعد عشرين سنة من الغياب! وليس عند والِدَيَّ. العودة إلى منطقة أكثر إيغالاً في الجنوب. تجاوز أمكنة الألَم والصراعات. الذهاب إلى الأرض من أجل الأرض. لم أَعُدْ أستطيعُ الكتابةَ، فقد أوجَعَتْنِي مآسي الجزائر. كنتُ في حاجة إلى استراحةٍ في قَعْر الرِّمَال، وإلى نَزْعِ حَمُولَتِها من الحنين. كنتُ أَتَمَنَّى منها خَلاَصَ الكِتَابَة، أيضاً.

لقدْ ظلّتْ أفراحُنَا وأتْرَاحُنَا، «فاطمة» و«وديع» وأنا، مُلْتَحِمَةً، مُلْغِيَةً كلّ الانزياحات. في أقسى لَحَظات خَراب البَلَد، هَا هُمَا يَعْمَلان على إحضاري إلى جوف رِمَالِي. أعيادُ نهايةِ السَّنَة التي كنتُ أَخْشَاهَا كثيراً تَتَحَوَّلُ إلى سعَادَة اللقاء من جديد.

الطائرات القادمة من «الجزائر» العاصمة ومن «وهران» تَصُبُّ في «تيميمون» حُشُوداً من المُواطِنِينَ الحَضَرِيّين الذين أَفْقَدَتْهُم الانفجاراتُ والانهيارات النفسانيّة وَعْيَهُمْ. وفي مجموعات صغيرة، ينْتَشِرون في الصالونات وفي أرصفة الفَنَادِق. المُسَافِرون القادمون من مُثَلَّث الموت–المنطقة الواقعة ما بين مدن «الجزائر» العاصمة و«بليدة» و«ميدية»– هُم الأكثر تَرَنُّحاً، فَيُعَنِّفُهُم القادمون من «وهران»، وهم الأكثرُ نشاطاً وانتعاشاً: «إلى الجحيم يا أقنعة الخوف، وثِيَاب الحِدَاد.» بدأ الضحكُ يَنْتَشِرُ شيئاً فشيئاً، مُطْلِقاً مُبَارَزَات السخرية والمزاح، عن الأُصوليّين وعن الطغمة العسكرية وعن الفَلاَّحِين المَسْحُوقِين من قِبَلِ المُعَسْكَرِيْن ومِنْ عُيوبِ المُجْتَمَع.. كُلُّ شيءٍ يَتِمُّ تقطِيعُهُ وقَضْمُهُ بِسُخْرِيّة. المجموعاتُ

تَتَنَافَسُ. وهُوَ مَا تَسَبَّبَ في الكثير من المَرَح الصَّاخِبِ. يُوجَدُ هنا استعجالٌ للابتهاج. هذا الاستعجال للعيش حين نعرف بأنّ الموتَ يمكن أنْ يَضْرِبَ غداً. لم أَضْحَكْ مِنْ قَبْلُ مِثْلَمَا ضَحِكتُ في هذه الإقامة. ولَمْ أَتَخَيَّلْ أبَداً بأن عودتي الأُولى إلى الصَّحراء سَتَبِيرُ على هذا الوَقْع.

عُدْتُ من هذا السَّفَر بِبِدَاية كِتابٍ أكثر تَحَفُّظاً: La nuit de la lézarde. وهو كِتابٌ عن العودة إلى حيث يَنْحَرِفُ اليأسُ إلى السكينة. بحثٌ عن الحريّة من طَرَف امرأة لَمْ يُعَدَّ لَهَا أيُّ شيءٍ من قبلُ. مآسي البلد توجد فيه صمّاء وخافِتَة، مثلما هي عليه الحال في الصحراء منذ الأزل. في هذه الرواية يَتِمُّ التعبير عن هذه المآسي عَبْرَ تأويلاتٍ غريبة لِطَائِشَيْن اثنين.

كتابي الأول، «الرِّجَالُ الذين يمشون»، صَدَرَتْ له طبعةٌ ثانيةٌ في شهر مايو 1997. في الصيف، هاتَفَنِي صديقٌ كان قَدْ وَصَلَ للتوّ من «الجزائر» العاصمة قَلِقاً: «ما الذي جَرَى لِروايتكِ «الرِّجَالُ الذين يمشون» مع صحيفة «لوماتان»؟ – ماذا تُرِيدُ أن تقولَ؟ لَمْ يَحْدُث أيُّ شيء مطلقاً. – ألاَ تَعْرِفِينَ بأن روايتكَ أصبحتْ رواية الصيف المُسَلْسَلَة؟ لا؟! إسمعي، إنّ الصحيفة تنشرُ كلَّ يوم صَفْحَتَيْن منذ فاتح يوليوز. وسيستمرّ هذا النشر إلى حدود نهاية سبتمبر. وقد أحضرتُ لكِ الصفحات التي استطعتُ العثورَ عليها... يجب عليكِ أن تُهَاتِفِيهِمْ وتُوَبِّخِيهِمْ. الأمرُ ليس مقبولاً! – توبيخهم؟ أنتَ تمزح؟ أشكُرُهُم، نعم. ألاَ ترى بأنهم يجعلونني أتَوَاجَدُ هناكَ. – هناكَ، أنتِ موجودةٌ بِذَاتِكِ. إنّ هذه المُمَارَسَات... – كَفَى، فأنا مع

القرصَنَة في مثل هذه الحالة. إنها شكلٌ من أشكال المُقَاوَمَة. كنتُ فقط أتمنى لو أنهم أطلعوني على قرارهم قبل النشر.»

هاتَفَنِي «وديع» و«فاطمة» من وهران: «كَمْ هو رائعٌ مَنْظَرُ النَّاس وهُمْ مُسْتَغرِقُون في قراءة كِتَابِكِ في جريدةٍ موضوعة على أرصفة المقاهي. لقد تَعَوَّدْنا على الذهاب لرؤية هؤلاء الناس، وعيونهم وهي تُكَنِّسُ بسرعةٍ خرابات البلد. ثم يقومون بِاحتساء مشروباتِهِمْ ويتذوقون صَفَحَات اليوم.»

نعم، إنّ الأمرَ رائعٌ جِدّاً! وهو جَيِّدٌ لِمُواصلة كتابة: La nuit de la lézarde.

في السنة التالية، وفي يوم السابع والعشرين من سنة 1998، قبل ثلاثة أسابيع من ظهور كتابي، La nuit de la lézarde في المَكْتَبَات، عدتُ من عملي الليليّ مُنْهَكَةً بعد أربعة أيّام من الشُّغْل. التَقَطتُ من علبة البريد عدداً من مجلة «لو نوفيل أوبسرفاتور» واسْتَرْخَيْتُ على مَقْعَدٍ طويل. كان الفهرست يعلن عن الموسم الأدبيّ، وكانت الجزائر أَوَّلَ من يبدأ الملفّ. أقرأُ. أقرأُ حتّى الثُّقْل تقويضَ روايتي الذي انتهى بهذا القدح الذي يستهدف المُؤلِّف: «ولكن خلف... يختفي ما هُوَ أخطر: قلة نزاهة في عبور الموجة الجزائرية الدامية. وهذا مَا بَدَا لنَا، لمرة واحدة على الأقل، أنه من الضروريّ إدانَتُهُ!» هذا المقال الشائنُ لم يَتِمّ توقيعه إلاّ بالحرفين الأوَّلَين من اسم الكاتب. إشارة من طرف إدارة التحرير تُوَضِّحُ بأنَّ الكاتب صحافيٌّ جزائريٌّ لاجِئٌ في باريس. الحَرْفان لا يَعْنِيَان لي شيئاً. مَنْ يكون هذا؟ ولماذا هذا الاتِّهام؟ في قمة ذُهولِي جاءني،

بشكل مفاجئ، الانطباعُ بأنه توجد بين يَدَيَّ جريدة «المُجَاهِد» في أسوأ فتَرَاتِ عقابٍ وَوِشَايةِ حِزبٍ توتاليتارِيٍّ. تحقيرٌ جديرٌ بالمؤسسات الأكثر رجعية.

بعد فترةِ وَهَنٍ، هاتفتُ نَاشِرِي، فقد كان يَتَوَجَّبُ عليَّ أن أذهَبَ إلى باريس من أجل توقيع إهداءاتي الصحفية. نَاشِرِي الذي أَرْهَقَهُ هذا الافتراءُ فَضَّلَ انتظارَ قُدومِي إلى باريس كي يطلعني على هذا الخبر، فهو لم يَكُن يعرف بِأَنَّ لديَّ اشْتراكاً مع هذه المجلة.

كتبتُ في باريس رسالة احتجاج إلى مدير المجلة الأسبوعية، وبَعثتُ به مع ساع بَرِيدٍ خاصّ. أجابني بأنّه ضدَّ هذه التصرُّفات، وبأنه سَيَحْرِصُ على أن يمْنَحَنِي مُساعِدُوهُ حَقَّ الردّ. فَانْكَبَبْتُ عليه حالاً وبعثتُ به إليه. وقد ظهر حقّ الردّ مبتوراً في زاوية بريد القُرّاء متبوعاً باستهزاء الصحافيّ الوَقِح.

في غمرة الموسم الأدبيّ، تَجَاهَلَ معظمُ نُقَّاد الأدب الفرنسيين كِتَابِي. اقْدَحوا، إقدحوا، سيبقى دائماً ثمّة شيءٌ! المَقَالات القليلة التي ظهرت هنا وهناك كانت عَزَاءً كبيراً. عزاءٌ آخَرَ وَصَلَنِي، عبر نَاشِرِي، جاءَ من رسائل قُرّاء أَغْضَبَهُم المقالُ. بعضهم قال إنه ألغى اشْتِرَاكَهُ مع هذه المجلة بسبب الإهانة. ولكن لم يَتَحَرَّك أيُّ صوت، بصفة عمومية، لِيَسْتَنْكِرَ هذه الطرق في الكتابة.

الجَميعُ تَنَاوَبَ لإقناعي بعدم رَفْع دعوى قضائيّة ضدّ المجلة: «لقد مرّت هَفوة هذا الغبيّ دون عِلْمِهِم. وسَتَرَيْن كيف أنهم سيستدركون ويُصلحون خطَأَهُم عند صدور كتابكِ القادم.» الجميع باستثناء «ماتيلد»: «إرفعي دعوى قضائية!» وحين جاء وقت اتّخاذ القرار، كان قدْ «سبق السيف العَذَل». فقد مرّت فترة الثلاثة أشهر،

وبالتالي فإنه يتعذّرُ رفع مثل هذه الدعوى بالتشهير. في سنة 2001 رفضتُ أن أكْتُبَ إهداء كتابي الجديد «نْزيد» لمثل هؤلاء الناس. يمكن أن يكون الملحق الصحفيّ قد أرسل لهم كتابي، ولكن لم تَحْضُرْهُم اللَّبَاقَة لكتابة كلمة عن صُدُورِهِ. لقد كُنتُ مُحِقَّةً في استثنائِهِم من قائمة إهداءاتي، قبل أن يَدُلُّونِي، مثلما فَعَلَ المدعو «محمودي» هناكَ، على أنَّهُ لاَ وُجُودَ لي.

فيما يخصّ كاتِب المَقال الخسيس، هذا الحقير المتخفي خلف الحرفَيْن الأوّلَيْن من اسمِهِ حتّى في «باريس»، فقد أُخْبِرْتُ بأنه من أبناء مَحظوظي العاصمة الجزائرية والذي لا ترمي كلُّ دسائِسِهُ إلاّ إلى إثْبات كيانه كَطِفل زقاقيّ. إذاً، فَعَبْرَ أيّ مُزحة يُمْنَحُ فيها معلّق إخباري صفةَ نَاقِدٍ أدبيّ فقط لأَنَّهُ عَبَرَ البحرَ المتوسط؟ في وقت ما. كانتْ تُراوِدُني فكرةُ توجيه لَطْمَتَين إليه. ولكني حين رأيتُهُ للمرة الأولى تمَالَكْتُ نفسي، كيلا أُوَسِّخَ يَدَيَّ.

أنا أُوَقِّعُ كُتُبي باسمي الحقيقي منذ سنوات، وصورتي الشخصية تظهر على الغلاف. منذ صُدور كتابي الأوّل، «الرِّجَالُ الذين يَمْشُون»، وَاجَهتُ، وَحدي، المُضَايَقَات والإزعاجات من كل الأنواع، دون أن أتَحَدَّثَ عنها في الواجهة كي أُعْطِي قيمةً لِنَفسي. أمّا الآن، فقد أصبح الأمرُ ضرورةً، وهو الردُّ على الأوباش من كلّ طَبْع: «أبصق على رفضكم وعلى إهاناتكم وعلى عقوباتكم وعلى تهديداتكم.»

أَمَّا فيما يَخُصُّ هذا الشخص الرَّذيل فإنّ أصدقاءَهُ الصحفيين الفرنسيين يُكَرِّرون كلما تَحَدَّثُوا عنه بأنه عانى من هذا الشيء ومن ذاك في الجزائر. - من هو الذي لا يُوجَدُ في خَطَرٍ هُنَاكَ؟ -

ويلتذّونَ بِقَلَمِهِ المُتَهَكِّم اللاذع. لدى سماع هذا: التهكم اللاذع، تستولي عليّ حركة تَرَاجُعٍ مُغْثٍ: فهذا ما ألقى به الأصوليون في أوْجُهِ وسيقان الفتيات اللواتي يتلخّصُ ذَنْبُهُنَّ الأوحد في كونهِنَّ تجرّأن على تحدّي الشارع من دون حِجَاب.



أَحْضِرِي لِي مَعَكِ معطفاً خفيفاً

مجنونةُ الليالي الجزائرية

مايو من سنة 2001، كنت قد وصلتُ للتوّ إلى فندق «الجزائر»- وهو فندق ما يزال يطلق عليه «جان-جورج». أرى البحر عَبْرَ كُوَّةٍ زُجَاجِيّة. توجد سُفُنٌ راسية في المرسى. أنا سعيدةٌ بتواجدي في العاصمة، وسعيدةٌ بما يَنْتَظِرُني. زُرْقَةُ البحر تَبْتَلِع عينيّ. إنها زُرْقَةٌ مُنتَشِية بالنور. زُرْقة تَتَمَايَلُ إلى ما لا نهاية، وتحتَفِظُ بالسّماء مقلوبةً. أُفَكِّرُ حالاً في الضفة الأخرى: «مونبوليي من هنا». حين كنتُ أعيشُ هنا، في السابق، -أَقصِدُ «وهران»- لم أكن أستَحْضِرُ أبداً الضفّة الأُخْرى، لأنها لم تَكُنْ قد تَلَبَّسَتْنِي، ولم أَكُن قد خُضْتُ البحرَ بعدُ، ولا كنتُ قد بدأتُ الكِتَابَة. أمّا الآن، وحيثما أَتَوَاجَدُ في أيّ ضفةٍ، أَسْتَحْضِر، حالاً، الضفة الأخرى. والآن أمتلكُ ضِفَّتَيْن. وليستْ لُغَتِي وكِتَابَتِي وحدهُما العبّارتان. أنا أيضاً عَبَّارَةٌ بصفة كليّة. أنا عَبّارة بصفة كلية عبر هذا الثنائي في كياني.

لقد كان مُؤلِماً بالنسبة لي، في معظم الأحيان، الإحساس بِضِفَّةِ الـ«هُنَا» هناكَ. حين كنتُ أَتَنَزَّهُ وحيدةً، بعد يوم من الكتابة، على شواطئ «مونبوليي». وحين أكون مُنهَكَةً، أَذْهَبُ لتنويم الشمس في البحر. ضجيجُ الأمواج يحكي لي عن المعاناة وعن عجز الكَلِمَات.

الشَّفَقُ يَتَمَزَّقُ مثل زفير على أُفُقِ الجزائر. والآن أصبحت الحال أفضل من السَّابِق. يوجد دائماً حُزنٌ أَقَلُّ حِينَ تكونُ العودةُ ممكنةً. لقد أصبحَ هَمْسُ البحر نداءً لي من جديد، ولَمسةً على الجزء المكلوم.

أنظرُ إلى جهاز التلفون، مُكَهْرَبَةً: «يَتَوَجَّبُ عليَّ» يتوجب عليَّ أن أُعْلِنَ عن عودتي إلى «قنادسة». صوتٌ مُبْهَمٌ يُنَبِّهُني: «لقد تغيَّرَ الرقمُ. الرّجاء الاستفسار في...» أحتجّ وأقول: «حتى أنا تغيّرتُ! الدليل!»

أنا على عِلْمٍ بالتغييرات. توجد ورقة في مفكّرتي تتضمن الرموز indicatifs الجديدة للمناطق. أُرَكِّبُ الأرقام نفسها دون جدوى، وأَتَّصِلُ بالاستعلامات. يُعطِينِي هذا انْطِباعاً بأنني أمام بلبلةٍ يَصْعُبُ تَخَيُّلُهَا. أَمُرُّ عَبْرَ حَشْدٍ من أصواتٍ سُبَاتِيَّة-كركرات إِدَارة شَبَح. أصواتٌ تَتَثَاءَبُ وتُهَمْهِمُ وتُنَحْنِحُ وتَشْهَقُ وتتجشَّأُ في أُذُني دون أن تُجِيبَ. أُلِحُّ وأَتَحَرَّشُ وأستعطِفُ وَأنتَظِرُ رُبْعَ ساعة قبل أن يَتَنَهَّدَ أحد الأصوات أخيراً: «لا يوجد مُشْتَرِك على هذا الرقم.» وتُغلق سماعة الهاتف في وجهي. لا أعرف ما إذا كنتُ أُحِسُّ بالارتياح أم بالانزعاج. بِدُون شكّ، أحسستُ بِهِمَا معاً. لقد تَطَلَّبَ منّي إجراءُ هذه المُكالَمَة الهاتفية كثيراً من الوقت وكي أعودَ من بَعيد. تَسَاقَطْتُ على سريري: «ليس لديهم هاتف في المنزل... سأذهبُ دون أن أُعْلِمَهُم. لا ليس لديّ خيار آخر.»

من المؤكّد أنني كنتُ سأفضل لو أنهم عَلِمُوا بِمَقْدَمِي. أُفَاجِئُ نفسي وأنا أَتَحَصَّنُ خلفَ استنتاجات جبانة: «مع كُلّ الحِوارَات

المُقرَّرَة، سيعرفون بأنني موجودةٌ في الجزائر. وربما لن يَنْدَهِشوا كثيراً إذا مَا رأوني أَصِلُ فجأة عندهم. بل ربّما ينتظرون وُصُولي، ويَتَمَنَّوْنَهُ؟» طبعاً! كَمْ من مرة شاهدوا وجهي، هنا أو هناك من دون أن أَزُورَهُمْ؟ كَمْ مِنْ خُطْبة في كلّ وَسَائل الإعلام من دون أيّ إشارة إليهم؟ بل لقد ذهبتُ إلى أقصى الجنوب، إلى «تيميمون» من أجل العُثُور من جديد على الصحراء مِنْ دون المآسي العائلية. فَهُنَا، وقبل أي شهرة، عَوَّدْتُهُم على ألاّ ينتظروني. «إذاً، الرَّجاءُ لا أريد أصحاب النوايا السيئة، ولا الجُبَناء. أمَّا هذا فَلاَ. أنتِ لا تستطيعين.»

إذا كنتُ قد ذَهَبْتُ من دون سابق إنذارٍ، بعد عشرين سنة من الغياب، أَفلاَ يكونُ أبي عُرْضةً لنوبة قلبية حين يراني؟ فهو رجلٌ مُسِنٌّ ومَريضٌ، وأنا لَمْ أَذْهَبْ للإجهاز عليه. أنا أريد كثيراً، هذا كل ما في الأمر. قبل أن يختفي تحت الأرض. قبل أن يفوت الأَوَانُ. هذا ما يَسْكُنُ بَالِي ويُعَذِّبُني. لقد صَعدَ بِبُطْء في كياني مثل كلّ أشكال الرُّعْب. الحاجةُ انتهى بها الأمر أن انتصَرَتْ على الرَّفْض وعلى أشكال المُقَاوَمَة، على الرغم من وُضُوحِ ما لا يمكن تصليحُهُ.

تصوَّرْتُ كلّ السيناريوهات منذ شهور. وتَجَنَّبْتُ إخبارَ العائلة فترة طويلة مسبقاً. ففي مثل هذه الحالة يَتِمُّ، دائماً، تَهييجُ القبائل وعبيدها والأصدقاء والجيران. والذين لم يتمّ اسْتِدْعاؤُهُم يأتون بسبب تَعَاطُفٍ أو فُضُولٍ أو شَرَه... ليست عندي أيّة رغبة في أن تُلَوَّثَ هذه اللحظةُ. أريدُ أن أَدْخُلَ فيها في صمت. وأُريدُ تقليب صمت السنوات. تنشيط المَسَافات. إعادة الاتصال. بعد عُقُود من

الزمن الميّت. بخطى وئيدة كي لا أَقَعَ. بجرعات صغيرة كي لا أَنفجِرَ.

لا أتصور أن تَتِمّ عودتي في هياج، إذ لا يُوجَدُ شيءٌ يُحتَفَلُ به.

فجأةً أُفَكِّرُ في «فتيحة»، صديقتي المحامية التي استَقَرّتْ هناكَ. المُحامِيَة التي دافعتْ عن أخي الأُصوليّ فقد كان في برنامجي أن أَزُورَهَا، هي الأخرى. «فتيحة» تستطيع مُسَاعَدَتِي، غير أنّ رقمَها كان مغلوطاً. بالفعل! حينها هاتفتُ «فاطمة» و«وديع» في مدينة «وهران»، فَهُمَا، على الأقلّ، لم أفقد الاتصال بهما.

«هلْ تأتين هنا، أيضاً، كَمَا اتَّفَقْنَا؟- بطبيعة الحال. - رقم «فتيحة» الهاتفيّ ليس مشكلة. سوف نحصل عليه.»

مَا إن أغلقتُ سمّاعَة الهاتف حتى قلت لنفسي: « ها أنتِ تلعبينَ دور المفتّش «ميجري» في «سان-جورج»!» الفرق الوحيد يَكْمُنُ في أنّ الجُثَّةَ، هنا، هي الزمنُ. والزَّمَنُ لا يُنْبَشُ. فخرجْتُ من الغرفة مُرتَاحَةً.

«جون-بَابْتِيسْت»، مسؤولُ دار نشر «هاشيت» الذي يُرافِقُنِي وكذلك المكتبيون والصحافيون كانوا في انتظاري. وأمّا «فاطمة» و«وديع» فإنَّهما سيَتَّصِلان بِي غداً.

في شوارع العاصمة حشودٌ من المُتَظَاهِرِين تصرخ أمام مجموعات من أفراد الجيش: «أنتم لا تستطيعون أنْ تَقْتُلُونَا. فنحنُ موتى أصلاً!» كَدَّرَ نفسي هذا الشّعَارُ، فقلتُ مُشَدِّدَة في الراديو: «لا! لا! لم تكونوا أبداً أحياء مثلما أنتم عليه الآنَ!» حَاصَرَتْنِي أصوات أخرى هنا، صوت «جاعوت» وأصوات كثيرٍ من الذين

رحلوا. . . في فرنسا، وحِيطَةً من هذه المظاهرات، حاولوا ثَنْيِي عن السفر إلى الجزائر، فقلتُ لهم إنّه لا يُوجَد شيءٌ في الدنيا يمكن أن يُثنيني عن المجيء هنا.

بعد كتابة رواية «نْزيد»، وهي رواية تتحدث عن النسيان، جاءَتْني هذه الرغبة في العودة عند والديَّ. وفي الواقع، كانت هذه الرغبةُ موجودة منذ ثلاث سنوات. كنتُ أعرف بأن أبي مريضٌ. وليس الخوف عليهم وعليَّ هو الذي سيمنعني من هذا السفر. إنه مَأزِقُ عدم رفض أيّ شيء. كلّ المآزق العاطفية. كل مَآزِقِ العودة. فلم يعد معي أيّ أجنبيّ أَفرِضُهُ عليهم. أنا مَنْ أصبحتُ أجنبيّةً. لقد شَكَّلَتْ كِتَابة رواية «نْزيد» خلاصاً نفسياً. لقد مَحَتْنِي من الأرض ومن كل أرض، ومن كُلِّ جفاء ومن كلّ جُرْح، كي تُسَلِّمَنِي إلى نَبَضَات البحر وحدها، إلى نبضات بحري المتوسّط. غَمَرَتْ نفسي بِتَنَفُّسِهِ وبِمَكَانِهِ بين الضفتين. كلمات البحر وأضواؤه ورِيحُهُ أَحَلَّت السلامَ بحدودي وبتناقضاتي. أعَادَتْ عقربَ الذاكرةِ إلى ساعة الضَّرُورَة. وقد خَرَجْتُ منها مُحَرَّرَةً من أشكالِ الرَّفْض والهَواجِس، محملة بإرادة المُصَالَحَة والوُثوب. بإرادة الذهاب إلى ما هو أساسيٌّ في الكتابة أيضاً.

بِمُجَرَّد أن سلمتُ هذا الكتاب إلى الناشر، وهو ناشرٌ آخَر، حتى اعتكفتُ على هذا دون انتظار. مِنْ أجل العودة إلى مَصْدَر الكِتابَة. وألاَّ أَتْبَعَ سوى العَرَض والخيال. وأن أترك في خطّ الرماية خُطَّةَ رؤية أبي من جديد قبل أن يفوت الأوان.

حين وَقَّعْتُ إرساليات الصحافة فيما يخص رواية «نْزيد»، في شهر مارس من سنة 2001، التقيتُ الناشِرين الجزائريين المجتمِعِين

في باريس: «يجب أن تأتي إلى الجزائر. فلديكِ قراءٌ كثيرون. إننا نحتاج إلى كُتَّابِنَا من أجل معركة الكِتَاب.» لم أَكُنْ وقَّعتُ فيها أيّاً من كُتُبي منذ سنة 1992. علماً بأن حينها كان المركز الثقافي الفرنسي هو الوحيد الذي تكلَّفَ بمهمة تنظيم وإيواء التبادل الثقافي والفنّي. في سنة 1993 توقف كُلُّ شيء بسبب العنف... وَعَدْتُهُمْ. فما عليَّ سوى أن أجعل هاتين الضَّرُورَتَيْن تَتَوَاقَتَان معاً، متيقِّنَة من أنّ نجاحات وَرِضى الواحدة سَتُساعِد مَشَاكِلَ الأخرى، ولم أكن أعرفُ إلى أيِّ مدى!

إنه دُوَّارٌ من اللقاءات. إنه الجَذَلُ. فالصحافةُ الجزائرية لم تخذلني إلى السياسة. وهي في هذا السِجِلّ تَعْرِف أكثر منّي. الصحافة تقرأ الكُتُب وتُقَشِّرُها وتُسائِل الكاتِبَ.

لقد أذهلني عددٌ من غير المُرَوَّضِين. الهيئةُ الغريبةُ لهؤلاء المَهَابيل أحضرتْ إلى ذهني هذه الجملة لـ«ميشيل أوديارد»: «إنَّهُم سُعَدَاءُ، مُخْتَلُّو العقل، لأنهم يَدَعُونَ الضَّوْءَ يَمُرُّ! رُوحِي مُتَوَهِّجَةٌ.»

بعد التوقيعات واللقاءات والعشاء، وفي ساعات غير مُناسِبَة أجد نفسي إزاءَ هذا الإيعاز: «آه، لن تذهبي للنوم، لا! فالكاتِبُ يجب أن يرى كلَّ شيء. سَنَصطَحِبُكِ إلى مراكز ثقافية أخرى. يجب أن تكتبي عن هذه الجزائر.» التَّعَبُ لا قيمة لهُ. أذهبُ مع... في مراقص ليلية. إِلَى أمَاكِن مُقَاوِمَة، حيث الليلُ يُواصِلُ الحياةَ في ما حاول المتطرفون أن يُلْغُوهُ هُنَا، اللذة. لستُ مُعتادَةً على ارتياد المراقص الليلية. ولكن هذه المناسبة أنْعَشَتْنِي كثيراً.

أما الملحمة الأكثر جُنوناً فقد حدثت في «قسنطينة». لم أكن

أعرف المدينة. ولِحَدّ اللحظة لم أَكُنْ قد زُرتُ شرقَ البلد. السيد «حناشي»، وهو مكتبيٌّ من قسنطينة، كان في العاصمة، وكان واحداً من مجموعتي المَرِحَة. كنا خمسة أفراد في الطائرة: «جون-بابتيست»، «علي باي» وهو مكتبيٌّ في العاصمة، «راضية» مسؤولة عن فرع دار نشر «هاشيت»، «حناشي» وأنا. كنتُ سأُوَقِّع كُتُبي في الغد الذي يَتَصَادَف مع الذكرى العاشرة لتأسيس هذه المكتبة، كما كان مقرراً أن أُجري بعض اللقاءات والحوارات.

بعد حفلٍ ملكيّ وبعد زيارة مركز ثقافيّ في وقت متأخر، اقترح علينا «حناشي» أن نزورَ المدينة في الساعة الثالثة صباحاً. زُرْنَا منطقة بعد أخرى ثم زُرْنا الهضاب المُحيطة. كان القَمَرُ في اكتمالٍ مما ساعدنا على الرؤية وكأننا في وَضَح النهار.

في الساعة الخامسة صباحاً، تعبتُ من المسير. فَتَراكُمُ أسبوع من الحركة أوشك أن يُذِيبَنِي: ««حناشي»، من فضلكَ عُدْ بِي إلى الفندق. فأنا محتاجةٌ إلى الاستراحة قليلاً قبل اللقاءات. - أواه! لا تفعلي هذا! إني أُريدُ أن نشرب الحريرة في الساعة السادسة صباحاً. ثم نشرب القهوة أو الشاي مع فطيرة مقليّة و«مْسِيمَسْ». أريد أن نستَمْتِعَ قليلاً بالحياة - قليلاً من دون عجلة قبل أن نُعَاوِدَ الشغل. - حنش[18]، أنا أريد أن أعود إلى الفندق! -صَاحًا للاّ، ما دام أنّكِ أتيتِ إلى الجزائر من أجل أن تنامي!»

صمت. خُرودٌ واستياء. أغرقتْ «راضية» في الضحك. أما «علي باي» فقد كانت عينَاهُ ما تَزَالان مفتوحَتَيْن ولاَمِعَتَيْن، وكان

(18) وردت الكلمة بالعامية، أي الأفعى.

شاربه يتهزْهَزُ وكان وجهُهُ حَذِراً مثل الفَنَك(*). أمّا «جون–بابتيست» الذي كانت يَداهُ مدسوستَيْن في جيبه، وكانت رأسهُ ضاغطة على زجاج سيارته، وابتسامةٌ مُغتبِطَةٌ بين شفتَيْه، فقد أخَذَه النومُ.

لدى وُصُولي إلى الفندق، نزعتُ سماعة الهاتف ونِمتُ.



(*) الفنك: نوع من الثعالب تعتبر فروته من أجود أنواع الفراء.

العودةُ

أنا في الطائرة المتجهة إلى «بشار»، بعد أسبوع حافلٍ. إنها غبطةٌ كبيرةٌ أن أرى كُتُبِي وهي معروضةٌ، أخيراً، في المَكْتَبَات، هنا. إنّ فكرة سماع أُناسٍ، من كلّ الأعمار، وخُصوصاً من الطلبة والطالبات العديدين، يقولون: «إننا نتعرف على أنفُسِنَا في كُتُبِكِ، وإننا فخورون بكِ.» تَزِيدُ من كبريائي. إنّ من المُطَمْئِن أنه على الرّغم من المَجَازِرِ ومن كلّ ما يزال يخنق البلد، فإنّ هذا الشَّعْبَ ما يَزَالُ وَاقِفاً. إنَّ الحيرة تُتَرْجَمُ هنا من خلال تَعَطُّشٍ لا حدَّ لَهُ إلى الحياة.

لقد كنتُ في كَامِلِ الرِّضَى بالاهتمام وبالحرارة وبالصداقة. حين غادرتُ المجموعة الصغيرة التي كنتُ أَتَوَاجَدُ معها، اشتريتُ كلّ الجرائد التي لم يكن لدي الوقت لقراءتها. التظاهرات مستمرةٌ في منطقة «القبائل». وفيما يخصّ حواراتي ولقاءاتي فقد غطّتْ صفحاتٍ كاملةً في العديد من الصحف اليومية. كلّ هذا يساعدني على مواجهة المِحْنَة التي تنتَظِرُني. لديّ الانطباعُ بأني كنتُ متأثّرةً حتى هذا التأثر. . . لا أعثر على النعت المناسِبِ.

ولكن بمجرد ما أقلعتِ الطائرةُ وحلقت فوق الهضاب العليا

حتى لم أَعُد أستطيعُ القراءة. الأنفُ ملتصِقٌ بِكُوّة الطائرة، وأنا أنظر إلى هذا المدى القرمزيّ الشاسع. كم كنتُ أتمنى أن أعبر هذه المناطق في سيارة، وأن أتَنَفَّسَها عن كَثَبٍ، وأن أتَدَحْرَجَ في هذه الأرض. الطريق ما زالت غير آمنة. حنجرتي مضغوطة. إنه بَلَدُ حياة تَنَقُّلٍ وتَرَحُّلِ جدتي. أُفَكِّرُ في حكاياتها عن الركبان والمَواكب. لَمَعَانهم وحروب الأعصاب والبارود والغبار والصهيل والزَّغْرَدات يحتلّ عقلي. أصنع من كلّ هذا أَلْعَابَ فروسيةٍ يُنْظَرُ إليها من السماء.

مَزَارِعُ النخيل الأولى وانتفاخات الرمال الأولى. هذه هي صحرائي. هي أنا. طَفِق قلبي يضرب في صدري مثل عصفور في قَفَص. كنت أرتجف من هذا وأُحِسُّنِي سخيفة. هذا لا يَدُومُ سوى جزء من ثانية. بَعْدَهَا انخطفتُ في انقطاع تَنَفُّسٍ.

كنتُ أول من هبّ واقفاً بِمُجرّد ما توقفت الطائرةُ. وكنتُ أَوَّلَ من هَبَط سلالم الطائرة. ليس إحساسٌ بأنني أتَمَشَّى، فقد كنتُ أُوجَدُ في ضغط الزمن بين الماضي والحاضر. أَرْتَطِمُ بِرُسُوباتِهِ التي دوَّخَتْنِي. عند دخولي إلى قاعة المَطَار صاحَ أحدُهُمْ باللغة العربية: «مرحباً بِكَاتِبَتِنَا!» لم يكن عندي الوقت للتعرُّفِ على الرَّجُل. كان نظري قد وقَعَ في أَسْر الوفد الذي كان ينتظرني: «فتيحة» وأُمّي وأُخْتَان وعمّي. اعتقدتُ، خلال فترة وجيزة، بأنّ عمي هو أبي. إذ مع مرور الزمن اشتدَّ تَشَابُهُهُمَا. الوُجُوهُ تُبْرِزُ الزمنَ... اسْتَنْتَجْتُ من هذا وفي صرخة داخلية أنّ «أبي لم يعد يستطيع المشي.» هو في ذاكرتي ما يزال يركب دَرَّاجَتَه الهوائية. مَلاَقِطُ الغسيل وهي تَشُدُّ سَراوِيلَهُ عالياً على بَطَّة الساق. قُبَّعَة ريفيّة فوق رأسِهِ. له تلك

الغَطْرَسة لِمَلِكٍ بدون ثروة والتي تجعل أمي تَنحني له.

بعد العناقات والدموع- الدموع السهلة حتى في الصحراء: فَعَبْر أيّ بُخْلٍ أو ادّعاءٍ يُرادُ اختزالُ الدموع إلى المناخ المتوسطي وحده؟- جاء أُنَاسٌ للسّلام والتحية. لاَ أعرفهُمْ. تُحاوِل «فتيحة» عَبَثاً أن تُنَشِّطَ ذاكرتي: «إنّه فلان. كان معنا في الثانوية. إنه...» هذه قِصَّةٌ ممتزجةٌ بالصراعات والأحقاد. زمنٌ من دون أي تمييز، إذ ليس لديَّ أيّة رغبة في العثور عليه من جديد.

بعد أن عاد زوجها، قادَتْنا «فتيحة»، أُمّي واثنتين من أخواتي وأنا، إلى «قنادسة». الطريقُ تحاذي كثيب طُفولتي ومُرَاهَقَتي وارتقاءاتي المُتَوَحِّدَة. إنها بالفعل على الصورة التي توجد في رأسي. براعة فائقة جديرَةٌ بِالنَّحْت. غروب الشمس الأبديّ. متعة النوم تحت قِمَمِ الأَرَق. لا أعرف أين أُلْقِي بِنَظري...

منظرُ أَبِي يَقْلِبُنِي رأساً على عقب. إنه أكثرُ هرماً مما تَصَوَّرْتُهُ. شيءٌ أسودٌ صغيرٌ مُتَجَعِّدٌ على مقعدٍ تَسْنده وسائد. عيناهُ اللتان لا حَدَّ لهما والثاقبتان تَتَعَارَضَان مع ارتعاشة يَدَيْهِ التي تَسَبَّبَ مَرَضُ الباركنسون الرهيب بنفضهما مثل عناكب ضخمة. يَتَعَلَّق بي، يبكي ولا يَدَعُنِي أُفْلِتُ منه. لا أتذكر أنَّني رأيْتُهُ يبكي ما عدا ساعة مَوْتِ جَدَّتِي. أتَسَاقَطُ بِجَانبِهِ. جاء رَتْلٌ من الأطفال لتقبيلي، فَأُصِبْتُ بالرُّعب من عَدَدِهِمْ. أسماء كثيرةٌ لا أستطيع أن أتَذَكَّرَهَا. أبناء وبنات الإخوة والأخوات لا أعرفهم. إنَّهم كثيرون، كثيرون. أنسى بأني التي أتيتُ إلى حياتهم المشتَرَكة. بعد بضع دقائق من ترددات حائرة أخذ كلّ واحد لنفسه مكاناً في غرفة المَدْعُوّين.

زوجة أخي الأُصوليّ الأصغر تُعِدُّ الشاي والقهوة والحلويات.
هذا الأخُ ملتحٍ بالرغم من ثلاث سنوات ونصف قضاها في السجن.
زوجته ترتدي حِجاباً حتى وهي في المنزل. وهي تشتغل حتى في الخارج. لها وجه ناعمٌ ومُشِعٌّ.

فجأةً وفي الجلبة التي تُدَوِّخُنِي وَصَلَنِي نُوَاحُ أُمّي: «تُواصِلِين فِعلَ كلّ شيء من أجل جعل شَعركِ كالحلفاء!» لها هذه النَّظَرات الشَّزْرَاءُ التي طالَمَا أَلْقَتْهَا عليَّ. لقد كان تَرْكي لِشَعري يَتَلَوَّى حسب نزواته، يُصِيبُها بالغَمِّ. أُوَافِقُ، وَوَجهي يتملَّكُهُ عُبُوسٌ سَاخِرٌ. تقول مُثَابِرَةً: «حتى في فرنسا تحرِصين على أن تكوني أشدَّ سواداً مِنَّا جميعاً.» مُلاَحَظاتُهَا تَتَصَادَمُ في رأسي مَعَ مُلاَحَظَات اللَّوَاتِي يُرِدْنَ في باريس أن يَرَوْنِي أُبَيِّضُ كتابتي وأَصْقُل مَجَازَاتي. بالفعل، ستكون لي دائماً أشياءُ منحرفةٌ... ولكن ما الذي يحدث لها؟ لم تتحدث معي في السابق بِقَدْر ما تتحدث الآنَ. كلمات أولى، خلاصات أولى. لا أُوَافِقُ على ما ترى أنّ لها الحقُّ في أن تنتَظِرَهُ مني. حتى في عمرها! ما الذي أتيتُ لأبحثَ عنه هنا؟ التأكيد على أن حالة عزلتي هي الفعلُ الأوّلُ للحرية؟ أقولُ ثائرة: «هل تَرَين هذا؟» عند ذلك لَوَّحْتُ بخصلة شَعْر، وقرصتُ ذراعي العاري. «هذا يُسَمَّى الأصل!» احتراماً لأَبِي أمسكتُ نفسي عن الذهاب إلى أقصى دعابَتي وعن الاعتراض بأنه في اقتلاعاتي وفي أَمَاكِنِي البعيدة، لا أمتلكُ سوى سِمَات الجسد كآخِرِ علامات تمييزيّة للهويّة. قررتُ دَغْدَغَتَهَا في المكان الذي أعرفُ أنني أستطيع أن أَلْمَسَهَا، هِيَ وحدَهَا: «إنّ صباغاتي لا تأتِي من جِهَتِكِ، فَأنا أتوفرُ على جِلْدٍ مدبوغ، وشَعري ملتوٍ بسبب قطرة دَمٍ أسودَ وَرِثْتُهُ عن أجدادِ جَدَّتِي.»

هذا ما لا يجب أن أُذكّرها به، بالتأكيد. لقد كانت جَدَّتِي وأُمّي تَتَخَاصمَان بشكل دائم حول هذا الموضوع. الأولى كانت تعلن عن انتمائها له بينما كانت الثانية تستخدم كلَّ احتقارها من أجل إنكاره. كانت تكشيرةُ وجهي المستَخِفَّة تُشهِدُ الجميعَ على إهانتي، وهو ما سبَّب لي فرحاً كبيراً. ولكنها ما تزَال على قيد الحياة، ولم تَتَحَجَّرْ بصفة كلية، كما كنتُ أعتقدُ.

يَدُ أبي المرتجفةُ، التي تَخَلَّيْتُ عنها تحت تأثير الردّ على أُمّي، عَادَتْ بِتَقَطُّعٍ لِتُمسك بِيَدِي. فجأة رأيتُ لونها على يدي. يدُ أبي أكثرُ سواداً. ضغطتُ عليها بِقُوّة، ووعيتُ، بشكل مفاجئ، بأنّ إجابتي السَّريعة انتقمتْ له من الشيخوخة ومن المَرَض، اللذين جعلاه، شيئاً فشيئاً، تحت رَحْمَة أُمّي وانتقامِهَا. قفزتُ في مكاني واسْتَدَرْتُ صوبَهُ. ابتسم في وجهي، وكانتْ ثمة حمية كبيرة في عينيه.

عند رؤيته على هذه الصورة مُقْعَداً بسبب عاهته، سَجيناً في مَقْعَد، تنفرض هذه البدهية: لأنه لم يعد يستطيع التحرك ولا يستطيع أن يتحمل أيّ عبء فإنه يستسلم للتأثر والعاطفة. ولهذا السبب أيضاً فإنّ أُمّي مرغمةٌ على تحمل مسؤوليات وأعباء أخرى. وبالتالي في الوقت الحاضر، أُمّي هي التي تُسَيطِر وهي التي تتحدث كَجَدَّةٍ. أنا لم أَرَهَا من قبل على مثل هذه الحالة. أُراقِبُ كُلَّ أحفادها الذين يهجمون عليها، وأرى كيف تُلاَطِفُهُم. وأنظر إلى الطريقة التي تستجيب لِمُنَاغَاتِهِم. وعلى الرغم من كلّ اعتراضاتي وحيطتي، فإنني لا أستطيع منع نفسي من أن أَجِدَهَا آسِرَةً. ومن خلال النقاشات، أفهم أنّ المصَاعِبَ والآلام لا حَصْرَ لَهَا: فالابن الأكبر في السجن

لسبب لا علاقة له بسجن أخيه الأصوليّ، وله خمسة أبناء، مما يجعل أمّي لا تكف عن العويل.

عند الحديث عن الإخوة الآخرين وعن المُضْمَرَات، فإنّي أَتَصوَّر بأنّ قائمة المَشَاكِل ستكون طويلةً. أُختاي الموجودتان هنا مُطَلَّقَتان، وتُقيمان مع أبنائهما في المنزل العائليّ. الأختان لا تشتَغِلان. إحداهُمَا توجهت بالحديث إلى «فتيحة»: «هل تعرفين أنه أمس الأول، حين انصرفتِ للتوّ بعد أَنْ أَعْلَمْتِنَا بِأَنَّ أَحَدَهُمْ صَرَخَ فينا في الشارع: «مليكة» تتحدث في الراديو. فتحْنَا الراديو واستمعنا إليها، وقُلْنا يا لَهَا من امرأة ذكية!» وَافَقَ الجميعُ على كلام أختي. أنا سعيدةٌ بِتَواجُد «فتيحة» وزوجها بين ظهرانينا، فَحُضُورُهُما يُخَفِّفُ، شيئاً ما، من حَرَاجَة اللحظة.

أَسْتَغِلُّ هذا الهدوءَ لأقوم من جلستي: «أين أستطيع فتح حقائبي. لديَّ هدايا.» وَجَّهَتْني أُمّي صوب إحدى الغرف، وصغرى أخواتي في أَثَرِنَا، وتوقفتْ عند عتبة الباب: « ربما يتوجب أن أتركَكُمَا وَحدكمَا؟ رُبَّمَا لديكما ما تقولانِهِ لبعضِكِمَا البعض؟» استدارتْ أُمّي نحوَهَا وقال بِلَهْجَة جازمة: «نعم!» اختفت أختي بعد أن أغلقت الباب. نظرتُ إلى أُمّي، التي أعلنت لي بغتةً: «أخوكِ يطلب منكِ سبعة ملايين (فرنك)!» يتعلق الأمر بأخي المسجون بطبيعة الحال. لستُ في حاجة إلى إيضاح. فمن الواضح بأنها هي التي تحتاج إلى الأموال من أجل إيجاد مُحَامٍ لَهُ ومن أجل إعالة أبنائِهِ. وهي التي تُحَدِّدُ مَبْلَغَ ضريبة القبيلة.

كُنتُ قد تمنيتُ، خلال فترةٍ، أن تَقْلَقَ أُمّي أخيراً، على حياتي، وأن تسألني، فقط، إنْ كنتُ بِخَير، وكيف أعيش عزلتي. إنّ عائلتي

تعرف، بطبيعة الحال، بأنني افترقتُ عن «جون-لويس» منذ سبع سنوات. لَمْ تَمض سوى عشر سنوات أو إحدى عشرة سنة لم تَرَ فيها إحدانا الأخرى. ثمّ إنني لستُ هنا إلاّ منذ ساعة واحدة! بِذُهولٍ كَظَمْتُ حزني وغَضبي، فأمامي توجد أُمٌّ قَلَبَ ما حدثَ لابنها رأسَهَا على عقبها. أما أنا فلا أعرف من أي زاوية تتحدث معي ومن أي مكان تنظر إِلَيّ. وحين تنجح في مشروعها، وهذا الشيءُ لا يعودُ إلى اليوم، فإنّي أُحاوِلُ أن أتَمَالَكَ نفسي دون أن أستطيعَ خنق اضطرابي بشكل كامل: «لقد أحضرتُ لكِ المَالَ بطبيعة الحال، وسوف أُعطِيكِ إيّاه. ولكني لا أمتَلِكُ هذا المَبْلغَ بالكامل. خُذي. هذا أيضاً من أجلكِ.»

ذِرَاعَاهَا مُحَمَّلان بأعطيات من أجل الآخَرين، تركْتُهَا في الغرفة وخرجْتُ. لقد أفلستُ وأنا أشتري كل هذه الهدايا من كلّ نوع. لا يهمّ، فهم لن يفهموا أبداً بأنني لا أريد أن أشتغل من أجل أن أكون ثريةً، ولكن من أجل البحث عن الحرية في كلّ لحظة، ولكن هذا التبريرَ بعيدٌ جداً عن إدراكِهِمْ. ولن يستطيعوا أبداً تَصَوُّرَ أن الشُّهْرَةَ لا عَلاَقَةَ لها بِمَبَالِغَ ماليةٍ ضخمة. وَزَّعْتُ الهَدَايَا وعدتُ للجلوس مع أبي. أبي الذي بَحَث حالاً عن يدي وضغطَ عليها. هدّأْتُ نفسي، إذْ لا مَحلَّ لِبَعْثرةِ هذه اللحظة ولا للتشويش عليها وتَعْكِيرِهَا، بسبب أيّ شيءٍ كَانَ. فأنَا عُدتُ من أجل أبي. كي يَتَسَنَّى لهذا الحُبِّ، الذي ما زال حَيّاً، ولكنّه مُتلاَشٍ ومُصَادَرٌ، بِسَببٍ من التقاليد ومن التعاقدات الاجتماعية ومن تمرّداتي، أن يُعبِّرَ عن نفسه، أخيراً. لم أَشُكَّ أبداً في هذا الحبّ على الرغم من كلّ مُوَاجَهَاتِنَا. لقد حَرصتُ، فقط، على أن أُوجَدَ، بصفة كلية، في عينيه كما في عينيَّ. أبي الآن في

آخِر حياتِهِ، وأنا لا أريد أن يَرْحَلَ مع هذه المعاناة. معاناتي، أنا، ستكون، بكل تأكيد، أَقَلَّ وطأة. يدي الموجودة في اهتزاز يديه فوق كُلِّ ثَمَن، كما أنها لا تَحتاج إلى كَلِمَات.

الْتَحَقَ بِنَا عمّي مع زوجته وبَناتِهِ. لقد تَرَكْتُهُنَّ صغيرات، وأصبحن نساء. بعضهن يَضَعْنَ حجاباً، وأنا أعرف بأنّ عمي لا شأنَ له في هذا الاختيار. تعبئة البلد وتبديد المَدْرَسة، كل هذا...

على الرغم من يَدِ أبي، فأنا أشعر بكوني غريبةً في مواجهتهم. المنفى هو هذا، وهنا أخذتُ مَقَاسَهُ. لقد هربتُ بكلّ معانِي الكلمة. لقد عدوتُ وكَسَّرْتُ وافترستُ وشربتُ ورأيتُ بسرعة وأبعدَ من أجل التخلّص من كلّ الجموع ومن كلّ الأشياء. أمّا العائلةُ فقد سَارَتْ على إيقاع المجموع كيْ لا تَضِيعَ، وكي تبقى مُتَّحِدَة. على هذه الوتيرة لا يستطيع خِنَاق البؤس ولا المآسي ولا دَوس البلد عليّ أن يجعلهم يَرحلون.

ولكنني تَعَرَّفْت على نفسي في الأمكنة وفي الكثيب وفي الصحراء. لقد صنعَتْنِي على نار الرّمل والحجر. لقد نفختْ فيَّ إفْرَاطَهَا، وظلَّتْ مُسَجَّلَةً في جَسَدي وفي ذهني أينما حللتُ.

تَحَدّثَ لي أبي عن فيلم: «ريشاتُ الصحراء» الذي يرْسُم مسارات ثلاثة من أبناء «قنادسة»، وهم «محمد مولمسهول» المُلَقَّب بـ«ياسمينة خضرة» و«بيير رابحي» وأنا. عيناهُ مليئتان بكبرياء طِفل. قال: «من المؤكد أن الآخَرَيْن وُلِدَا، هنا، ولكنكِ وحدَكِ من عاش في هذه المنطقة.» كنتُ على علم بهذا الفيلم، الذي كان عرْضُهُ فيما يبدو مُقَرَّراً في الصيف في مدينة «وهران» وفي العاصمة. لقد بدا لي الأمر، على الأقل، غريباً أن يَتِمَّ إنجاز هذا الفيلم من خلال

استجواب من لا يعرفون كثيراً من الأشياء عن مَسَارِي منذ كثير من الوقت. بطبيعة الحال، توجد كُتُبِي... «هل تعرفين أنه توجد صورةٌ لكِ في دار الثقافة بالقرية. - صحيح؟» بِيَدٍ مُهْتَزَّةٍ، قَلَّبَ أبي في جيبِهِ، وَمَدَّ لي بِطاقة زيارة لِمُنْتِجِ الفيلم. بَحَثْتُ عن نَظَارَتَيَّ فَلَمْ أجِدْهُمَا. لقد ظلتا في الطائرة. بِسَبب انخطافي لِرُؤية الهِضَاب العُلْيا، رُبَّمَا وَضَعْتُهُمَا على الصُّحُف. مع الاضطراب وعَجَلَة الوُصُول، رُبَّمَا انْزَلَقَتا وَسَقَطَتَا، من غير أن أنتبه. هَمَسَ في قرارة نفسي صَوْتٌ صَغِيرٌ: فِعْلٌ فاشِلٌ في كلِّ بَهَائِهِ! رُبَّمَا يكون الأمر على هذه الشاكلة . لا أريد أن أرى كُلَّ شيءٍ دُفعةً واحدةً كي لا أَنْصَعِقَ. أريد، في البداية، أن أُحِسَّ، فقط، الشمّ واللّمس من أجل إدراك ما أستطيعُ أن أفعلَهُ، ومَا يَتَوَجَّبُ عليَّ أن أَهْرُبَ منه. على غِرَار الغريزةِ المُتَوَحِّشَة التي كانت تنتزِعُني، وأنا صغيرةٌ، من إلزامات العائلة المنغلقة على النوم. تركتُ شيئاً من التشويش على حزني كي أُرَكِّزَ على مُدَاعَبة أبي، من أجل الاحتفاظِ بِهِ بشكلٍ أفضلَ، ومن أجل تذكره بشكلٍ جيّدٍ.

أَعَدْتُ لهُ بطاقة الزيارة: «احتفظْ بِهَا في جيبكَ.» لا أعرف منذُ متى وهو يَحضنُهَا مثل بقايا كنزٍ خارق... ليست لديَّ حظوظ كبيرة في العثور على نَظَّارَتَيَّ غداً في المطار. أتمنى أنْ أَجِدَ عدسِيَّة مُكَبِّرَة في العاصمة غداً. فأنا في حاجةٍ ماسّة إليها في حصّة التوقيعات في «وهران»... يُطمئِنُنِي عمّي: «الشّيخ -صديق جيد في سنوات الثانوية؛ والذي أصبح طبيب عيون في مدينة «بشار»، وارتبط بعلاقة صداقة مع عمّي- سيَمْنَحكِ نظارات. وهو يُلِحُّ على رؤيتكِ قبل سفرِكِ. وسينتظركِ في المطار.»

لقد تَجَرّأتُ على هذا الفعل وهو أن أعود لأربع وعشرين ساعة بعد أربع وعشرين سنة من الغياب. وهذا كافٍ. لَدَيَّ الانطباعُ بأنني أَمتَلِكُ جسداً وقلباً مُفَكَّكَيْن. المواعيد التي ما تزال تنتظرني تُبْرِزني من جديد وترفع معنوياتي وتضعُنِي، من جديد، على السِّكَة.

في وَقْتٍ متأخر من الليل، غَادَرنَا، عمي وبناتهُ و«فتيحة» وزوجها إلى مدينة «بشار». انهمكتُ في تنويم أبي، وظللْتُ لِفَترةٍ طويلةٍ بالقرب من سريرِهِ واسْتَفْسَرْتُ عن أخبار عَدَدٍ من المعارِف في القرية. نطق ببعض الكلمات عن كُلِّ وَاحِدٍ منهم، وكان مُلَخَّصُهُ ينتهي دائماً بِتَقْرِيظِ وإعجاب الذين يُوَاصِلونَ تقديمَ شَهاداتٍ عنّي. في هذه اللاَّزِمَة كنتُ أسمعُ، بِشَكلٍ خاصّ، إِرَادَتَهُ في عكس ما يَسْتَشْعِرُهُ من صمتي، وفي إقناعي برأسمال الإعجابِ والاحترام والانتباه الذي أتمتع به هنا. وباعتزازِهِ.

كانت أُمّي وعمّي وأخواتي أمام شاشة التلفزيون، فالتحقتُ بِهِم. دفعتْ أُمّي نفسَها لتترك لي مكاناً. تخلّصتُ من باقي النقود الفرنسية التي كُنتُ قد احتفظتُ بِهَا من أجل نهاية سفري: «خُذِي. مع ما منحتُكِ إياه منذ قليل، كم ما زلتِ تحتاجين من نقود؟ - كذا. - أنا مُوافِقَةٌ. سيُرْسِلُ لكم «وديع» و«فاطمة» باقي المبلغ. سأتفق معها على الأمر، إذ سَأَلْتَقِيهِمَا غداً.»

كنتُ مُمَدَّدَةً في السواد، أفكر في «القصر»، في المنزل الذي تَرَعْرَعْتُ فيه. لن تكون الفرصة مُواتِيَةً لي لِزِيَارة هذه الأمَاكِنِ.

ستأتي «فتيحة» في الساعة الخامسة بعد الزّوال لِتَأخُذنِي إلى المطار. أريد أن أقضي نهاري بالقرب من وَالِدِي. الحَاجَةُ الماسّة إلى الأمكنة ستُساعِدُني على العودة. وكَيْ أُهَدِّئَ نفسي، أُفَكِّرُ في «فاطمة» و«وديع»، وأَبْتَهِجُ لِرُؤْيَتِهِمَا. بعد غدٍ سنُقيم حفلةً! تركتُ زيارةَ «وهران» لآخِرِ السفر، ومن أجل الرغبة والتعطش إلى الحنان. فَمِن هُنَا سأعود إلى «مونبوليي».

المنزلُ هادئٌ جداً. الأطفالُ يوجدون في المَدرسة، أمّا الرِّجَالُ فَهم منهمكون في اهتماماتِهِم العَجْفَاء. كُنَّا ملتصِقَيْن، أبي وأنا، ونَتَحَدَّثُ، أحياناً، عن أشياء بدون أهمية. ولكننا كُنَا في معظم الوقت نكتَفِي بتبادل الابتسامات والمُلاَطَفَات، تَارِكَيْن صَمْتَ المسكوتِ عنه ينفرط. ما أعجبني أكثر من أي شيء آخَر، هو الغياب المطلق لكلّ انتقادٍ ومُؤاخَذَة. هذا ما جَعَل الأمرَ أكثر تَسامُحاً كون أبي لا يَعْرِفُ أيَّ شيء عن حياتي في فرنسا.

عند ظُهور «فتيحة» في الساعة المُحَدَّدَة، قفز أبي من مكانه، وتضاعَفَتْ ارتعاشاتُهُ. في هذا القَدْرِ المُفْرِط من الاضطراب، سَألَنِي: «متى ستعودين؟– هذا الشتاء. في أية فترة من الشتاء؟ – في شهر ديسمبر. – موافق... فإني أُحِبُّ أن يوضع لي مقعدٌ أمامَ البيت. أُريد أن أراكِ ترحلين. سَاعِدِيني على النهوض، خُذِي بِيَدِي.» أُمسِكُ بأبي، ونتقَدَّمُ بِخُطًى صغيرةٍ مستعْصِية. توقف فجأةً وقال: «لم يَعُدْ لديّ سوى هذه المتعة. وهو الجلوس لحظة في الخارج. ولكنّ جلبابي في الشتاء ثقيلٌ جداً عَليَّ. وبما أنكِ ستعودين في شهر ديسمبر، فهل لكِ أن تُحضري لي معكِ معطفاً

خفيفاً.» معطف خفيف! هذه الكلمات جعلتني أترنح: «نعم، سأُحضر لكَ معطفاً خفيفاً.» وأحسست بصعوبة كبت دموعي.

حينما تَحَرَّكَت السيارةُ قلت لفتيحة: «هل نستطيع أن نَمُرَّ على «القصر» من فضلكِ.»

كان حطاماً، بينما كان الكئيب يُحاصِرُه فوق المقبرة: «أتصوَّرُ أن «القصر» شُيِّدَ من أجل عَيْنَيَّ، أَعْشقُ فيه لَوْنَهُ...» آخُذُ لِحِسَابي جملة «إيزابيل إبيرهاردت» بخصوصه. أفكاري حيَّتْ ذكراها، وبعثتُ لها بباقات من الزهر الأمغر والأسمر والبنفسج الأرجوانيّ. كنتُ أعرف بأن هذا الأثر التاريخي أصبح عبارة عن أنقاض. ففي سنة 1992 وبينما كانت الجزائر تنتحر على طريقة «الهاراكيري»[19]، كانت بطلة روايتي «الممنوعة» تعودُ لِدَفْن الحبّ تحت هذا الرُّكام.

تستفسرني «فتيحة» بنظراتها، فأجيبُهَا: «جيد، فلنواصل المسير. فلو أني أضع قدميَّ على الأرض، فَلَن أستعيد الشجاعة للمغادرة بسرعة.»

في الطريق، وتحت حرارة خانقة في نهاية هذا النهار من شهر مايو، كانتْ طلبيّةُ أبي تَدُقُّ في رأسي: أحضري لي مَعكِ معطفاً خفيفاً.

---

(19) طريقة انتحار يابانية يغمد فيها الياباني سيفاً في جسده، وتعد من أشكال البطولة والفروسية.



الصفح؟

في يوم الحادي والعشرين من ديسمبر سنة 2001، عدتُ إلى الجزائر. كانت «فتيحة» وحدَها على عِلْم بقدومي في الصحراء. جاءت إلى المطار لاستقبالي بِصُحبَة ابنها البكر. سأقضي المساء معها وفي بيتها. كُنَّا نَتحدث عن التفاصيل العَمَلِيّة لسفرية إلى «تيميمون». سفرية لوحدنا من «بشار» إلى «تيميمون» في السيارة. أكثر من سبعمائة كيلومتر. إنها أول مرة سأسافر فيها من الصحراء إلى أقصى الصّحراء. فإلى حدود البكالوريا لم أكن أُغادر منطقة «بشار». وحين تخلصت من هذه المنطقة، لم أعد إليها قط. كثيرٌ من الحزن ومن القلق. وسيلتحق بنا «وديع» و«فاطمة» في فترة أعياد نهاية السنة. مُجَرد التفكير في مثل هذا السفر بصحبة «فتيحة» هو في حدّ ذاته نَفَسُ عُطلة قبل مِحَن «قنادسة». منذ شهر مايو وأنا أعيش حياة جهنّمية ما بين الطبّ وكتابة هذه الرواية والقلق على مصير زوجين صديقين عزيزين ضحية حادث سير مروع...

هذه المرة قررتُ أن أصل إلى «قنادسة» من دون إعلان. لم يكن لديّ أيّ خبر منذ شهر مايو، لم أسأل عنهم لأنهم لا يمتلكون هاتفاً. أما فيما يخصّ البريد فليس ثمة مِنْ داعٍ لمُجرّد التفكير فيه. الرسائل تصل متأخرة جداً، فضلاً عن أنّ أبَوَيَّ لا يستطيعان قراءة

العربية ولا الفرنسية. إذاً فمِنَ الصعب الكتابةُ في مثل هذه الحالة، حين يتوجب على الكَلِمَات، بعد سنوات من الصمت ومن التمزقات، أن تستعيرَ طريقاً لا نختارها.

مَررْتُ بالعاصمة بشكل خاطف من أجل لقاءٍ لِلكُتَّاب مع الجمهور. أول مرة منذ. . . . تُدهِشُني موهبة هذا البلد في تدمير الإرادات والمقاولات من أجل العودة بشكلٍ دائم إلى المرات الأول دونما نهاية. مبارزةٌ مُريعةٌ ومُضحكةٌ ما بين اثنين من العمالقة، ونحن فيها مجرَّدَ دُمى. ومهما يَكُن من حال صفاء الذهن والسخرية، فإنّ الأمر كان جيداً. فمن الجيّد هذا التبادُلُ انطلاقاً من هامش الكتابة ومن قَلَقِهَا ومن المُسَاءَلات أمام جمهور من هذا النوع. هذا الجوّ قادر على تحويل دمية متحركة إلى بَطَل. البارحة، مَساءً، كانت بيننا نقاشات لا تنتهي. وكُنتُ قبلها قادمة من عمل ليليّ شاقّ دام أربعة أيام. وهذا يُفَسّرُ الحالةَ التي وصلتُ فيها إلى مدينة «بشار». خاملة لا تستطيع أن تموتَ بِصِفةٍ نهائية.

لم أَبْقَ في العاصمة إلاّ يوماً ونصف يوم بالرغم من كلّ الالتماسات. كنتُ مُصَمِّمَةً على تكريس معظم وقتي للصحراء، وعلى أن أعثر على ذاتي فيها. وفيما يخصّ «قنادسة» فقد كنتُ على وَعْي بأنني لن أظلَّ فيها أكثر من المرة السابقة. من المؤكّد أنني أُراهِنُ على اللحظات المُمَيَّزَة مع والِدِي. ولكن على الرغم من الأهمية القصوى التي يكتسيها هذا اللقاءُ فإنه لن يستطيع سدّ الثغرات والتصدعات، فضلاً عن أنني سأكونُ عاجزةً عن قضاء نهارات بأكملها جالسةً كضيفةٍ، وفي الاستماع إلى ثرثرات نساء المنزل. لا أستطيع أنْ أقاسي، لفترة طويلة، الكلمات ذات الروائح العنصرية أو

الأمور التافهة. فالأولى تجعلني خارج ذاتي بينما الثانية تُزْهِقُنِي. غير أنني لا أريدُ وليست لديّ أية رغبة في إبداء الغضب عليهنّ، فأنا لم أَعُدْ لِكي أختنق ولا لِكَي أجهش بالبكاء. لقد فكرتُ في كلّ هذه الأشياء من قبل، وكتبتُ عنها في «مونبوليي». لقد مرّت أفكاري عبر غربال الكتابة. عبر تشخيص للأمراض من طرف طبيب. . . الخلاصُ هو مادة المُتَمَرِّدَة، ويوجد في سِمَات الهاربة والمُتَوَثِّبَة والمصابة بالأَرَق التي تقطع كلّ الروابط، فضلاً عن أنّ دورَ الوجيهة الذي صُنِعَ لي هنا يَحُثُّنِي، على النقيض، إلى الهرب.

تعرفتُ أخيراً على أبناء «فتيحة» الرائعين، الذين بالكاد لمحتُهُمْ في صخب المرة الأخيرة. «فتيحة» تُدَلِّلُنِي وتحيط بي في السرير بالضحكات الخفيفة نفسها التي تجعل الزمن يتوقف بي في فترة المُراهَقَة. في الغد وبعد أن نمنا إلى الضحى وبعد فطور مُعَدٍّ بعناية: «ماذ تريدين أن تفعلي الآنَ؟ تريدين التنزه في «بشار» وحولها؟ – أريدُ الذهاب إلى «قنادسة»». كانتْ لديها مرافعةٌ في ما بعد الظهيرة، وتَكَفَّلَ ابنُهَا البِكْر باصطحابي.

أصاب الوهنُ أبي كثيراً خلال ستة أشهر. وعلى الرغم من نظره الذي لم يتغير، فإنه كان بصدد الذبول. أحضرتُ له معطفاً خفيفاً. خفيفاً جدا. أَلْبَستُه إيّاه، فكان مناسباً لقامته تماماً، حتى من ناحية طول الكُمَّيْن. كنتُ أرتجف من التأثر. كان مستنداً إلى وسائده، ويُلامِسُ مُكَوِّنَاتِهَا. لا يوجد أيُّ مَلِكٍ جدير بأن يكون ابن عمّه. نبدو مثل طِفْلَيْن يأخذان ألعابهما مأخذ الجدّ. وهما يرتجفان من الانتباه، آسِرَيْن انتباهَ زُمرة لا تنتهي تَحَوَّلَتْ هذه المرة إلى مُتفرِّجين.

أحضرتُ هدايا حتى لهذه الزمرة من الأولاد. فَهَلْ أنا بِصَدَد التمتع بدور «ماما نُويل» في الصحراء؟ يجب أن أحرص على ألاّ أُعَوِّدَهُمْ على هذا. إنّ عدَدَهُمْ كبيرٌ جِدّاً. بالإضافة إلى الأخوات يوجد ثلاثة إخوة مع زوجاتهم - المُحَجَّبَات أيضاً - وأولادهم. لا أعرف كم من الوقت أستطيع فيه المُقاوَمَة . أريد أن أرى القرية من جديد وأن أَتَنَزَّه فِيهَا.

العلاقات مع أمي ما زالت مُتَنَافِرة. ولكنّي، هذه المرة، ربَطْتُ نَظَارَتَيَّ بخيطٍ، يدور حول عنقي كي لا أَضِيعُ. يكفي أنْ أَضَعَهُما على أنفي كي أُؤَكِّدَ لها وُجُودِي: «هل رَأَيْتِنِي؟!» لستُ مُسْتَعِدَّةً للخضوع لِمَطَالِبِهَا الطائشة. لستُ مُستَعِدَّةً لأَهْتَمَّ بمجموع هُمُوم كلّ تَشَعُّبَات قبيلتها. إنّ عدمَ انتباهها لِحَالي ما كان لِيُثْنِينِي عما صَمَّمْتُ عليه.

غرفةٌ واحدة لكل عائلة بما فيها أبناؤها لا تَكفي. أكياس النوم لَمْ تَتَغَيَّر. بَطَّانِية على الأرض وأخرى فوقها. كُلُّهُمْ مُلْتَحِمون بفضل النوم نفسه. لا يوجدُ سريرٌ واحدٌ في المنزل. أنامُ على مَقْعَد، وحيدةً، في غرفة الضيوف. كُلُّ هذا يُذَكِّرُنِي بذكريات... الفرق الوحيد يتمثل في انعدام الكُتُب، هنا، باستثناء الكُتُب التي أخرجْتُهَا من حقائبي وَوَضَعْتُهَا بالقرب مني.

نمتُ في ساعة متأخرة جداً، واستيقظتُ في الفجر لَدَى مُرُورِ سيارات التاكسي الأولى التي تحمل دُفْعَاتٍ من العمال صوب «بشار»، فقد كانت نوافذ الغرفة تطلّ على الشارع. وهذه النوافذ، بطبيعة الحال، لا تتوفر على تزجيج مزدوج. أنهضُ، فلديَّ رغبةٌ جارفة في الخروج كي أَجُوبَ الأمكنة.

أَلِجُ إلى دار الثقافة الموجودة في ساحة القرية. والأمر يتعلق في الواقع بِمتحف توجد فيه كلُّ ذاكرة مَنَاجِم الفحم الحجري في المنطقة، هذه المناجم التي دَفَنَهَا عصرُ النفط. مَقَارِئُ زجاجية تَتَوَسَّطُ القاعة. اقتربتُ منها ورأيتُ صُوَرِي في مقالات صحفية عديدة. الرُّعبُ دَسَرَ عمودي الفقريّ: «أُوجَدُ تحت زجاجٍ في متحفٍ قبل وفاتي.» ولكنّ نَظَري سرعان ما لفتَ انتباهَهُ وَجْهٌ آخَرُ أعرفه بشكل جيّد: «إيزابيل إيبيرهاردت»! حُضورُها بِجَانِبِي، وهي الراحلةُ، يُعيدُ، على الفور، إلى هذا الاكتشاف دَلاَلَتَهُ الحقيقيّةَ، ألا وهي التكريمُ. لا يوجد في هذا المكان شيءٌ مَرَضِيٌّ، فأنا أُشَكِّلُ جُزءًا من ذاكرة هذا المكان. هذا كلّ ما في الأمر. أَتَوَاجَدُ في هذا المكان وسط بِذْلات ووسائل بدائية لِعُمَّال المَنَاجِمِ. أُحَاذِي في هذا المكان «إيزابيل إيبيرهاردت»، وهذا ما يَهُزُّنِي.

أَتَوَجَّهُ صوب «القصر»، وعينايَ مقلوبَتَان. أزورُ الأطلال التي تخضع لترميم بطيء، والكثيب والمقبرة. زرعتُ يَدَيَّ في تراب قبر جَدَّتِي. جُمَلُها تنبثق من جديد في رأسي. لم أَنْسَهَا أبداً. إنّها موجودةٌ في كُلّ كتبي. قَبْلَ الكلمات المكتوبة باللغة الأخرى، بكثير، حَمَلَتْنِي كلماتُهَا على الحُلم ودَفَعَتْنِي إلى التعلّق بأفكاري وبالانشقاق. كلماتُ جَدَّتِي جعَلَتْنِي مُتيَقِّظَةً لِدَلاَلَة الكَلِمَات القاتِلَة أحياناً والمُقَدَّسَة أحياناً أخرى. أرى من جديد غَضَبَهَا ضدّ عنصرية الجزائريين إزاء السُّود. أسمَعُها تُحَذِّرُني: «أَلاَ تَرَيْن، إنهم لا يقولون «كْحَلْ» بل يقولون «عَبْد» للدلالة عليهم». أَتَذَكَّرُ أيضاً ردَّها السريع الغاضب جِدّاً، ذاتَ يوم، على العمل الشائن نفسه: «إذا كنتِ لا تُحِبّين اللون الأسودَ فما عليكِ سوى نزعه من عينيكِ!» وبين أحضان

هذا الشعب ذي العينَيْن السوداوَيْن في أغلبيتِهِ، عَلَّمَتْنِي أَنْ أُشْهِرَ هذه الجملة للدلالة على أنّ الخساسةَ لا لونَ لَهَا.

المنزلُ الذي كبرْتُ فيه مغلقٌ. لم يتغير من الداخل. ولكن المحيط أصبح من الصعب التعرّف عليه. الحديقةُ اخْتفتْ، وبالتالي اختفى القَصَب كذلك. فقط نَبْتَتَان أو ثلاث من الأَثْل ما زالت صامِدة مثل ديناصورات. وحدهُ الكثيبُ يَعْبُرُ العقود ولا يَتَغَيَّرُ.

ظللتُ يومين في «قنادسة»، من دون أن أنام تقريباً. ضجيجُ بعضِ السيّارات في الصباح الباكر، بالتأكيد، ليست السببَ الوحيدَ. ما عدا دورتي الاستطلاعية في القرية، وما عدا ساعتين اثنتين من التنفس بالقرب من «فتيحة»، فإني قضيتُ معظم وقتي جالسةً بجوارِ أبي.

لحظةَ الوداع طَفِقَ أبي يبكي: «لا أعرف ما إذا كنتُ سَأَرَاكِ، يا ابنتي، إذاً فَسَامِحيني واصفحي عنيّ. بَرَكَتِي تُرافِقُكِ.» صوت بنتِ شِرّيرة يَرِنُّ في داخلي: «هذه الأشياءُ لا تُلْفَظُ إلاّ حين يكون كلُّ شيء قد ضاع!»

مُنْصَعِقةً، أَجْلِسُ القرفصاء، لبعض الوقت، وآخُذُ بِوَجه أبي بين يَديَّ وأُقَبِّلُ دموعَهُ في أقصى أطراف عينيه وأُسرِع بالخروج. الصَّفْحُ، هذه الكلمة ليس لها إلاّ معنى واحد، وهو أن أبي سَيَسْتَسْلِم للنوم الأخير، ولَنْ أكونَ هنا لآخُذَ بِيَدِهِ، ولأُغْلِقَ عَيْنَيْهِ.

مليكة مقدّم

المتمرّدة

في كل رواياتها تقلّب مليكة مقدّم صوراً من سيرة تلك الفتاة الجزائرية، التي عايشت احتلال فرنسا للجزائر، وحملت أحلام محيطها في جزائر حرّة.

بذاكرة مجروحة، وروح تخزّن حبّاً كبيراً لذلك البلد، تكتب آملة أن تتحقق تلك الأحلام التي راودت الجزائريين الذين هبّوا ضد الاحتلال ودفعوا ثمناً غالياً لحرّيتهم.

تلك الحريّة التي ما إن تخلّصت من سيطرة الاحتلال، حتى خضعت لسيطرة العسكر ورجال الشرطة، وخضعت لسيطرة أقسى ممن ادّعوا أنهم حماة شرف المجتمع الجزائري وعودته لأصوله.

طحنت التحولات التي حصلت في الجزائر بعد الاستقلال أحلام أمثال مليكة مقدّم، كما طحنتها الحرب وعمليات القتل الرهيبة.

من كل هذه الآلام تكتب مليكة مقدّم عملاً تتناوبه السيرة وخيال الراوية. تكتب رغبتها في التمرّد والخلاص من السيطرة إلى أفق حرّية الإنسان في مجتمع فقدَ قدرته على الحلم بالقيامة، وأخضع المرأة فيه بشكل خاص لمجموعة من القيود نزعت عنها أبسط الحقوق الإنسانية.

رواية/ سيرة معجونة بالألم والحلم.

المركز الثقافي العربي
ص ب ٥١٥٨ / ١١٣ بيروت - لبنان
ص.ب 4006 — الدار البيضاء - المغرب